

الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم التاريخ والآثار



مسلمة بن عبد الماكر
حياته وجهاده
٦٢ هـ ١٢١ هـ

إعداد الطالب
عبد القادر جباره محمد الأسطل

إشراف
الدكتور / خالد يونس الخالدي

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

٢٠٠٧ / ١٤٢٨ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



الرقم الداخلي 1150

جامعة الإسلامية - غزة
The Islamic University - Gaza

عمادة الدراسات العليا

ج س غ /35/
رقم 2007/06/04
Date التاريخ

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ عبد القادر جباره محمد الأسطل لنيل درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ
وموضوعها:

"مسلمة بن عبد الملك - حياته وجهاده 62 هـ - 121 هـ"

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم السبت 23/رماد أول/1428هـ، الموافق 09/06/2007م في تمام الساعة العاشرة صباحاً، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

مشرفاً ورئيساً
 مناقشاً داخلياً
 مناقشاً خارجياً

د. خالد الخالدي
أ.د. رياض شاهين
د. يوسف الزاملي

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في كلية الآداب / قسم التاريخ
واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتفاني الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.
ووالله ولي التوفيق،،،

عميد الدراسات العليا

د. مازن إسماعيل هنية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
الْحٰمِدُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْمُكَبِّرُ
صَلَوٰةُ الرَّحْمٰنِ عَلٰى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

الإهاداء

إلى والدائي الغاليين الكريمين الذين وقفا معي ورباني وعلمني . *

إلى زوجتي التي وقفت بجانبي تشجعني وتوازرني وتعيني . *

إلى المجاهدين القابضين على جمرتي الدين والوطن . *

إلى الرجال الذين يمتشقون سلاحهم دفاعاً عن عقيدتهم وأمتهن ، الذين قال الله فيهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَدِّيَنَّهُمْ سُبْلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

إلى العاملين في حقل الدعوة الإسلامية في كافة التغور والميادين *

أهدي هذه الدراسة

الباحث / عبدالقادر جباره الأسطل

شكر وتقدير

قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرْ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَىٰ وَالدَّىٰ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَهُ وَأَدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

[النمل: من الآية ١٩]

أتقدم بالشكر والعرفان إلى كل من وقف بجانبي وساعدني في إتمام هذه الدراسة ، وأخص بالذكر .

❖ أسرتي التي تحملت عبئاً كبيراً مادياً ومعنوياً في سبيل إنجاز وإتمام هذا العمل .

❖ الدكتور / خالد الخالدي أبا عبادة الذي أشرف على هذه الدراسة، و اختار لي هذا الموضوع، ولم يأل جهداً في مساعدتي والصبر علي، فكان نعم الأخ الموجه والمعلم فجزاه الله خير الجزاء.

❖ الأستاذ/ سامي طراف الأسطل، الذي شجعني وساعدني وبذل جهداً كبيراً من وقته من أجل إتمام هذه الدراسة.

❖ الأستاذ / إبراهيم الزاملي ، الذي قام بمراجعةه لغويًا ، وتدقيقه.

❖ مدير المدرسة الأستاذ/ علي الفرا الذي سهل لي الخروج للتمكن من حضور المحاضرات ، وأشكر كذلك بقية المدرسین الأفضل العاملین في المدرسة.

❖ العاملین في مكتبة الجامعة الإسلامية من إداريين وموظفين.

❖ العاملین في مكتبة جامعة الأزهر ، وكذلك العاملین في مكتبة جامعة الأقصى بفرعيها خانيونس وغزة.

❖ الأخوة القائمين على مكتبة دار الكتاب والسنة في خانيونس.

❖ إلى كل هؤلاء والى كل من وقف بجانبي وآزرني أتقدم بالشكر والعرفان .
فجزاهم الله عنی خير الجزاء

مُقَلّمةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على الهدى الأمين، وعلى الله وصحبه أجمعين وبعد :-

لما اطلعت على تاريخ بنى أمية وهي الحقبة الذهبية في تاريخ دولة الإسلام حيث أنها مثلت أقصى اتساع لدولة الإسلام على مدار التاريخ . وما كان هذا الفتح العظيم يأتي جزاً أو بطريقة سحرية، بل قام على أكتاف الرجال الذين جاهدوا وضحوا في سبيل الله بالنفس والنفيس والغالي والرخيص، ومن ضمن هؤلاء قادة عظام شهد لهم القاصي والداني. أمثال طارق بن زياد ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وغيرهم.

ولكن هناك قادة آخرون لا يقلون شأنًا عن أولئك إن لم يكونوا أبعد أثراً وأرسط قدماً في هذه الفتوحات، بيد أن المؤرخين قد أغفلوهم ، فلا يكاد يعرف سيرتهم أحد من المثقفين فضلاً عن المتخصصين.

ونذكر منهم القائد العظيم "مسلمة بن عبد الملك" المرواري الأموي القرشي وهو أحد أبناء الخليفة عبد الملك بن مروان بن الحكم.

ولقد عاش مسلمة في هذه الفترة التاريخية الهامة التي مثلت ذروة الفتوح والتي ألت بظلالها على المجتمع الإنساني عامة والمجتمع الإسلامي خاصة فجعلت منه مركزاً لإشعاع الحضارة وإقامة العدل الذي قضى على هيمنة الظلم.

ومن الجدير ذكره ونحن في هذا العصر المظلم الذي تراجع فيه الإسلام دولة وحضارة أن نرجع إلى تلك الفترة وننهل منها ما يعين على استتهاض وبعث جديد يستثير بسالف المجد الأول ل تستعيد أمتنا عزها المؤذن من جديد. استناداً إلى قول نبينا - صلى الله عليه وسلم - "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" [موطأ الإمام مالك - ج ٣ ، ص ٢٩٥] ومن أجل بعث هذه الخيرية من جديد يجب أن نعود لدراسة سير الأعلام المنارات من رجالات القرن الأول والثاني . وما كان مسلمة إلا أحد هذه المنارات في ذلك التاريخ المشرق، فعمدنا

إلى أن يكون مجالاً لبحثنا لما تحمل سيرته في طياتها من مناقب عديدة ومزايا فريدة جديرة بأن ينشأ عليها أبناء المسلمين من هذا الجيل . وأجملنا ذلك في النقاط التالية...

أولاً: مسوغات الدراسة:

١. إبراز شخصية مسلمة والوقوف على جوانبها المختلفة كقائد وولي وتقى وعالم وزاهد.
٢. إغفال الباحثين لهذه الشخصية الفريدة.
٣. تبيان دور مسلمة في ترسیخ دولة الإسلام سواء كان عن طريق فتوحاته العظيمة، أو عن طريق إخماده ل الفتنة الداخلية التي لا تقل خطراً عن العداون الخارجي.
٤. استلهام الدروس وال عبر من شخصية هذا القائد الفذ.
٥. رفد المكتبة العربية التاريخية بدراسة متخصصة حول شخصية طواها النسيان.

ثانياً: مشكلات الدراسة :

- ولعل أهم ما واجه الباحث من مشاكل وصعوبات تمثلت في الآتي :
- ١ - عدم وجود أي دراسة سابقة تناولت هذه الشخصية لا قديماً ولا حديثاً .
 - ٢ - تتأثر المعلومات في بطون أمهات الكتب من المصادر القديمة فلا تكاد تجد إلا بضعة أسطر في المصدر الكبير.
 - ٣ - تشعب مصادر المعلومات بخصوص الدراسة فشملت مصادر الأدب والفقه والسير وكتب الرجال واللغة والمعاجم ، علاوة على مصادر التاريخ .
 - ٤ - شحة المعلومات التاريخية التي تناولت موضوع الدراسة ، حيث وجد الباحث إغفال واضح لقادة الفتح بشكل عام.

ثالثاً: الدراسات السابقة

بعد المراجعة والبحث تبين أن الموضوع لم يطرق من قبل ولم تكتب فيه دراسة علمية متخصصة . اللهم إلا من كتاب بعنوان "الأمير مسلمة بن عبد الملك" لكاتب عراقي ولم يستطع الباحث العثور عليه.

رابعاً: منهج الدراسة: وقد التزم الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي حسب المنهج العلمي .

وقد قام الباحث بتقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصول رئيسة وهي :

الفصل الأول: شخصية مسلمة بن عبد الملك.

وتحدث فيه الباحث عن شخصية مسلمة ونسبه وجاء هذا الفصل في أربعة

مباحث وهي :

المبحث الأول : نسبة وموالده ونشأته -

المبحث الثاني: ثقافته وصفاته -

المبحث الثالث: أملاكه و موقفه من مؤسسة الخلافة. -

المبحث الرابع: عصره ورأي بعض العلماء فيه ووفاته -

الفصل الثاني: فتوحات مسلمة بن عبد الملك وجهاده

وتحدث فيه الباحث عن فتوحات مسلمة وجهاده، في ثلاثة مباحث وهي :

المبحث الأول: جهاد مسلمة في عهد والده عبد الملك وفي عهد أخيه الوليد -

المبحث الثاني: فتوحاته في عهد الخليفة سليمان وعمر بن عبد العزيز. -

المبحث الثالث: جهاده في عهدي يزيد و هشام -

الفصل الثالث: الفتن التي شارك مسلمة بن عبد الملك في إخمادها

وتحدث فيه الباحث عن الفتن التي شارك مسلمة في إخمادها في ثلاثة

مباحث وهي :

المبحث الأول: دور مسلمة في إخماد الجرائم. -

المبحث الثاني: دور مسلمة في إخماد فتنة شوذب الخارجي. -

المبحث الثالث: دور مسلمة في القضاء على فتنة يزيد بن المهلب. -

الفصل الرابع والأخير: الجوانب البارزة في حياة مسلمة بن عبد الملك
تناول فيه الباحث أبرز الجوانب في حياة مسلمة وذلك عبر أربعة مباحث وهي:

- | | | |
|--------------------------------|----------------|---|
| الجانب العسكري في حياة مسلمة. | المبحث الأول: | - |
| الجانب الإداري في حياة مسلمة. | المبحث الثاني: | - |
| الجانب الأخلاقي في حياة مسلمة. | المبحث الثالث: | - |
| الجانب الأدبي في حياة مسلمة. | المبحث الرابع: | - |

الفصل الأول

شخصية مسلمة بن عبد الملك

نسبة وموالده ونشأته.
ثقافته وصفاته.
أملاكه و موقفه من مؤسسة الخلافة.
عصره ورأي بعض العلماء فيه ووفاته.

* المبحث الأول :
* المبحث الثاني :
* المبحث الثالث:
* المبحث الرابع:

المبحث الأول

نسبه و مولده و نشأته

نسبة وموالده:

هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس القرشي يلتقي بنسبة مع النبي صلى الله عليه وسلم من حيث الجد^(١). وذكر السمعاني في الأنساب أن جموعاً كثيرة من العرب أطلق عليهم لقب أمية، لكن المشهور بهذه التسمية بنو أمية بن عبد شمس، الذي يرجع إليهم مسلمة في نسبة^(٢).

أما جد مسلمة فهو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، تولى الخلافة سنة "٦٤ هـ = ٦٨٣ م" وكانت خلافته تسعة أشهر فقط^(٣).

ووالد مسلمة هو الخليفة عبد الملك الذي يُعد المؤسس الثاني لدولة بني أمية، الذي وحد الأمة بعد طول فرقة وصراع، وعاد بالدولة الإسلامية إلى عهد القوة والبناء والفتح، وكان مولده سنة "٢٦ هـ = ٦٤٦ م" وبُويع بالخلافة بعد موت أبيه مروان بالشام، في شهر رمضان سنة "٦٥ هـ = ٦٨٤ م" وكانت خلافته زهاء إحدى وعشرين سنة^(٤).

ولقد كان مولد مسلمة حسب ابن كثير في عام الحَرَّة، سنة "٦٣ هـ = ٦٨٢ م" عندما أجلَّ ابن الزبير بني أمية من المدينة، وقدم مع أبيه عبد الملك إلى الشام^(٥). وقد تزوج عبد الملك العديد من النساء منها حرائر ومنهن الجواري، وقد كان مسلمة العديد من الأخوة، وهم.

١. الوليد وسليمان ومروان الأكبر وعائشة، وهؤلاء أمهما ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث.

(١) الطبرى: تاريخ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ؛ ابن الأثير الكامل: ج ٤ ، ص ١٤ .

؛ ابن دفناق: الجوهر الشمين، ج ١ ، ص ٨٢-٨٣ .

(٢) السمعاني: الأنساب ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ١٤ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٦٣ .

٢. يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم، وهؤلاء أمهن عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.
٣. هشام وأمه بنت هشام بن اسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية.
٤. أبو بكر واسمه بكار وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله.
٥. الحكم وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان.
٦. فاطمة وأمها أم المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة.
٧. وكان أيضاً لعبد الملك العديد من أبناء الجواري منهم: مسلمة والمنذر وعنبسة وسعید الخير، والحجاج^(١).

وذكر أيضاً لعبد الملك زوجات آخريات مثل شقراء بنت مسلمة بن حبس الطائي، وابنة علي بن أبي طالب، وهي من ذرية عبدالله بن جعفر^(٢). ويحمل ابن كثير ذرية عبد الملك بقوله: "كان له أولاد شتى، فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكوراً وإناثاً^(٣)".

وقد أحصى الشيخ الخضري زوجات وابناء عبد الملك، وذكر تسعة زوجات وتسع عشر من الابناء، هذا سوى أمهات الأولاد^(٤).

وكان لمسلمة من الأخوات اثنتين هما: فاطمة وعائشة.. وأما فاطمة فقد تزوجت الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ابن عمها، وكانت لها مكانة كبيرة في بيت الخليفة حيث كانت محرمة على ثلاث عشرة خليفة وهم: معاوية رضي الله عنه، إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم وهو: محمد بن مروان، فإنه كان ابن عم لها، ليس بمحرم، والباقيون كلهم محارم حيث أن أمهها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فمعاوية جد أمهما، ويزيد جدها لأمهما، ومعاوية بن يزيد خالها، ومرwan جدها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان ويزيد وهشام أخوتها، وعمر بن

(١) الطبرى: تاريخ، ج ٣ ، ص ٦٦٨ ، القلقشندي: مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية؛ ج ٩ ، ص ٦٨ .

(٤) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية؛ ج ١ ، ص ٣٥٩ .

عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن يزيد، أولاد أخيها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر^(١).
أما بالنسبة لأخته عائشة فقد تزوجت بخالد بن يزيد بن معاوية^(٢).

ذرية مسلمة

كان مسلمة يكنى أبو سعيد وأبا الأصبغ، ويلقب بالجرادة الصفراء^(٣) لصفرة كانت تعلو وجهه أما سعيد فهو الابن الأكبر وبه يكنى مسلمة^(٤) ومن أولاده يزيد وإبراهيم الذي قتل يوم أبي فطروس^(٥) وشراحيل الذي مات بالسم في سجن مروان^(٦) وله من الأبناء محمد ، والذي فيما يبدو أنه كان أكثر الناس شبهًا بأبيه خلقاً وخلقًا وكان من أجمل الناس وأشجعهم^(٧).

وظهرت شجاعته عندما التقى الأمويون في المعركة بعد الله بن علي العباسي، وكان محمد فتى عليه أبهة الشرف، يقاتل مستبسلاً فناداه يا فتى لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد، فقال: إلا أنه فلستُ بدونه، قال فلاك الأمان من كنت ... فأطرق ثم قال:

وَكُلَا أَرَى لَكَ شَرَّاً وَبِيَّلَا	أَذْلُّ الْحَيَاةِ وَكُرْهُ الْمَمَاتِ
فَسَيِّرَا إِلَى الْمَوْتِ سَيِّرَا حَمِيلَاً	فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا

ثم لحق بمروان وقاتل حتى قتل^(٨).

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين؛ ج ١ ، ص ٢٣٢.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: المعارف؛ ص ٢٠٢.

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٣ ، ص ٦٦٧ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٣٢٨.

(٤) البلاذري : أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٥١.

(٥) فطروس: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين كانت بها المعركة بين عبدالله بن علي وبين الأمويين، معجم البلدان، ج ٥ ، ص ٣١٥

(٦) ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ١٠٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٨) الأصفهانى، الأغاني، ج ٤ ، ص ٣٣٨-٣٣٩ ؛ ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ١٠٣ .

ومن ابناء مسلمة المشهورين: يزيد عالم اللغة، وكان له فرس عُنْى بتؤديها، وكان إذا نزل عنها وألقى عنانها لم تتحرك حتى يرجع إليها صاحبها^(١) ومن ابناء مسلمة أيضاً إسحاق، حيث كثر نسله، وهو محدث مشهور، دخل مصر وأقام بها، وابن بن مسلمة أنجب الكثير، وسكن التغور مجاهداً، ومن ذريته من دخل إلى الأندلس زمن حكم المستنصر^(٢). وكثرت ذرية مسلمة وتفرقت في البلاد حيث سكن بعضهم بقرب حرّان في حصن يُعرف بحصن مسلمة^(٣).

ومن ذرية مسلمة الحصني: الشاعر، وهو محمد بن يزيد بن محمد بن مسلمة مشهور معروف، وقد دخل بعض ابناء الحصني إلى الأندلس^(٤) وأشارت مصادرنا الإسلامية إلى اسماء بعض زوجات مسلمة منهم: الزعوم بنت قيس بن الأشعث الكندي^(٥) وكذلك الرباب بنت زفر، وقد كان مسلمة يأذن لأخويها الهذيل والكوثر في أول الناس، وانجب منها سعيد الأصغر، أما سعيد الأكبر فكانت أمه من الجواري^(٦).

نشأتها:

أما عن نشأة مسلمة، فقد اهتم الخليفة عبد الملك بتنشئة ابنته، وحرص حرصاً كبيراً على أن يعلمهم كريم الصفات وجميل الأخلاق، واختار لذلك الصالحين من المربيين والزاهدين الثقات، على رأسهم إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر^(٧) الذي تميز بالزهد إذ وضعه التتوخي في مرتبة زهد عمر بن

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ج ١، ص ٧٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ١٠٤؛ ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس ص ٩٦.

(٣) ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب ، ص ١٠٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٤ ؛ الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، ج ٢ ص ١١٧

(٥) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٥١ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ١١٥ .

(٧) ابن العديم: بغية الطلب، ج ٤ ، ص ١٧٠١ .

عبدالعزيز عندما قال: "ما رأيت في هذه الأمة زاهداً غير اثنين عمر بن عبد العزيز، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر"^(١).

وهو تابعي ثقة، وهو من يُرضى به في الحديث، وكان يوصى في زمانه بالمعلم، وقال فيه يحيى بن معين: "إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم معلم"^(٢)

وكان شديد الحرص على السنة النبوية يحضى على الاهتمام بالحديث وحفظه، وكان يقول "ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نحفظ القرآن"^(٣) ويُعد إسماعيل من أهل الصلاح والفصاحة والزهد وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإسماعيل بن عبيد الله، وأسند إليه ولاية أفريقيا فأسلم عامته البربر في ولايته وتولى الولاية سنة ١٠٠ هـ - ٧١٨ م وكان حسن السيرة حتى توفي عمر.

ولا شك إن هذه الموصفات الطيبة سوف تتعكس على من قام بتربيتهم وقد أدب سعیداً ویزیداً ومسلمة والعباس بن الولید^(٤) وسوف يظهر ذلك جلياً عند الحديث عن مسلمة وصفاته.

وقد أشى الدكتور محمد الرئيس على سياسة عبد الملك الذي أحسن الاختيار في البداية لمربي ابنائه^(٥).

وقدم عبد الملك نصيحة إلى مربي أولاده إسماعيل حيث قال له: "إنني قد اخترتكم لتأنيب ولدي، وجعلتكم عيني عليهم وأميني، فاجتهد في تأديبهم، ونصيحتي فيما استصحبتكم فيه من أمرهم، علمهم كتاب الله عز وجل حتى يحفظوه، وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعلقونه، وخذهم من الأخلاق بأسنانها، ومن الآداب بأجمعها، وروهم من الشعر أفعه، ومن الحديث أصدقه، وجنبهم

(١) ابن العديم: بغية الطلب، ج٤، ص١٧٠٥

(٢) المصدر السابق ، ج٤، ص١٧٠١.

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٠١ ، ١٧٠٣ ، ١٧٠٤ ، ١٧٠٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٤، ص١٧٠١.

(٥) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ، ص ٢٥٣

محادثة النساء ومجالسة الأضناء^(١)، ومخالطة السفهاء، وخوفهم بي، وأدبهم دوني، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وأسأل الله توفيقك وت Siddik، ثم عين له الرزق وبدأه بصلة حسنة^(٢).

ويرى الباحث أن هذه الوصية وضعت الإطار الصحيح لمفهوم العملية التربوية بشكل رئيس، بحيث أطمأن عبد الملك على مستقبل ولده، واضعا الخطوط العريضة للمؤدب، وهي تعد نظرية تربوية تعالج جوانب التربية الرئيسية من حيث: المنهجية والتردرج، ومما لا شك فيه أن هذا هو جوهر العملية التربوية، والجدير ملاحظته أن عبد الملك ترك للمؤدب الوسائل التي يختارها لتحقيق الأهداف بحرية دون التدخل فيها، وهذا من صلب العملية التربوية.

ومن وصايا عبد الملك لتعلم أولاده إسماعيل قوله: "علمهم الصدق كما تعلموه القرآن، وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رغبة في الخير، وأقلهم أدباً، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغليظ رقابهم وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضاً، ويمصوا الماء مصاً، ولا يعبو عباً، وإذا أردت أن تتناولهم فتناولهم بأدب فليكن ذلك سراً لا يعلم بهم أحد من الحاشية، فيهونوا عليهم"^(٣).

وحدث أبو أيوب الرقي المؤدب عن أبيه قال :دعا عبد الملك المؤدب لولده فقال له، روبي ولدي ما في هذا القرطاس وإن فيه وصية معاوية".^(٤)
حيث كانت وصيته جامعة، اشتغلت على الكثير من المعاني التربوية ، وقدمت كذلك النصائح والمواعظ المختلفة، وحثت على كريم الأخلاق والصبر، والاحتساب وقدمت رؤيا سياسية، أظهرت عمق نظرة معاوية واستشرافه للمستقبل وختمت بالحث على تقوى الله عز وجل^(٥).

(١) الأضناء: من الظن والرجل الظني هو المتهم في دينه، ابن منظور: لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٧٣.

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٩ ، ص ٢٩٣١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٦٦.

(٤) البلاذري : أنساب ، ج ٩ ، ص ٢٨٣١.

(٥) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٨٣١.

ولم يزل عبد الملك حاثاً ابناءه، ومعلمًا خيراً لهم حتى آخر عهده بالحياة
ويبدو ذلك جلياً من خلال وصيته المشهورة وهو على فراش الموت، والتي تحمل
أجل معاني التربية، وقد أقبل على جميع ولده فقال : "أوصيكم بتقوى الله فإنها
حصمة باقية، وجنة وافية، فاللتقوى خير زاد، وأفضل في الميعاد، وهي أحسن
كهف، وليعطف الكبير منكم على الصغير، ول يعرف الصغير حق الكبير مع سلامة
الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وأياكم والبغض والتحاسد فبها هلك الملوك
الماضون وذوو العز المكين يا بنى أخوكم مسلمة نابكم الذي تقترون عنه، ومجنكم
الذي تستجنون به، أصدروا عن رأيه، وأكرموا الحاج ، فإنه الذي وطأ لكم هذا
الأمر، وكونوا أولاداً أبراً وفي الحروب أحراً، ولالمعروف مناراً^(١)

بهذه الدرر الغالية كان عبد الملك يطلب من مربى بنيه أن يغرس فيهم هذه
الجواهر، والتي أثمرت خير ثمن، وأورفت خير ظلال، وارتوى من نبعها مسلمة
وإخوته .

ويذكر المسعودي أن عبد الملك كان مواظباً على حد ابنائه على كريم
الأخلاق، واصطناع المعروف، وقال ذات مرة مخاطباً بنيه: "يا بنى عبد الملك
أحسابكم .. أحسابكم صونها ببذل أموالكم فما يبالي رجل منكم ما قيل فيه من
الهجو بعد قول الأعشى :

تَبِيَّنُونَ فِي الْمَسْتَى مَلَاءُ بُطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ جَوْعَى يَبِيْتُنَ حَمَائِصًا

وما يبالي قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير:
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقٌّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقْلَيْنَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ^(٢)

في هذه البيئة، ومن خلال هذه المحاضن التربوية، نشأ مسلمة بن عبد الملك، وما
أحوجنا اليوم إلى مثل هذه التربية المتزنة الجادة، بعد أن أصبحت محاضتنا
التربوية لا تقي بالحد الأدنى المطلوب من التربية؛ ويرى الباحث أنه لابد من
إحياء هذه المحاضن بصورة منهجية، تقدم المفضليات في الجوانب المختلفة
اللازمة لصياغة شخصية إسلامية من الطراز الأول، وعليه: لابد من إعادة

(١) المسعودي : مروج الذهب، ج ٢، ص ١٢٤ ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ١٠٣ .

(٢) مروج الذهب : ج ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

صياغة شاملة، تولي النابغين من ابناء المسلمين اهتماماً خاصاً؛ لنتمكن من تهيئة الأجواء لاستئاف حياة إسلامية جديدة، ولا يتسعى لنا ذلك إلا من خلال محاضن تربوية كتلك التي خرجت الأوائل.

ويعقب الدكتور الرئيس في كتابه على ابناء عبد الملك وتربيتهم بقوله: "لم يبق إلا أن نذكر أن أثر عبد الملك ظل باقياً في أولاده الذين خلفوه، فقد أحسن تربيتهم وتنشئتهم، ورسم لهم النهج، وكان لهم أسوة، وقد سجل التاريخ لهم أنهما كانوا أكفاء، حملوا الأمانة بعد أبيهم وقادوا الأمة ورعوا الدولة خير قيادة ورعاياه"^(١).

وكان عبد الملك يتبع بين الفينة والأخرى تحصيل ابنته، وأنثر التربية فيهم حيث ذكر أبو بكر الصولي أن عبد الملك جمع بنيه: الوليد وسليمان ومسلمة بين يديه فاستقر أهل القرآن فأجادوا القراءة، ثم استندتهم الشعر فأجادوا، غير أنهم لم يكملوا أو يُحكموا شعر الأعشى فلامهم على ذلك، ثم قال: ليشندني كل رجل منكم أرق ما قالته العرب ولا يُفحش، فقال الوليد:

مَا مَرْكَبُ وَرُكْوبُ الْخَيْلِ يُعْجِبُنِيْ كَمْرُكَبٌ بَيْنَ دَمْلُوجٍ^(٢) وَخَلْخَالٍ

قال عبد الملك: وهل يكون من الشعر أرق من هذا؟ هات يا سليمان، فقال: ولم يُصب، قال عبد الملك: هات يا مسلمة، فأنشده قول أمرى القيس:

وَمَا ذَرْفْتُ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبَنِيْ بِسَهْمِيْكِ فِيْ أَعْشَارِ قَلْبِ مُقْتَلِ

قال كذب أمرى القيس ولم يُصب، ثم قال أنا مؤجلكم في هذا البيت ثلاثة أيام فمن أتاني به فله حكمه، أي مهما طلب أعطيته، فنهضوا من عنده فبينما سليمان في موكب إذا هو بأعرابي يسوق إبله وهو يقول:

لُؤْ ضَرَبُوا بِالسَّيْفِ رَأْسِيْ فِيْ مَوَدَّتِهَا لَمَالَ يَهْوِي سَرِيعًا نَحْوَهَا رَأْسِيْ

فأمر سليمان بالأعرابي فجاء، ثم ذهب إلى أبيه فقال جئتكم بما سألت، فقال هات: فأنشده البيت فقال: أحسنت، وأنى لك هذا؟! فأخبره خبر الأعرابي، فقال سل حاجتك، ولا تننس صاحبك، فقال يا أمير المؤمنين: إنك عهدت بالأمر من بعدك للوليد، وإنني أحب أن

(١) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ، ص ٢٥٥ .

(٢) دملوج: هو الحلى المطوي حول نفسه طيأً، ابن منظور، لسان العرب؛ ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

أكون ولـي العهد من بعده، فأجابه إلى ذلك، وبعثه على الحج، وأطلق له مائة ألف درهم، فأعطـاها سليمان لذلك الأعرابـي^(١).

وهكـذا كان عبدـالملك متـابـعاً لأولادـه، وفيـ هذهـ البيـئة نـشـأ وترـعرـع مـسلـمةـ فـيـ منـظـومةـ تـربـوـيةـ كـامـلـةـ، وـبـيـئةـ مـسـاعـدـةـ، اـجـتـمـعـ فـيـهـاـ صـلـاحـ وـكـفـاءـةـ المـرـبـيـ، وـأـصـالـةـ الـمنـهـاجـ وـقـوـتـهـ، وـدـوـامـ اـسـتـمـارـارـيـةـ الـمـتـابـعـةـ، وـهـيـ الـأـسـسـ الرـئـيـسـةـ لـنـجـاحـ أـيـ عـلـمـيـةـ تـربـوـيةـ.

ويـعـقبـ الأـسـتـاذـ عبدـ الشـافـيـ عـلـىـ دـورـ عـبدـ الـمـلـكـ فـيـ تـرـبـيـةـ أـوـلـادـهـ قـائـلاًـ: "وـقـدـ كـانـ عـبدـ الـمـلـكـ حـرـيـصـاًـ عـلـىـ تـرـبـيـةـ أـوـلـادـهـ تـرـبـيـةـ إـسـلـامـيـةـ خـالـصـةـ، فـعـهـدـ بـتـرـبـيـتـهـمـ إـلـىـ عـدـدـ مـنـ الـعـلـمـاءـ الصـالـحـينـ، كـانـ مـنـ أـبـرـزـهـمـ إـسـمـاعـيلـ بـنـ عـبـيدـ اللهـ بـنـ أـبـيـ الـمـهـاجـرـ"^(٢).

(١) ابنـ كـثـيرـ: الـبـداـيـةـ وـالـنـهـاـيـةـ، جـ ٩ـ، صـ ١٧٧ـ - ١٧٨ـ.

(٢) الـعـالـمـ إـسـلـامـيـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـمـوـيـ، صـ ١٥٥ـ.

المبحث الثاني

ثقافته وصفاته

ثقافته:

لم يكن مسلمة قائداً عسكرياً فذاً حسب، وإنما كان واسع الثقافة، ضليع المعرفة، ملماً بعلومٍ و المعارف شتى، و نعته الجاحظ بقوله: "كان مسلمة شجاعاً خطيباً بارعاً للسان" ^(١). أما بالنسبة لثقافة مسلمة فقد كان ضليعاً في اللغة، ملماً بغرير مفرداتها، وكان يختلف أحياناً مع بعض الخلفاء حول بعض المسائل، وقد حدث ابن مسعود عن ابن كناة قال: "اختلف هشام ومسلمة في إعراب حرف أو معنى من الغريب فحكم رجلاً، فقال القول قولك يا أمير المؤمنين: فقال مسلمة هذا حكم الجهال وقولهم" ^(٢) . ولقد كان مسلمة شديد الفصاحة ويكره اللحن وكان يقول: "لا أحب أن أسأله هذا الشيخ، يعني عمرو بن مسلم، مما يمنعني منه إلا لحنه" ^(٣) . وقد يوماً العريان بن الهيثم ^(٤) على عبد الملك بن مروان فقيل له: "تحفظ من مسلمة، فإنه يقول لئن يلقمني رجل حراً أحب إلى من أن يسمعني لحناً، فأتاه العريان ذات يوم فسلم عليه، فقال: كم عطاءك؟ قال العريان ألفين، فقال كم عطاوك؟ فقال: ألفان، قال: ما الذي دعاك إلى اللحن الأول؟ قال: لحن الأمير فكرهت أن أعرّب، وأعرّب فأعربت ... فاستحسن كلامه" ^(٥) . ونقل البلاذري في الأنساب عن هشام التتوخي قال: "كنا مع مسلمة بأرميinia أيام هشام، فعرض الناس، فمر به رجل ضخم، فأبلغ عنه أمراً وجب عليه عقوبته، فقال له ما اسمك؟ قال: عبدالله بن عبد الرحمن، قال: فمن أنت؟ قال: من بني تغلب، قال ارجع، وأمر بضربه، فلما ضرب سوطاً، قال: باسم الله، قال مسلمة: "خلوا عنه، قبحه الله، فلو ترك اللحن في حال، لتركه تحت السياط" ^(٦) .

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ١٨٩.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ، ج ٨ ، ص ٨٦٠.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٢٣.

(٤) العريان بن الهيثم: من رجال مذحج وأشرافهم المذكورين، كان يتولى الشرطة في عهد يزيد بن عبد الملك وتولى شرطة الكوفة في عهد عبد الله القسري ، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٢١٤.

(٥) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ، ج ٧ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٦) أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٤٨.

وكان مسلمة يعرف غريب الألفاظ، يُرجع إليه في بعض الأحيان لتبیان معنى، أو كلمة من غريب اللغة، وذكر أن أعرابياً نزل إلى الشام فلأـ حـيـ (١) رجلاً فقال له: يا ذا الذي يبول ابنه بول الحمار، فرفع إلى القاضي، فلم يعرف ما قال الأعرابـيـ، فسألـ مسلمةـ بن عبدـ الملـكـ عنهـ فقالـ: الـبولـ سـفـادـ الـحـمـارـ، فـجلـدـهـ القـاضـيـ حدـأـ فـقالـ، وـاعـجـباـ أـضـرـبـ هـكـذـاـ فـلـاطـاـ، قـالـ القـاضـيـ وـالـهـ لاـ أـدـرـيـ ماـ يـقـولـ وـسـأـلـ عنـهـ مـسـلـمـةـ فـقـالـ الـفـلـاطـ الـمـفـاجـأـ (٢)ـ.

وحاول أحد الشعراء أن يسخر من الأعرابـيـ، وهـجـاهـ بأـبـيـاتـ منـ الشـعـرـ، فـردـ الأـعـرـابـيـ عـلـىـ الشـاعـرـ رـدـأـ فـحـمـ الشـاعـرـ، وأـعـجـبـ مـسـلـمـةـ منـ شـدـةـ فـصـاحـةـ الأـعـرـابـيـ وـقـالـ: وـيـحـكـ ياـ أـعـرـابـيـ ماـ أـظـرـفـكـ!ـ ماـ سـقـطـ إـلـيـنـاـ مـتـلـكـ وـوـصـلـهـ وـمـارـهـ،ـ أيـ:ـ أـمـرـ لـهـ بـالـمـيرـةـ (٣)ـ.

وـتـمـيـزـتـ ثـقـافـةـ مـسـلـمـةـ كـذـلـكـ بـحـبـ الشـدـيدـ لـلـأـدـبـ، وـكـانـ يـطـيـبـ لـهـ الـكـلـامـ الـفـصـيـحـ، وـيـحـبـ سـمـاعـهـ، وـقـدـ سـمـعـ يـوـمـاـ رـجـلـأـ يـنـتـكـلـمـ فـيـحـسـنـ، وـيـبـيـّـنـ مـعـانـيـهـ التـيـ يـقـصـدـ لـهـ تـبـیـانـاـ شـافـیـاـ، فـقـالـ مـسـلـمـةـ:ـ هـذـاـ وـالـهـ السـحـرـ الـحـلـ (٤)ـ.

وـكـانـ مـسـلـمـةـ صـاحـبـ ذـوقـ رـفـيـعـ يـحـبـ الشـعـرـ وـالـنـثـرـ، وـيـحـدـثـ أـصـحـابـهـ فـيـ مـجـالـسـهـ عـنـ أـفـضـلـ مـاـ قـالـتـهـ الـعـربـ شـعـراـ أـوـ نـثـرـاـ، وـكـانـ يـطـلـبـ مـنـ جـلـسـائـهـ أـحـيـانـاـ أـنـ يـسـمـعـوـهـ بـعـضـ مـاـ قـيـلـ فـيـ ذـلـكـ، وـقـدـ جـاءـ رـجـلـ إـلـىـ مـسـلـمـةـ، فـسـأـلـهـ:ـ مـنـ أـنـتـ؟ـ فـقـالـ مـنـ بـنـيـ سـعـدـ، فـقـالـ:ـ مـاـ لـكـ يـاـ بـنـيـ سـعـدـ وـالـقـصـيـدـ، وـإـنـماـ حـظـكـ فـيـ الرـجـزـ؟ـ فـقـالـ:ـ أـنـاـ وـالـهـ أـرـجـزـ الـعـربـ، فـقـالـ:ـ فـأـنـشـدـنـيـ مـنـ رـجـزـكـ، فـكـأـنـيـ وـالـهـ لـمـ قـالـ ذـلـكـ لـمـ أـقـلـ رـجـزاـ قـطـ، أـنـسـانـيـ اللـهـ كـلـهـ، فـمـاـ ذـكـرـتـ مـنـهـ وـلـاـ مـنـ غـيـرـهـ شـيـئـاـ إـلـاـ أـرـجـوزـةـ لـرـؤـبـةـ كـانـ قـالـهـاـ فـيـ تـلـكـ السـنـةـ، فـظـنـنـتـ أـنـهـ لـمـ تـبـلـغـ مـسـلـمـةـ، فـأـنـشـدـتـهـ إـلـيـاـهـاـ، فـنـكـسـ رـأـسـهـ، وـتـتـعـتـتـ، فـرـفـعـ رـأـسـهـ إـلـىـ وـقـالـ:ـ لـاـ تـتـعـبـ نـفـسـكـ، فـأـنـاـ أـرـوـىـ لـهـ مـنـكـ، فـقـالـ فـانـصـرـفـ وـأـنـاـ أـكـذـبـ النـاسـ عـنـهـ، وـأـخـزـاهـمـ عـنـدـ نـفـسـيـ، حـتـىـ تـلـطـفـتـ بـعـدـ ذـلـكـ

(١) لـاحـىـ الرـجـلـ أـيـ سـبـ وـشـتـمـ وـتـلـاحـىـ الرـجـلـانـ أـيـ تـشـاتـمـاـ، اـبـنـ مـنـظـورـ، لـسـانـ الـعـربـ، جـ٥ـ، صـ٢٤٢ـ.

(٢) الـبـلـاذـرـيـ:ـ أـنـسـابـ:ـ جـ٨ـ،ـ صـ٣٥٤٧ـ.

(٣) المـصـدـرـ السـابـقـ،ـ جـ٨ـ،ـ صـ٣٥٤٨ـ.

(٤) سـلـيـمـانـ الـمـصـرـيـ:ـ إـقـانـ الـمـبـانـيـ وـافـتـرـاقـ الـمـعـانـيـ،ـ جـ١ـ،ـ صـ١٤٣ـ.

ومدحه برجز كثير فعرفي وقربني، وما رأيت ذلك أثر فيه ولا قرّعني به حتى افترقنا^(١).

والملاحظ أن مسلمة كان يتبع كل جديد، شعراً أو نثراً، فكانت ثقافته دائمة التجديد والاستمرار، والواضح أن مسلمة كان شديد الشغف بالفصاحة وحب العلم، يقول: "إني لأنحي كور العمامة عن أذني؛ لأسمع كلام عبد الأعلى^(٢) بن عبد الله وبعض الأمراء^(٣)، وكان عبد الأعلى من أبين الناس وأفصحهم، ونقل القلقشندى في كتابه؛ ما يظهر معرفة مسلمة بالرجز، وحبه له، حيث حدث حماد بن يزيد بن جبلة قال: دفن مسلمة رجلاً من أهله، ثم قال:

نَرُوحُ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
...

ثم قال لبعضهم: أجز، فقال:

فَحَتَّىَ مَتَى هَذَا الرَّوَاحُ مَعَ الْغَدوِ
...

قال مسلمة: لم تصنع شيئاً . ثم قال لآخر: أجز، فقال:

فِيَا لَكَ مُغْدِي مَرَّةً وَمَرَحًا
...

قال لم تصنع شيئاً ، ثم قال لآخر: أجز، فقال:

وَعَمًا قَلِيلٌ لَا نَرُوحُ وَلَا نَغْدُو
...

قال مسلمة: الآن تم البيت^(٤).

وتكلم عند مسلمة جماعة من الخطباء، فأسهبوا في القول، فتكلم رجل من آخر الناس، لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، فقال مسلمة: ما شبهت كلام هذا بعقب كلام هؤلاء إلا بسحابة لبدت عجاجة^(٥) ومازح مسلمة يوماً "نصيب" الشاعر، فقال له: أنت لا تحسن الهجاء، فقال: بل والله، أتراني لا أحسن أن أجعل

(١) الأصفهانى: الأغانى ، ج ٢٠ ، ص ٤٠٦.

(٢) هو عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز أبو عبد الرحمن البصري وكان مشهوراً بالجود، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٤٤.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨١.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى؛ ج ٢ ، ص ٢٧٩-٢٩٨.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ، ص ٢٥٢؛ البلاذري: انساب، ج ٨ ، ص ٣٥٤٩.

مكان عفاك الله أخراك الله... قال فإن فلاناً قد مدحته فحرمك فاهجه، قال: لا والله ما ينبغي أن أهجوه، وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته، فقال له مسلمة: هذا والله أشد من الهجاء^(١).

وكان هشام يجلس يوماً وهو أمير - قبل خلافته - وإلى جواره مسلمة، وعندهما رجل يدعى "شبّة" بن عقال فقال هشام: ألا تخبرني عن هؤلاء؟ "يعني الشعراة الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل الذين مزقوا أعراضهم، وهاكوا أستارهم، وأغاروا بين عشيرتهم في غير خير ولا بر ولا نفع، أيهم أشعر؟ قال شبّة: أما جرير فيعرف من بحر، وأما الفرزدق فينحت من الصخر، وأما الأخطل فيجيد المدح، فقال هشام: ما فسرت لنا شيئاً نحصله، فقال: ما عندي غير ما قلت، فقال لخالد بن صفوان وكان جليسهم: صفهم لنا يا ابن الأهتم، قال: أما أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً، وأشردتهم مثلاً وأقلتهم غزاً، وأحلتهم علاً، والحمامي^(٢) إذا زأر، والسامي^(٣) إذا خطر، الذي إذا هدر قال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان فالفرزدق، وأما أحسنهم نعتاً وأمدحهم بيّناً، وأقلهم فوتاً الذي إذا هجا وضع، وإذا مدح رفع، فالأخطل، وأما أغزرهم بحراً، وأرقهم شرعاً، وأهتكهم لعدوه ستراً، الأغر^(٤) الأبلق^(٥)، الذي إن طلب لم يسبق، وإن طلب لم يلحق، فجرير، وكلّهم ذكيُّ الفؤاد، رفيع العماد، واري^(٦) الزناد، فقال مسلمة: ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين والآخرين^(٧).

ومن شدة إعجاب مسلمة بوصف خالد عن الشعراة الثلاثة مدحه، وهذا يُظهر حبه للفصاحة وقوتها البلاغة، التي أسرت فؤاده، وحركت مشاعره، فقال: ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين والآخرين وأي فخر حازه خالد بقول مسلمة هذا!!

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ؛ الأصفهاني : الأغاني، ج ١ ، ص ٣٣٠.

(٢) الحامي : الشجاع الذي يدافع عن المحارم، ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص ١٦٨.

(٣) السامي: الذي يطلب الصيد في الرّمضاء، ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٧٠٥.

(٤) الأغر: هو الخيل الذي غرقه أكبر من الدرهم، ابن منظور ، لسان العرب، ج ٥، ص ١٤.

(٥) الأبلق: هو من الألوان ما فيه من السواد والبياض، ابن منظور، لسان العرب ، ج ٢، ص ٦٠٢.

(٦) واري الزناد: أي بشوش مضيء مشرق، ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٢٦٧.

(٧) الأصفهاني: الأغاني: ج ٨ ، ص ٢٠٧؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٤ ، ص ٣٧.

وقد مُيز مسلمة من بين ابناء عبد الملك بفضاحته، وكان الناس في زمانه يقولون: "كان الوليد و محمد ابناء عبد الملك لحّانيين، ولم يكن في ولده أفتح من هشام ومسلمة"^(١).

وكان عبد الملك رحمه الله من شدة حبه للوليد لم يرسله إلى الbadia ليتعلم الفضحة، وكان عبد الملك يقول: "أضر بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى الbadia"^(٢). وكان من عادة الناس في ذلك الزمان إرسال أبنائهم إلى الbadia، ليتعلموا الفضحة، وكان هذا شأن كثير من الشعراء، ونجد مثلاً أبو نحيله الذي أرسل به والده إلى الbadia يطلب العلم ، فتأدب في الbadia حتى شعر، وقال رجزاً كثيراً، وقصيدةً صالحاً، وشهر بهما، وسار شعره في البدو والحضر، وقد كانت له وفادة إلى مسلمة بن عبد الملك، وأكرمه وأوصله إلى أخيه الوليد^(٣).

وعلاوة على ثقافة مسلمة الواسعة في الأدب، كان له أيضاً حظًّا وافرًّا في الشعر وحفظه والتغنى به، وقد كان حجة، يرجع إليها عند الخلاف حول أمرٍ من أمور الشعر، أو حول بيتٍ من القصيدة، وعند الحديث في الفصل الأخير عن الشعر وعلاقة مسلمة به سوف يتحدث الباحث عن ذلك بشيء من التفصيل .

وفيما يتعلق بالفقه، فقد كان مسلمة يحب الفقهاء ويصحبهم معه في سيره للغزو، ومنهم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، والذي يعد المفتى الخاص لمسلمة بن عبد الملك^(٤).

وقد اجتهد مسلمة في بعض المسائل الفقهية؛ حيث قام بتطبيق حد على سارق لم يُعهد تطبيقه من قبل، وقد ذكر أفلح بن حميد قال: شهدت الموسم، فأتى مسلمة بن عبد الملك بسارق قد قطعت قوائمه، ثم سرق ناقة لعبد الله بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم برحليها ومتاعها، فأمر به فأخرج من الحرم، فضربت

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ، ص ٢٥

(٢) المصدر السابق: ج ١ ، ص ٢٠٥.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٠ ، ص ٤٠٥.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤١١٣.

عنقه، فبلغ ذلك سالماً والقاسم وعبيد الله بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم، فلم ينكروا ذلك، وقالوا أصاب السنة^(١).

وإقرار العلماء الثلاثة لمسلمة في هذه المسألة؛ يدل على أن مسلمة كان له نصيب من هذا العلم؛ يؤهله للفتوى وتطبيق الأحكام الفقهية.

وكان مسلمة يرى أن من صام في السفر فعليه القضاء في الحضر، وقد خالف مسلمة في هذه المسألة أبا قرصفاة، الذي قال: صمت في السفر، ثم صمت مما قضيت، وأبو قرصفاة رجل قد أدرك النبي عليه الصلاة والسلام^(٢). وفي إحدى غزوات مسلمة، غل^(٣) رجل مصحفاً، فدعا مسلمة سالماً واستشارة في هذا الأمر، فقال اضربوه وأحرقوا متابعه، وبع المصحف، وتصدق بثمنه^(٤).

ومما يوضح بجلاء ثقافة مسلمة وتتنوعها ما خلّده من مقولات سُطرت في بطون الكتب، وهي تبيّن حكمته، ويطيب للباحث أن يستعرض جزءاً منها، حيث يقول: "إن أقل الناس في الدنيا هماً، أقلهم في الآخرة هماً"^(٥).

ومن الأقوال المأثورة عنه - والتي تبيّن مدى عزمه وقوته أرادته - قوله: "ما حمدتُ نفسي على ظفرِ ابتدأته بعجز ولا لمتها على خطأ افتتحته بحزم"^(٦). وتحدث عن فضل المرأة الصالحة وأثرها على بناء الأسرة فقال: "المرأة الصالحة خير للمرء من يديه ورجليه، ومن لم تخنه نساؤه، تكلم بملء فيه"^(٧).

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

(٢) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٣) غل: أي أخذ من الغنيمة بغير الحق وهي بحكم السرقة، ابن منظور: لسان العرب، ج ١١ ، ص ٥٠٠ .

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ، ج ٩ ، ص ٤١١٥ .

(٥) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ؛ المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٢٧ ، ص ٥٦٤ .

(٦) المرعشبي: غرر السير، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

وكان دائمًا يقول لأصحابه في أسفاره؛ والتي ما كادت تتوقف: "اتقوا زحمة المواكب، ورفةة الجنائب^(١)، وصمة الصناديق، ومضايق الفناظر، ويتقى الأصغر الأكابر إذا ساروا ليلاً، أو واجهوا خيلاً"^(٢).

ومما لا شك فيه أن هذه الأقوال نابعة من تجربة عميقة في الحياة، بل هي تعكس ثقافة الحياة والتي صبغت مسلمة بجوانبها المختلفة، ففجرت فيه جوانب الحكمة، فأصبح له نصيب من دروب الحياة المختلفة.

وكذلك من أقوال مسلمة المشهورة قوله: "ثلاثة لا أعزهم: رجل أحفى شعره ثم أفعاه، ورجل قصر ثيابه ثم أطالها، ورجل كان عنده سراري فتزوج الحرائر"^(٣). وكان مما أثر عنه قوله: "العيش في ثلات، سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل"^(٤).

وقال أيضًا: "مروءتان ظاهرتان، الرياسة، والفصاحة"^(٥). وهذه الدرر من الأقوال تبين مدى اطلاع مسلمة وثقافته وعميق تجربته؛ في شق طريق الحياة، وهكذا نجد مسلمة يمثل القائد الأنموذج من علم ومعرفة وحكمة.

ويُود الباحث أن يعرض شيئاً عن فراسته، ولقد ذكره البغدادي: "بأنه متقن التنبؤ بعلم الحدثان"^(٦).

وقال المقرّي: "كان مسلمة بن عبد الملك عنده علم الحدثان^(٧) وكان يُقال عن مسلمة أنه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية"^(٨).

(١) الجنائب: الدابة التي يسهل قيادها ومفردتها جنبية، ابن منظور ، لسان العرب، ج ١، ص ٢٧٦.

(٢) المرعشى: غرر السير ، ص ١٥٤.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٦٢ ؛ المرعشى: غرر السير، ص ١٥٤ .

(٤) يوسف القرطبي: بهجة المجالس، ج ٢، ص ١٢٥ ؛ محمود الألوسي: بلوغ الأربع، ج ٣ ، ص ١٨٦.

(٥) المرزبان: المروءة ، ص ٤٢-٤٣ .

(٦) تاريخ بغداد ، ج ١٠ ، ص ٨.

(٧) علم الحدثان، أي علم الغلمان وكل فتى من الناس والدواب يسمى حدث، ابن منظور:لسان العرب، ج ٢، ص ١٣٣ .

(٨) نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١٣٨ .

وأضاف المقرئي، أن مسلمة كان شديد الفراسة، حيث تتبأ عبد الرحمن بن معاوية أنه سيكون له شأن كبير في المستقبل، وقد أثبتت الأيام صحة فراسته^(١).
ويرى الباحث أن موضوع الفراسة من الموضوعات التي اشتهر بها بعض العرب، وهناك أكثر من قصة ذكرت في هذا الإطار، فالحديث في هذا الموضوع ليس غريباً على العرب وثقافتهم، ولا يعدو مسلمة كونه واحداً منهم، بل يزيد عليهم بما منحه الله من قوة إيمان ونفاذ بصيرة.

صفاته:

أولاً: الكرم

لقد تعددت مناقب مسلمة وصفاته، فهو خير مثال يحتذى للشخصية الإسلامية المتكاملة، وسيحاول الباحث أن يستعرض أهم مناقبه، فمن أولى هذه الصفات: الكرم المتميز الذي ارتبط بشخصيته وانتشر به، فعندما مرض عمر بن عبد العزيز، عرض عليه مسلمة أن يقدم لأولاده من ماله الخاص ثلاثة مائة ألف دينار، حيث أن مسلمة بسبب غزوته الكثيرة، وغنامه الوفرة، كان له أموال كثيرة، فرفض عمر هذا العرض، وقال أن ولدي أحدهما رجلين، فلما صالح فالماء يتولى الصالحين، وإما فاسق فلا أحب أن أترك له ما يستعين به على معصية الله، فقال مسلمة: يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً، فقد أنت لنا قلوباً فاسية وذكرتها وكانت ناسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرأً^(٢).

وقال مسلمة يوماً للشاعر "نصيب": سلني، قال كفك بالعطية أبسط من لسانك بالمسألة، فأمر له بآلف دينار^(٣).

واستقبل مسلمة وفد الشعراء الذين وفدوه على عمر بن عبد العزيز، وكان عمر لا يعطي الشعراء شيئاً، فكان المقام بهم إلى مسلمة، الذي تولى رعايتهم

(١) المقرئي: نفح الطيب، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٢) القلعي: تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، ص ٣٠٠ .

(٣) التوحيدى: البصائر والذخائر، ج ٩ ، ص ٨٤؛ يوسف المزى: تهذيب الكمال ج ٢٧ ص ٥٦٤

؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٣٢٩ ؛ الأبشيهى: المستطرف، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

والنفقة عليهم أربعة شهور متواصلة، وهم يحاولون الدخول إلى عمر بن عبد العزيز، وكان مسلمة يستأذن لهم فلا يؤذن لهم، ثم سمح عمر للعامة بالدخول عليه، فدخل الشعراة معهم، وسلموا عليه بالخلافة، وقالوا: يا أمير المؤمنين: طال الثواء^(١)، وقلت الفائدة، وتحدثت بجفائق إيانا وفود العرب، فقال كثير وهو يضحك: نحن أبناء سبيل، فقال عمر: أولستم ضيوف أبي سعيد؟ قلت: بلـ، قال ما أحسب من كان ضيف أبي سعيد ابن سبـيل ولا منقطعاً به^(٢).

ويكفي هنا شهادة عمر بن عبد العزيز على كرم مسلمة، حيث أنكر من كان في ضيافة مسلمة أن يكون منقطعاً أو ابن سبـيل.

ومما يذكر لمسلمة من الكرم أنه قدم إليه أعرابي فقال: يا ابن الخليفة، زرتـك وأنت غرة مضر وحسـيبـها حين تـذـكرـ، تعطفـتـ عليكـ الأملاـكـ، فليسـ يـخـافـ ضـيفـكـ الـهـلاـكـ، وأـنـتـ فيـ فـرـعـ نـصـارـ، وـرـثـتـ عنـ ذـوـيـ الأـخـطـارـ، وـلـكـ يـدـ تـمـطرـ النـدىـ، وأـخـرىـ تـقـتـلـ العـدـىـ، وـقـدـ رـزـقـتـ مـنـ النـاسـ الـحـمـدـ، فـدـلـلـ عـلـيـكـ فـضـلـكـ، فـقـالـ مـسـلـمـةـ ياـ أـعـرـابـيـ إـنـكـ لـفـصـيـحـ، قـالـ أـجـلـ وـإـنـيـ لـصـرـيـحـ، قـالـ مـسـلـمـةـ: قـلـمـاـ تـجـدـ أـعـرـابـيـاـ عـاقـلاـ، وـقـالـ: وـمـاـ يـذـهـبـ عـقـلـهـ إـذـاـ كـانـ كـامـلاـ، قـالـ: قـلـةـ مـخـالـطـةـ النـاسـ، فـقـالـ: ذـلـكـ أـكـيـدـ لـهـ عـنـ النـاسـ، قـالـ مـسـلـمـةـ: وـأـنـىـ لـهـ بـذـلـكـ وـهـوـ لـاـ يـرـىـ الـقـتـالـ؟ـ قـالـ يـكـونـ غـمـرـاـ فـيـجـتـرـىـ عـلـىـ الـأـبـطـالـ، قـالـ مـسـلـمـةـ: اـحـتـكـمـ يـاـ أـعـرـابـيـ، قـالـ: عـشـرـ جـلـالـ^(٣) تـمـرـ، وـعـشـرـ أـعـزـ، وـقـطـيـعـةـ لـلـعـيـالـ وـجـمـلـاـ نـحـمـلـ عـلـيـهـ مـتـاعـاـ وـثـلـاثـينـ درـهـماـ، فـأـمـرـ لـهـ مـسـلـمـةـ بـضـعـفـ مـاـ طـلـبـ^(٤).

وـكـانـ يـحـبـ الـبـذـلـ وـالـعـطـاءـ، وـيـكـرـهـ الشـحـ وـالـبـخـلـ، وـكـانـ يـقـولـ: إـنـهـ لـاـ عـفـةـ مـعـ الشـحـ، وـلـاـ مـرـوـءـةـ مـعـ الـكـذـبـ، وـعـجـبـتـ لـمـنـ قـدـرـ كـيـفـ لـاـ يـغـفـرـ، وـلـمـنـ وـسـعـ عـلـيـهـ كـيـفـ لـاـ

(١) الثـوـاءـ، طـوـلـ المـقـامـ وـيـقـالـ ثـوـيـتـ بـالـمـكـانـ، اـبـنـ مـنـظـورـ، لـسـانـ الـعـربـ ، جـ١٤ـ، صـ١٢٥ـ.

(٢) اـبـنـ عـدـرـبـيـ: الـعـقـدـ الـفـرـيدـ، جـ١ـ، صـ٣٣ـ؛ الـأـصـفـهـانـيـ: الـأـغـانـيـ، جـ٩ـ، صـ٢٩٥ـ - ٢٩٦ـ .
؛ اـبـنـ الجـوزـيـ: الـمـنـظـمـ، جـ٧ـ ، صـ٣٨ـ.

(٣) جـلـالـ تـمـرـ، أـيـ التـمـرـ الـذـيـ يـوـضـعـ فـوـقـ بـعـضـهـ وـيـخـرـجـ مـنـ الـدـبـسـ، اـبـنـ مـنـظـورـ: لـسـانـ الـعـربـ، جـ٤ـ ، صـ٤٦ـ.

(٤) الـبـلـادـرـيـ: أـنـسـابـ الـأـشـرـافـ، جـ٨ـ ، صـ٣٥٢ـ - ٣٥٥ـ.

يجد^(١). ولا شك أن هذه الكلمات تعكس النفيّة التي جبل عليها مسلمة، حيث إن هذه الأخلاق أصلية وثابتة في نفسه، وتُعبر عن خفايا وجاذبه وخلجات نفسه.

وكان مسلمة شديد الحرص على الإنفاق في وجوه الخير، وقد وصلت إليه أموال كثيرة، فيها من الدنانير والجواري والطيب والكسوة، فقبضها مسلمة، ولم تثبت عنده إلا يسيراً، حتى نفت، وجاءه رجل يطلب حاجته، ويقضي ديناً عليه، فدفع إليه حاجته، وقال: لأجيزنك جانزة لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها، فأمر له بمائة ألف دينار^(٢).

ومما يجدر ذكره أن بني العباس عندما تولوا الخلافة احترموا كل أثر كان يدل على مسلمة، وذكروه بالخير والكرم، ويذكر أن المهدي^(٣) لما خرج يودع الرشيد^(٤) إلى الصائفة، ومر حاذى بقصر مسلمة قيل له: يا أمير المؤمنين، إن لمسلمة في أعناقنا منه، كان محمد بن علي^(٥) مرّ به فأعطاه أربعة آلاف دينار، وقال له: يا ابن عم، هذان الفان لديناك، وألفان لمعونتك، فإذا نفت فلا تحشمنا، وعندما علم الخليفة الخبر قال: أحضروا من هنا من ولد مسلمة ومواليه، فأمر لهم بعشرين ألف دينار، وأمر أن تُحرى عليهم الأرزاق^(٦). وهكذا نجد أن كرم مسلمة وحسن خلقه نفعه حياً وميتاً، فحتى بني العباس الذين أزالوا ملك بني أمية من الوجود لم يكن أمامهم إلا الاعتراف بفضله وكرمه، وعندما نزل مسلمة الحيرة؛ توافد إليه الناس، فأتاه مسلمة بن كهيل وزبيد اليامي، فأعطاهما خمسينيّة لكلِّ منهما^(٧) .. وأهدى مسلمة إلى الحسن البصري جبة وخميسة وكان الحسن يذهب على المسجد لابساً الخميسة على الجبة^(٨).

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ٨ ، ص ٣٥٤٧ - ٣٥٤٨ .

(٢) ابن عذرية: العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) المهدي: هو أحد خلفاء بني العباس الأوائل تولى الخلافة عام ثمان وخمسين ومئة للهجرة، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٤) الرشيد: هو الخليفة العباسي هارون الرشيد وأمه الخيزران وهو أحد خلفاء بني العباس اشتهر بالصلاح، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٣٧٩ .

(٥) محمد بن علي: هو بن عبدالله بن العباس وهو جد السفاح والمنصور، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٥ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ٨ ، ص ٣٥٥٢ .

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٧ ، ص ١٧٣ ؛ ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ج ١ ، ص ٢٣١ .

ثانياً: الشجاعة

ومن مناقب مسلمة كذلك وصفاته، الشجاعة وقوة البأس، والإرادة القوية، والحزم الشديد في الأمر إذا أقدم عليه، وكان يكره التردد، وقد سأله أخوه هشام قائلاً: "يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟" قال ما سلمت في ذلك من ذعر يُنْبِه على حيلة، ولم يغشني ذعر قط سلبنيرأيي، قال هشام: صدقت، هذه والله البسالة^(١).

ويوصف من شجاعته بأنه فحل بنى أمية وفارسها ولئ حروبها، وقيل إنه جلس يوماً ليقضي بين الناس بمصر، فكلمته امرأة فلم يُقبل عليها، فقالت ما رأيت أقل حياءً من هذا قط، فكشف عن ساقه، فإذا فيها أثر نسق طعنات؛ فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتي واحدة منهم، وما يعني من تأخيرها إلا الحياة، وأنت تحليني قلّته^(٢).

وهكذا كان مسلمة شجاعاً في غير تهور، ومتروياً في غير جبن، وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حروبكم الشجعان من أولي العزم، والجبناء من أولي الحزم، فإن الجبان لا يألو ما يقي مهجمك، والشجاع لا يعدو ما يشد نصرتكم، ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معركة الجبان، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج^(٣)، والحسام الوالج^(٤) أي الداخل في جوف الشيء.

وقد جمع مسلمة بين هذه الصفات من خلال قيادته للغزوات الكثيرة، وسيظهر ذلك جلياً في الفصل الثاني إن شاء الله.

ومن شدة بأسه وقوه شجاعته أنه في إحدى غزواته مع الخزر؛ أقبل عليه رجل وأخبره بمكان خاقان ملك الخزر، فنادي مسلمة عمه مروان وشاوره في الأمر، فقال مروان: أنا له، وقال مسلمة وأنا معك حتى نتخلص منه، وعلم سليمان

(١) ابن عبد ربہ: العقد الفريد، ج ١ ص ٩٥؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٤٢٣.

(٢) الأ بشهي: المستطرف، ج ١، ص ٢٥٣؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٣) الزالج، السهم الذي يصوب نحو هدفه، ابن منظور لسان العرب، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٤) ابن عبد ربہ: العقد الفريد، ج ١، ص ١١١.

بن هشام بما نوى عليه مروان و المسلمين فعارض ذلك بكل شدة خوفاً على مصلحة الجيش، حتى ألزم مسلمة بالتراجع عن عزمه، وانتدب رجلاً غيره لهذه المهمة بالغة الصعوبة^(١).

وقد تميز مسلمة بالشجاعة التي لا نظير لها، وذلك منذ خطوتها الأولى في المجال العسكري، حتى قبل وفاة والده عبد الملك، وقد حدث في عمورية^(٢) أثناء فتحها أن اختلط جيش مسلمة مع جيش الروم، واشتبه لهيب المعركة، وحمي الوطيس، وطاشت العقول؛ فترجل مسلمة عن فرسه، ونزل الناس معه، واختلط القوم، واقتتلوا قتالاً شديداً، لم يُعهد مثله^(٣).

ولم تكن هذه الشجاعة في مسلمة لوحده كقائد للجيش، بل كانت في الصف الأول من قيادته العسكرية، حيث كان لبعض قادته أثر عظيم في صفوف العدو؛ لما عهد منهم من الشجاعة وقوة البأس، منهم: **البطّال**، الذي وصفه الذهبي في العبر: بأنه أحد القادة العظام الشجعان الذين يُضرب بهم المثل وله مواقف مشهودة وكان طليعة جيش مسلمة، ونسجت حوله الروايات والخرافات التي تصل حد الأساطير^(٤).

وكان **البطّال** كثير الغزارة إلى الروم والإغارة على بلادهم، وله عندهم ذكر عظيم وخوف شديد^(٥).

ومن قصص **البطّال** الغريبة المشهورة عنه، أنه سأله بعض ولاته بني أمية عن أعجب ما كان من أمره في المغازي التي قاتل الروم فيها، فقال: "خرجت في سرية ليلاً، فدفعنا إلى قرية، فقلت لأصحابي: أرخوا لجم خيلكم، ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بشيء حتى تستمكروا من القرية ومن سكانها، ففعلوا وافتلقوا في أزفتها

(١) ابن أثيم الكوفي: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .

(٢) عمورية: هي بلد من بلاد الروم غزاها المعتصم وكانت من أعظم فتوح الإسلام، ياقوت مجمع البلدان، ج ٤ ، ص ١٥٨ .

(٣) المصدر السابق: ج ٤ ، ص ١٣٧ .

(٤) العبر، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٤٥٦ .

فدفعت في أناس من أصحابي إلى بيت يزه رسراجه، وإذا امرأة تُسكن ابنها من بكائه وهي تقول له: لتسكن أو لأدفعنك إلى البطل يذهب بك، وانتشلته من سريره وقالت: خذه يا بطّال فأخذته من يدها^(١).

وقد أدرك عبد الملك رحمة الله شجاعة هذا القائد عبدالله أبو يحيى المعروف بالبطل، وحين عقد لابنه مسلمة لغزو بلاد الروم ولـى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطل، وقال لابنه سيره على طلائعك، وامرء فليعس بالليل العسكرية، فإنه أمين ثقة، مقدم شجاع، فقدم مسلمة البطل على عشرة آلاف يكونون بين يديه ترساً من الروم^(٢).

وهذا الأنموذج أحد القادة الذين عمل بهم مسلمة وغيره الكثير ولعل مثل هذه النماذج أعطت مسلمة شجاعته إلى شجاعته وزادته قوته إلى قوته. ومن قصص الشجاعة المشهورة للبطل، إنه عندما تولى المصيصة^(٣)، أرسل سرية وانقطع عنه خبرها، فذهب بنفسه إلى حاكم عمورية متتكراً، ودخل عليه، وأظهر أنه رسول الملك، وطلب من الحرس الخروج، فلما خرجوا؛ أخرج سيفه، وطلب من حاكم عمورية أن يخبره عن السرية التي في بلاده، وإلا قتل، مما كان منه إلا أن أخبره عنها، وخرج البطل من عنده، وذهب إلى مكان السرية، ورجع هو وأصحابه إلى المصيصة^(٤).

وفي إحدى الغزوات صار لوحده في أطراف الروم، ودخل بلادهم حتى صار إلى دير لا يعرفه ووجد فيه مجموعة من النساء إلى جانب راهب،

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٤٥٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩، ص٣٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩، ص٣١.

(٣) المصيصة: هي ثغر من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم قرب طرسوس كان يرابط بها الصالحون، ياقوت مجمع البلدان، ج٥، ص١٤٥؛ الأصطخرى: المسالك والممالك، ص٤٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩، ص٣٢ - ٣٣٣.

فقام بقتل الراحل، وأسرَ النسوة، ونفله القائد واحدة منهن أصبحت أم أولاده^(١) فلا عجب أن يكون مسلمة على هذا القدر من الشجاعة والكرم ولا سيما أن قيادته كانت تتصف بذلك ومما لا شك فيه، أن هذا الوسط القيادي في عسكر مسلمة كان له أبعد الأثر، في النجاحات التي حققها مسلمة، بهذا الصف المتميز؛ من النخبة، الذين حملوا على كواهلهم تنفيذ ما يلقى إليهم من أوامر قيادتهم العسكرية العليا.

ثالثاً: حبه للصالحين

ومن مناقب مسلمة وصفاته التي تميز بها: حبه للصالحين، وقد ارتبط بعلاقات وثيقة بهم لاسيما مع عمر بن عبد العزيز، الذي جمعته مواقف مشهودة مع مسلمة، وكان دائماً يسأل عنهم ويعرف أخبارهم، ويقدم لهم الهدايا، وعندما نزل مسلمة الحيرة بأرض العراق لحرب يزيد بن المهلب سأله عن الحسن البصري سيد التابعين؛ حيث قال خالد بن صفوان: لما لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة قال: يا خالد؛ أخبرني عن حسن أهل البصرة، قلت أصلاح الله الأمير، أُخْبِرُكَ عَنْهُ بِعِلْمٍ، أَنَا جَارُهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَجَلِيْسُهُ فِي مَجْلِسِهِ، هُوَ أَشْبَهُ النَّاسَ سَرِيرَةً وَعَلَانِيَةً وَأَشْبَهُ قَوْلًا بِفَعْلٍ، إِنْ قَدِّعَ عَلَى أَمْرٍ قَامَ بِهِ، وَإِنْ قَامَ بِأَمْرٍ قَدِّعَ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَمْرَ كَانَ أَعْمَلَ النَّاسَ بِهِ، وَإِنْ نَهَىَ عَنْ شَيْءٍ كَانَ أَتَرَكَ النَّاسَ لَهُ، رَأَيْتَهُ مُسْتَغْنِيًّا عَنِ النَّاسِ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، قَالَ: حَسْبُكَ يَا خَالِدُ، كَيْفَ يَضْلُّ قَوْمٌ هَذَا فِيهِمْ؟! وَيَقْصُدُ الَّذِينَ فَتَنُوا مَعَ يَزِيدَ^(٢) وَقَدَّمَ مُسْلِمَةً إِلَى الْحَسَنِ هَدِيَّةً مِنْ أَفْرَقِ الْمَلَابِسِ فِي زَمَانِهِ، وَكَانَ الْحَسَنُ يَذْهَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ يَصْلِي وَهُوَ يَلْبِسُ هَدِيَّةَ مُسْلِمَةَ^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٤٥٦.

(٢) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢؛ الأصبغاني: حلية الأولياء، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨؛ ابن الأثير: المختار من مناقب الأخيار، ج ٢ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥ .٣٢٤.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٧ ، ص ١٧٣؛ ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ج ١ ، ص ٢٣١.

وكان مسلمة يمتدح الصالحين ويثنى عليهم، ويفخر بهم وب مجالستهم، مثل: رجاء بن حيوة وأمثاله، حيث قال: "الأمير في كندة رجاء بن حيوة، وعبادة بن نسي، وعدى بن عدي، أن الله لينزل بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء"^(١). وكان مسلمة يحب الجلوس إلى عمر بن عبد العزيز، ويستمع مواعظه، وله مكانة خاصة عنده، حيث كان يدخله إلى غرفته الخاصة بالعبادة، والتي كان يخلو فيها عمر لوحده، وكان في كثير من الأحيان يتناول معه الطعام والشراب. قال مسلمة: دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيته كان يخلو فيه، لا يدخل عليه أحد، فجاءته جارية بطبق من تمر، وكان يعجبه التمر، فرفع بكفيه تمرة ثم قال، يا مسلمة، أترى لو أن رجلاً أكل هذا ثم شرب من الماء على التمر أكان يجزيه إلى الليل؟ فقلت لا أدرى ... فرفع أكثر منه فقال: هذا، فقلت نعم يا أمير المؤمنين، كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي أن لا يذوق طعاماً، قال فعلام ندخل النار، قال مسلمة: فما وقعت مني مو عظة؛ ما وقعت هذه^(٢).

والرواية تعكس نفسية مسلمة وحبه للخير، وتأثره بالموعظة، وحبه لسماعها من الصالحين، ودخل مسلمة يوماً على عمر بن عبد العزيز وعليه ثوب من ثياب مصر، فقال: بكم أخذت هذه يا أبا سعيد؟ قال بهذا وكذا، قال: فلو نقصت من ثمنها شيئاً أكان ناقص من شرفك؟ قال: لا، قال: فلو زدت في ثمنها شيئاً أكان زائداً في شرفك؟ قال: لا، قال: فاعلم يا مسلمة أن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة، وأفضل اللين ما كان بعد الولاية^(٣).

وبمثل هذه التوجيهات بُنيَت العلاقة بين مسلمة وعمر، حيث كان عمر دائم النصح والإرشاد، يذكره بالأخرة، فتعلق به قلب مسلمة واطمأن لصلاحه، وكان

(١) الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٣٨؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٤٥؛ العسقلاني: الإصابة، ج ٥، ص ٢٦٩.

(٢) الأصبغاني: حلية الأولياء: ج ٥، ص ٢٧٧؛ عمر بن محمد (الملا): لجامع لسيرة عمر، ج، ص ٣٨٧ - ٣٨٨؛ ابن العدين: بغية الطلب، ج ١٠، ص ٤٧١٤ - ٤٧١٥.

(٣) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٣٦٥؛ ابن عبدربه: العقد الفريد، ج ٥، ص ١٨١؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ٧٢ - ٧٣.

يوجهه كلما لاحظ منه خطأ، حيث بلغ عمر بن عبد العزيز أن مسلمة كان ينفق كل يوم على مائته ألف درهم، فأرسل إليه عمر وسألة أن يتغدى عنده فأجابه مسلمة إلى ذلك، فأمر عمر طباخه بأطعمة كثيرة، وباتخاذ العدس والبصل والزيت، وهذا كان أكثر طعامه، ثم إنه أوصى طباخه فقال: إذا جاء مسلمة، وقدمت المائدة فابدأ بالعدس، ثم قدم ما بدا لك، وحضر مسلمة من غدير للطعام، فلم ينزل عمر يحثه ويسأله أخبار الروم حتى انتصف النهار، وجاء مسلمة جوعاً شديداً، فقال عمر لطباخه: قدم المائدة فقد جاء أبو سعيد جوعاً شديداً، فقدم المائدة، وابتداً بالعدس والبصل والزيت، فأكل مسلمة من العدس حتى شبع، ثم قدمت الألوان بعد ذلك فلم يأكل مسلمة منها شيئاً، فقال له عمر: كُلْ أبا سعيد، ما بالك قد رفعت يدك؟ فقال مسلمة: قد شبعت يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا سبحان الله، فأنت تشبّع من عدس لعل ثمنه علينا بدرهم واحد، وينفق على مائتك كل يوم ألف درهم، اتق الله أبا سعيد، ولا تكن من المسرفين، واجعل نفقة مائتك في بطون جائعة، فإنه أقرب لك إلى الله عز وجل، فقال مسلمة: أفعل ذلك يا أمير المؤمنين، ولا أعصي لك أمراً، وانصرف إلى منزله^(١).

وقال مسلمة لعمر بن عبد العزيز أوصي: فقال مالي مال أوصي به، قال: فأنا آتيك بمائة ألف درهم توصي فيها بما أحببت، قال: أفلأ تفعل خيراً من ذلك، تردها إلى موضعها الذي أخذت منه، قال رحمك الله يا أمير المؤمنين فقد لينت منا قلوباً قاسية، وزرعت لنا في قلوب الناس المحبة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرأ^(٢).

وأراد مسلمة أن يختبر عمر بن عبد العزيز في شأن الولاية، عندما توفي عبد الملك بن عمر، فجعل عمر يثني عليه كثيراً، فقال له مسلمة: يا أمير المؤمنين

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٣١ ؛ المرعشلي: غرر السير، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

؛ عمر بن محمد (الملاء): الجامع لسيرة عمر، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٨ ص ٣٥٥ ؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج ١ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

لو بقي كنت تعهد إليه؟، قال: لا، قال: ولمَ أنت تتنى عليه؟ قال: أخاف أن يكون زُين في عيني منه ما زُين في عين الوالد من ولده^(١).

وعندما انتهى عمر من دفن ابنه عبد الملك، رافقه مسلمة في طريق العودة، وفي عودتهم رأوا قوماً يتعلمون الرمي، فوقف عمر ينظر إليهم ويحدثهم عن الرمي، فقال له مسلمة: يا أمير المؤمنين، أتفرغ قلبك لما تفرغ له، وإنما نفست يدك من تراب ابنك الساعة، ولم تصل إلى منزلتك بعد؟ فقال له عمر: يا مسلمة إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت المصيبة، فالله عما فاتك^(٢).

ويرى الباحث أن سر العلاقة الوثيقة بين مسلمة وعمر لا ترجع إلى علاقة القرابة أو المصاهرة فحسب، بل السر الوحيد هو الصلاح الذي جمع الرجلين، والملاحظ أنه بعد عودة مسلمة من بلاد الروم؛ قويت العلاقة حتى يبدو كأنهما لم يفترقا، وعندما مرض عمر مرضه الذي توفي فيه؛ لازمه مسلمة بصورة شبه دائمة، كما يبدو من الروايات المتعددة، ويقول مسلمة: إنه لما مرض عمر، دخلت عليه أعوده، فإذا هو على فراش من ليف، وتحته وسادة من أديم مسجّى بشملة، ذابل الشفة، كاسف اللون، وعليه قميص وسخ، فقلت لأختي فاطمة وهي أمرأته: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين، فقالت نفعل، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت ألم أمركم أن تغسلوا قميصه؟ فقالت: والله ما له غيره، فسبّحت الله وبكيت وقلت: يرحمك الله، لقد خوفتنا بالله عز وجل، وأبقيت لنا ذكرًا في الصالحين^(٣).

ولما اشتد المرض بعمر؛ دخل عليه مسلمة وقال له: من توصي بأهلك؟ قال إذا نسيت الله فذكري، فعاد فقال: من توصي بأهلك؟ قال إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين^(٤)...

(١) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج ٥ ص ٢٦٧؛ ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص ١٩٧.

(٢) ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص ١٩٩.

(٣) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ٢ ، ص ٦٠٠ ؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج ٥ ، ص ٢٥٨ ؛ ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، ص ١١٥ ؛ إبراهيم الرقي الحنبلبي: أحسن المحسن، ص ٢٥٧ ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج ٥ ، ص ١٣٤ ؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(٤) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ١ ، ص ٥٨٥ ؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

ولما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر، دخل عليه مسلمة أيضاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتم عيلة لا شيء لهم، فلو أوصيت بهم إلى نظري من أهل بيتك؟ فقال أنسدوني ثم قال: أما قولك إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال فهو الله ما منعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم، فإن وصيي وولي فيهم الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين.بني أحد رجلين: إما رجل يتقي الله، فسيجعل الله له مخرجاً. وإما رجل مكبٌ على المعاشي؛ فإني لم أكن أقويه على معاشي الله تعالى، ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكراً، فنظر إليهم؛ فذرفت عيناه ثم قال: بنفسي الفتية اللذين تركتم عيلة لا شيء لهم، فإني بحمد الله قد تركتم بخير، أي بني: إن أباكم ميز بين أمرتين: بين أن تستغنو ويدخل أبوكم النار، أو تفتقر ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقر ويدخل الجنة، أحب إليه من أن تستغنو ويدخل النار، قوموا عصمكم الله تبارك وتعالى^(١) ...

من أجل هذه الدروس البليغة، وال عبر الرفيعة كان مسلمة يحب الصالحين ويرتبط بهم، لأن مقصده لم يكن إلى دنيا، فكان هذا حاله مع عمر... ولما اشتد به المرض، ودخل الاحتضار أسرع إليه مسلمة، وأستأذن، ودخل عليه، فأمره عمر أن يخفف الوقفة، ووقف عند رأسه فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيراً قد أنت لنا قلوباً كانت علينا قاسية^(٢).

ويروي مسلمة اللحظات الأخيرة له مع عمر بن عبد العزيز فيقول: كنا في اليوم الذي توفي فيه عمر، أنا وفاطمة بنت عبد الملك، فقلنا: يا أمير المؤمنين: إننا نرى أنها قد منعنك النوم، فلو تأخرنا عنك شيئاً عسى أن ت تمام، قال: ما أبالي لو فعلتُما، قال: فتحيت أنا وهي وبيننا وبينه ستار، قال: مما هي إلا وقد سمعناه يقول: حي الوجه، حي الوجه، فابتدرناه أنا وهي، فجئناه وقد أغمض ميتاً، فإذا هاتف

(١) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ١ ص ٥٨٥؛ ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص ٢٠٨-٢٠٩.؛ ابن الأثير مجد الدين: المختار من مناقب الأخيار، ج ٤، ص ١٠٧.؛ الرقي: أحسن المحسن، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) الأصبهاني: الأغاني، ج ٩، ص ٣٠٦.

يَهْتَفُ فِي الْبَيْتِ لَا نَرَاهُ يَقُولُ، تَلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةَ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عَلَوْا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقِينَ^(١).

وَلَمَّا غُسلَ عَمْرٌ، وَأُدْرِجَ فِي كُفْنِهِ، وَقَفَ عَلَيْهِ مُسْلِمٌ، فَقَالَ: "رَحْمَكَ اللَّهُ يَا
أَمِيرَ، الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أُورْثَتِ صَالِحِينَا بِكَ، اقْتَدَاءً وَهَدِيَّ، وَمَلَأْتِ قُلُوبَنَا بِمَوَاعِظِكَ،
وَنَذَرْكَ خَشِيَّةً وَتُقَىًّ، وَأَنْتَ لَنَا بِفَضْلِكَ شَرْفًا وَفَخْرًا"^(٢).

وَلَا عَجَبٌ أَنْ يَتَعَلَّقَ مُسْلِمٌ بِعُمْرٍ حَتَّى بَعْدِ مَوْتِهِ، فَيَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتَهُ بَعْدَ
مَوْتِهِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، وَهُوَ فِي رَوْضَةِ خَضْرَاءِ نَصْرَةِ فِيَّاهِ، وَأَنْهَارِ مَطْرَدَةِ،
وَعَلَيْهِ ثِيَابُ بَيْضٍ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا مُسْلِمٌ، لَمْثُلَ هَذَا فَلِيَعْمَلُ الْعَالَمُونَ^(٣) وَلَمَّا
مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ قَدِعَ مُسْلِمٌ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا أَمْنَتِ الرُّقُوقَ حَتَّى
رَأَيْتَ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ^(٤).

وَمِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ ارْتَبَطُوا بِهِمْ مُسْلِمٌ؛ وَالَّذِينَ كَانُوا رِفَاقَاهُ فِي الغُزوَاتِ، أَبُو
مُخْرَمَةَ السَّعْدِيِّ، وَهُوَ مِنَ التَّابِعِينَ الْأَخِيَّارِ، وَغَزَا مَعَ مُسْلِمٍ أَرْضَ الْرُّومِ، وُقْتَلَ
فِي غَزَّاتِهِ تَلَكَ فِي وَقْعَةِ بَرْجَانِ، وَكَانَ فِي الْجَيْشِ بَدَابِقَ^(٥).

وَمِنَ الَّذِينَ تَمَيَّزُوا بِصَلَاحِهِمْ كَذَلِكَ أَبُو مُحْجَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ شَجَاعَانِ
أَهْلِ الشَّامِ، وَفَرَسَانِهِمُ الْمَشْهُورِينَ الْمُذَكُورِينَ، غَزَا مَعَ مُسْلِمٍ الْقَسْطَنْطِينِيَّةَ، وُقْتَلَ
بِهَا، وَكَانَ بَدَابِقَ مَعَ الْجَيْشِ^(٦).

وَمِنْ خَلَالِ مَا سَبَقَ يَدْرِكُ الْبَاحِثُ أَنَّ مِنْ أَهْمَمِ مَنَاقِبِ مُسْلِمٍ وَصَفَاتِهِ: حِبِّهِ
الشَّدِيدُ لِلصَّالِحِينَ، وَتَعْلُقُهُ بِهِمْ، وَمِرْافِقَتِهِمُ، وَلَعِلَّ ذَلِكَ مِنْ أَهْمَمِ أَسْبَابِ نِجَاحِهِ
الْعَسْكُرِيَّةِ وَفَتوْحِهِ الْمُخْتَلَفَةِ.

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ٩، ص ٣٠٧؛ ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص ٢١٢
؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ٩ ، ص ٣٠٣ .

(٣) المصدر السابق: ج ٩ ، ص ٣٠٣ .

(٤) ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ج ٥ ، ص ١٨٤ .

(٥) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ١٠ ، ص ٤٦١٩ .

(٦) المصدر السابق: ج ١٠ ، ص ٤٦١١ .

رابعاً: المروءة

ومن بين الصفات والمناقب التي تميز بها مسلمة المروءة ونصرة الملهوف والانتصار لدينه، وكان صاحب شرف في الخصومة، قال رجل عند مسلمة: ما استرحتنا من حائط كنده^(١) ، حتى جاءنا هذا المزوني! فقال له مسلمة: أتقول هذا لرجل سار إليه قريعا^(٢)؟ يعني نفسه والعباس بن الوليد، إن يزيد بن المهلب حاول عظيماً ومات كريماً^(٣) وبلغ مسلمة أن رجلاً شتمه، وعلم الرجل بذلك، فانقبض عن إتيانه، وسأل مسلمة عنه فأتاه وأجاد الاعتذار إليه، فقال مسلمة: اللهم عفواً، كف عن هذا رحمك الله ولم يُرَ منه تغيراً، وشتم مسلمة كذلك قومًّ من أهل الأردن، وبلغه ذلك، فبعث إليهم وأعطاهم وكساهم وكتب إلى الوالي يأمره بالإحسان إليهم^(٤) ومن شهامة مسلمة: نصرة الملهوف، حيث كان له موقف من الكمي^(٥) بن زيد الأسيدي، الذي يعرض ببني أميه، فطلب به هشام فهرب منه عشرين سنة مطلوباً، لا يستقر به القرار من خوف هشام، وكان مسلمة له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له، ولا يرده فيها، فلما خرج مسلمة يوماً إلى الصيد أتى الناسُ يُسلِّمون عليه، وأتاه الكمي^(٥) بن زيد فيمن أتى، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد:

وَ تَأْنِ إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ
لَمَيْتُ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٌ
ذَمَةُ الْجَارِ الْمُجاوِرُ
وَ الْأُمُورُ إِلَى الْمَصَائِرِ

قِفْ بِالدِّيَارِ وُقُوفَ زَائرٍ
يَا مَسْلِمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ
عِلْقَتْ حِبَالِيْ مِنْ حِبَالِيْ
فَالآنَ صَرْتَ إِلَى أُمِيَّةٍ

(١) حائط كنده هو عبد الرحمن بن الأشعث لأنه خرج على عبد الملك ومن أجله كان يوم دير الجمام، ولم يكن حائطاً ولكنه كان من اليمن، وكان النسج الرفيع في اليمن، والمزوني هو يزيد بن المهلب، ظفر به مسلمة، ينظر: البيان والتبيين، ج ١ حاشية ، ص ٩٩ .

(٢) القریع : هو السيد، ويقال فلان قریع دهره وفلان قریع الكتبة أي رئيسها، ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٢٦٧ .

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ، ص ٩٩ ؛ البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٤٩ .

(٤) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٥٠ .

(٥) الكمي^(٥) هو بن زيد الأسيدي شاعر الهاشميين من أهل الكوفة ، كان عالماً بأدب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها منحازاً لبني هاشم ؛ الزركلي:الأعلام ، ج ٣، ص ٢٢٥ .

فقال مسلمة: "سبحان الله، من هذا الرجل الجلباب^(١) الذي أقبل من آخر الناس فبدأ بالسلام، ثم أما بعد، ثم الشعر"، قيل: هذا الكميت بن زيد، فأعجب به لفصاحته وبلاعته، وسأله عن خبره، وما كان فيه من طول غيبته، فذكر له: سخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مسلمة ذلك، وذهب به إلى هشام، وتوسط له عنده، وعفا عنه^(٢).

وذكر ابن أثيم الرواية السابقة، وأضاف أن مسلمة قد أشار على الكميت بخطة ينال بها عفو أمير المؤمنين، وأنه قد مات ولد لهشام اسمه معاوية، وكان يذهب كل يوم ليزوره عند قبره، وإن مسلمة طلب من الكميت أن يكون عند القبر قبل مجئ هشام ومن معه، وأخبره أنه سيعينه على ذلك، فأنصرف الكميت من عند مسلمة، وبكر إلى قبر معاوية بن هشام، فجلس إليه وقد هيأ أبياتاً من الشعر، وخرج هشام من القصر يريد القبر ومعه سادات منبني عمّه ، ومسلمة يسير عن يمينه، فلما نظر إلى الكميت من بعيد قال: إني أرى رجلاً قاعداً عند القبر، فقيل يا أمير المؤمنين: لعله مستجير قد استجار بالقبر، فقال هشام: قد أجرنا كل من قد استجار إلا الكميت، فقال مسلمة: يا أمير المؤمنين وما الكميت حتى يستثنى باسمه، قال هشام فإننا قد أجرناه وإن كان الكميت، وتمكن مسلمة من إجارتة والعفو عنه^(٣).

وفر كذلك ابن الضحاك والي المدينة إلى مسلمة في الشام مستجيراً به على أثر خلاف بينه وبين يزيد بن عبد الملك، وكان الضحاك قد أساء المعاملة مع فاطمة بنت الحسين، التي قدمت شکواها إلى يزيد، فقام بعقاب ابن الضحاك وأغرمه أربعين ألف دينار، ولم ينفعه إلا مسلمة، الذي خف عن العقوبة، وحل هذا الإشكال، ورده إلى المدينة^(٤).

(١) الجلباب: الرجل الضخم طويل القامة، ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٢٧٤.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ١٧ ، ص ١٣ .

(٣) الفتوح، ج ٤ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٨ ، ص ٤٧٤ ؛ ابن الجوزي: المنتظم: ج ٧ ، ص ٨٨ .

؛ الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ١٠٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٦٣.

وهكذا كان مسلمة يُمثل طوق النجاة لكل الذين يقعون في خلاف مع المؤسسة الحاكمة، فهو الملاذ الآمن لهم حتى تسوى مشاكلهم.

وقدم عمر بن هبيرة مطروداً من ولاية العراق إلى الشام، وأشارت عليه القيسيون بأن يستجير بأم حكيم بنت يحيى امرأة هشام، فقال: امرأة؟ قالوا: فاستجر بأبي شاكر سعيد بن هشام، قال: صبي، ولكنني استجير بأبي سعيد مسلمة بن عبد الملك، قالوا: أتستجر به وقد وليت ما كان يليه، ولم تُبق عليه، فقال هو كريم، ولا يُسلمني أبداً، فتوجه إليه ومعه وجوه القيسيية، فلما رأه مسلمة كره قدومه إليه، وانطلق إلى هشام فكلمه فيه، فأمتنه هشام على أن يؤدي ما طلب منه فأخذاه^(١) وهكذا نجد مسلمة يتمثل سnam الأخلاق وذلك عندما يغير رجلاً أصبح والياً على العراق بدلاً منه، ولم يؤثر ذلك على مسلمة مطلقاً، بل قام بالتوسط له عند الخليفة، وأنهى خلافاً مع مؤسسة الدولة، كان حتماً سيؤدي بعمر بن هبيرة إلى غيابه السجن، وتميز مسلمة بشهامته الكبيرة، وكان لا يقبل الوشاية، مطلقاً ولا يثق في الواشي، فمثلاً جاءه رجل ليشي برجل آخر عنده، فلم يقبل منه، فلما رأى الواشي أن مسلمة لا يقبل منه، رجع وصالح صاحبه الذي اختلف معه^(٢)، ومن بين الذين نزلوا الشام الشاعر أبو نحيلة، الذي كان على خلاف مع أبيه، وبقي في الشام إلى أن توفي والده، وفي أثناء إقامته بالشام اتصل بمسلمة فاصطنه وأحسن إليه، وقربه إلى الخلفاء واحداً بعد الآخر، فأعطوه وأغنوه، لكنه كان قليل الوفاء لهم، إذ انقطع إلى بني هاشم، ولقب نفسه بشاعر بني العباس، وعاد فهجا ببني أمية^(٣).

وعندما تولى خالد بن عبد الله القسري أميراً على العراق؛ مدحه الشاعر الشامي الطِّرِمَاح^(٤) فأمر له خالد بثلاثين ألف درهماً وتناقل هذا الخبر بين الشعراء

(١) البلاذري: أنساب، ج ٩ ، ص ٣٦٥٤.

(٢) المصدر السابق: ج ٩ ، ص ٣٦٥٤.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٠ ، ص ٣٤٠.

(٤) الطِّرِمَاح هو بن حكيم بن الحكم من طيء: شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة ، وكان معاصرًا للكميت ؛ الزركلي: الأعلام ، ج ٣، ص ٢٢٥.

وأصبحوا يقصدون القسري ومنهم الكميٰت. لكن خالداً قام بحبسه لقصيدة كان قد هجا فيها الكميٰت قوم خالد، واحتال للخروج من السجن، حيث لم يلبِ ثياب زوجته التي كانت تأتيه بالطعام، وخرج كأنه هي، ولحق مبشرة بالشام، واستجار بمسلمة الذي قبل جواره، ومنعه من خالد القسري والي العراق^(١).

ويبدو للباحث من خلال الروايات السابقة أن مسلمة كان الحضن الدافئ لكل إنسان أصابته حاجة أو نزلت به مصيبة الخلاف مع مؤسسة الدولة، وهو في ذلك يتعامل بمروءة ووفاء، وهمَّهُ الوحيد لم الشمل وإنهاء الخلاف، حتى مع الذين أساؤوا التعامل مع الدولة، فنجد أنه مرّة يتوسط للكميٰت، وأخرى للضحاك، وثالثة لعمر بن هبيرة، ورابعة لبعض الشعراء الذين تجاوزوا في منطقهم بالإساءة إلى الدولة وهيبيتها. وما لا شك فيه أن مسلمة تميز بهذا الخلق على إخوته من أبناء عبد الملك، حتى من الذين لبسوا تاج الخلافة، ومن الصفات التي امتاز بها مسلمـة: الذكاء وسرعة البديهة، وحسن الجواب مع إصابة المعنى، وإيجاز اللفظ وبلغـعـ الحجة، يقول مسلمـة في هذا الصدد: "ما من شيء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله أحـبـ إلـيـ من جواب حاضر، فإنـ الجوابـ إذاـ تعـقـبـ لمـ يـكـنـ لهـ وـقـعـ"^(٢).

وكان مسلمـة من أحـضرـ الناسـ جـوابـاـ وأـكـثـرـهـ جـمـالـاـ، مـرـ يـوـمـاـ عـلـىـ رـجـلـ يـعـمـلـ بـالـقـرـبـ مـنـ مـزـبـلـةـ، فـقـالـ الرـجـلـ لوـ رـآـكـ أـبـوـكـ آـدـمـ لـقـرـتـ عـيـنـهـ بـكـ، فـقـالـ لـهـ مـسـلـمـةـ: لوـ رـآـكـ أـبـوـكـ آـدـمـ لـأـذـهـبـ سـخـنـةـ عـيـنـهـ بـكـ، فـرـةـ عـيـنـهـ بـيـ^(٣).

ودخل مسلمـة إلـىـ أـخـيهـ الـولـيدـ يـوـمـاـ يـسـتـرـضـيـهـ فـيـ شـيـءـ بـلـغـهـ عـنـهـ فـرـضـيـ الـولـيدـ، وـطـابـتـ نـفـسـهـ، وـخـرـجـ بـعـدـ الـمـغـرـبـ، فـقـالـ خـذـواـ الشـمـعـ بـيـنـ يـدـيـ أـبـيـ سـعـيدـ، فـقـالـ مـسـلـمـةـ: ياـ أـمـيـ الـمـؤـمـنـينـ، لـاـ سـرـيـتـ الـلـيـلـةـ إـلـاـ فـيـ ضـيـاءـ رـضـاكـ^(٤).

ومن حسن جوابـهـ - أـيـضاـ - أنهـ لـمـ قـتـلـ يـزـيدـ بـنـ الـمـهـلـبـ قـامـ ثـابـتـ بـنـ قـطـنةـ يـرـثـيـهـ، فـقـالـ:

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج ١ ، ص ١٦٣.

(٣) ابن عذرية: العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ١٢٧.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٨ ، ص ٣٠؛ يوسف المزي: تهذيب الكمال، ج ٢٧ ، ص ٥٦٤.

يَا لَيْتَ إِخْرَاتَ الَّذِينَ تَغْيَّبُوا
كَانُوا لِيَوْمِكَ شُهُودًا

قال مسلمة: "أنا والله وددت حتى أسيهم بكأسه"^(١).

جلس مسلمة إلى عمر بن عبد العزيز يوماً يحده، فدخل عليهما عبد الملك بن عمر فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة فأخليني .. فقال له: حاجة دون عمك! قال: نعم، فقام مسلمة وخرج^(٢).

ولا شك أن هذا السلوك يعكس علواً أخلاقه بالرغم من أن عبد الملك كان شاباً صغيراً، إلا أن مسلمة خرج وترك لهاما الحديث سوياً، ولم يؤثر هذا في نفسه شيئاً.

وكان لا يرد أصحاب الحاجة، فإذا كثروا عليه، وخلف أن يضرج، قال لآذنه: ائذن لجلسائي، فيأذن لهم، ويتحذون محسن الناس ومرءاتهم، فيطرب لها، ويصيبه ما يصيب صاحب الشراب، فيقول لصاحبه: ائذن لأصحاب الحاجة، فلا يبقى أحد إلا قضيت حاجته^(٣).

وكان مسلمة رحيم القلب، سريع الدمع وفيأ، ذكر المدائني أنه كان لمسلمة صاحب عزيز عليه، أليف، يُقال له شراحيل، فمات فجزع عليه مسلمة جزاً شديداً، وخرج وصلى عليه، فأتاه عبدالله بن عبد الأعلى الشيباني فعزاه فبكى، وقال:

و هُونَ وَجِدِي عَنْ شَرَاحِيلَ أَنَّنِيْ إِذَا شِئْتُ لَاقِيْتُ امْرًا مِاتَ صِاحِيْه^(٤)
وذكرت أبيات من الشعر عند مسلمة، تتحدث عن الموت، فبكى بكاءً شديداً حتى اخضلت لحيته^(٥).

(١) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٧ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) عمر بن محمد (الملاع): الجامع لسيرة عمر، ص ٢٢٧ .

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ، ص ٤١ .

(٤) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥٤٧ .

(٥) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٨ ، ص ١٢٥ .

وكان مسلمة شديد التواضع، محبًا للعدل، وقد اختلف يوماً مع أهل دير إسحاق^(١) على أمرٍ بينهم، وكانوا عند عمر بن عبد العزيز في طلب بمنطقة الناعورة، فقال عمر لمسلمه: لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي، ولكن: وكل بخصوصتك من شئت، وإلا فجاشي^(٢) القوم بين يدي. فوكل مولى له بخصوصته وحكم عمر فقضى لأهل دير إسحاق^(٣).

وكان مسلمة محبًا للفناءة، ويمتدح أصحابها، وذكر في مجلسه رجل وصف بأنه قنوع؛ فأعجب به مسلمة، وقال: "إن القناعة أحد اليسارين أو أحد المالين"^(٤).

ولعل من أهم ما يميز مسلمة من صفات، أن يذكر اسمه في كتب الحديث، حيث ذكره ابن حبان في الثقات بقوله: "مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم يروي عن الحجازيين، وعمر بن عبد العزيز، روى عنه مولاه وأهل الشام"^(٥). وكذلك ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه تقريب التهذيب قائلاً: "مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الأمير، مقبول من الطبقة السادسة"^(٦). وفي الجرح والتعديل ذكر من بين الرواية بالقول "مسلمة بن عبد الملك، روى عن الحجازيين وعن عمر بن عبد العزيز"^(٧) وذكره العسقلاني بقوله: "كان مسلمة بن عبد الملك ثقة وكان يأخذ عنه الحديث وتتلقى منه الرواية"^(٨).

وهكذا نجد أن مسلمة تميز بصفات ومناقب كثيرة، والتي حملت أهل العلم على احترامه، والناس على تقديره وبهذا تسنم إلى مقام رفيع.

(١) دير إسحاق: يقع بين حمص وسلمية وهو في موضع حسن يستخدم للنزهة، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩٨.

(٢) جثا: أي جلس على ركبتيه، ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ١٣٧.

(٣) ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص ٥٩؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ٦، ص ٢٨٦٣

(٤) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥١.

(٥) ابن حبان: الثقات، ج ٧، ص ٤٩٠.

(٦) تقريب التهذيب، ج ٢، ص ٥٣١.

(٧) الرازمي: الجرح والتعديل، ج ٨، ص ٢٦٦.

(٨) الإصابة، ج ٢، ص ٣٣٠.

المبحث الثالث

أملاك مسلمة و موقفه
من مؤسسة الخلافة

أَمْلَاكِهِ:

بعد الحديث عن مسلمة وصفاته، يجر بالباحث أن يستعرض أملاكه، ومكان إقامته.

روي ابن العديم أن مسلمة بن عبد الملك كان قد نزل بالناعورة، من حلب، وبني بها قسراً بالحجر الأسود وذكر آثاره باقية، وقد أدرك منها برجاً، وكان هذا البرج قائماً في زمانه، وقد أخذ الناس منه حجارة كثيرة، وبقي أولاد مسلمة في هذا المكان يقيمون، وأطلق عليهم المسالمة، إلى أن جاءت دولة بنى العباس، ولما اجتاز الرشيد بهم برهم ووصلهم مجازاة لأبيهم، لأنه كان يُحسن إلىبني هاشم في أيام ولاية إخوته^(١).

وحدد النعيمي دار مسلمة وذكر أنها كانت شرقى مدرسة المجاهدية، جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح، بحلب وكان به بابها، وتعرف هذه المحلة قديماً بحارة القباب، فيها تقع دار مسلمة بن عبد الملك^(٢)، وكان له غير هذا البيت إيوان خاص به يستخدمه للضيافة، ويستقبل فيه وفود الناس^(٣).

وعندما تولى مسلمة إمارة حلب لأخيه الوليد بن عبد الملك، أنشأ له فيها قسراً خاصاً بدار الإمارة في منطقة الناعورة، في (٩٠ - ٧٠٨م)، وكان مقيناً فيه أثناء إمارته لحلب، ثم خرب هذا القصر، وبقيت منه بعض الأبراج، وقد نقلت حجارته فيما بعد، وبني بها باب فسرين^(٤).

وقد أجرى مسلمة ماء العيون في قنوات خاصة إلى قصره، وذلك من العيون القريبة من قصره^(٥).

وتملك مسلمة في حلب قرى ومزارع اتخذها أيام إقامته فيها، منها منطقة الحانوت، التي مات فيها وسميت المنطقة فيما بعد: "الحانوت"^(٦).

والجدير باللحظة أن مسلمة كان يحب الزراعة ويشجع عليها، وهي تمثل ركن الاقتصاد الأساسي للدولة، وعليها بنى نظام الخراج في الإسلام.

(١) بغية الطلب، ج ١ ، ص ٥٣٠-٥٣١.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٤) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج ١ ، ص ٩١ .

(٥) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٦) المصدر السابق: ج ١ ، ص ٥٣١ .

وقد عمل مسلمة في إحدى غزواته -عندما كان يعسكر في منطقة بالس^(١)- على شق نهر أصبح يعرف بنهر مسلمة، وأصبحت فيما بعد بالس وقرابها لورثة مسلمة، وزاد عددهم حتى وصلت دورهم إلى سبعين بيتاً، وأصبح الحي يعرف بحي المسالمة، وبقيت الأراضي بأيديهم إلى أن جاءت الدولة العباسية^(٢).

ومن أملاكه أيضاً: أراضي عين السلور^(٣) وبغراس^(٤) في أنطاكية، فقام مسلمة وأوقفها في سبيل البر، وكذلك البحيرة القريبة من عين السلور أصبحت وقفاً، وكانت الأرض التي تسمى بالإسكندرية في المكان نفسه تقريباً، ملكاً لمسلمة أيضاً، والتي نقلت فيما بعد لرجاء مولى المهدي^(٥).

ولم يكن مسلمة قائداً عسكرياً فحسب، وإنما كان مخططاً ومنتجاً ومشجعاً على الإنتاج، ونجد في أثناء سيره للغزو يشق قنوات المياه، ويوزع الأرض على الناس، ويوفر لهم فرص العمل، حيث قام بإقطاع قوم من ربيعة قطاع كثيرة، قضت فيما بعد، وأصبحت ملكاً للمؤمنون^(٦).

والملحوظ أن مسلمة كانت له أملاك كثيرة وموزعة في مناطق مختلفة منها: قرية باجدا، وهي قرية كبيرة بين رأس عين والرقة، وعليها سور وكان مسلمة قد أقطع موضعها رجلاً من أصحابه يقال له أسيد السلمي، فبنوها سورها، وفيها بساتين تسقيها عين تتبع من وسطها يشرب منها الناس، وما فضل عن ذلك يسقي زرعها، وهي بالقرب مما يُعرف بحصن مسلمة^(٧).

(١) بالس: بلدة من الشام تقع بين حلب والرقة، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٣) السلور: منطقة بالقرب من مرعشى فيها بحيرة بكثرة فيها السمك، ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٥٣

(٤) بغراس: منطقة قريبة من جبل اللكام تبعد عن أنطاكية أربعة أميال على يمين القاصد من حلب إلى أنطاكية ، ياقوت ، معجم البلدان، ج ١ ، ص ٤٦٧ .

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ، ص ١٥٣ ؛ ابن العديم: بغية الطلب ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٦) المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١ ، ص ٣١٣ .

وكان لمسلمة مزارع خاصة أقام فيها القنوات، وتسمى بالمصانع، وعندما جاء أهل مكة في وفد إلى الشام؛ كان معهم خالد بن صفوان، وخرج الوفد وشاهد هذه المصانع، وقال لهم مسلمة: يا أهل مكة، هل فيكم مثل هذه المصانع^(١)؟

ويبدو للباحث من خلال النصوص أن مسلمة كان شديد الاهتمام بالناحية الزراعية، ويقدم أموالاً كثيرة من أجل إصلاح أراضي زراعية يستفيد منها الناس، ومما يدل على ذلك ما ذكره البلاذري أنها ابنتقت أيام الحجاج بثوق في النهر، فكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يعلمه أنه قدر لسدتها ثلاثة آلاف ألف درهم، فاستكثرها الوليد، فقال له مسلمة: أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأراضي المنخفضة التي يبقى فيها الماء، فأجابه الوليد إلى ذلك، وقام مسلمة بإصلاح هذه البثوق من ماله الخاص، فحصلت له أراضٍ واسعة متصلة، وحفر الياس، وعمل مزارع، وعمّر تلك الأرضي، وألأ الناس إليها في ضياعٍ كثيرة، كانوا يعتاشون منها، إلى أن نزعت من أيديهم أيام العباسين، وأعطيت لناس آخرين^(٢).

ولقد كانت معظم أملاك مسلمة تتقسم بين منطقتين هما: بالس والناعورة، وعند قدوم العباسين احتاج أبناء ونساء مسلمة على القائد العباسي، الذي حاول إخراجهم من بالس^(٣).

وكانت لمسلمة بالناعورة أملاك وعقارات في منطقة دير إسحاق، وخالفت مسلمة معهم على بعض هذه الأماكن، وتحاكم إلى عمر بن عبد العزيز، الذي حكم على مسلمة بالناعورة^(٤).

وكان لآل مسلمة مجموعة من العبيد والخدم، من بينهم: الوليد بن مسلم الذي كان ثقة كثير الحديث والعلم^(٥)، و"زفر"، الذي كان مقرّباً منه، وهو أخو فاطمة بنت عبد الملك من الرضاعة^(٦).

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان: ج ١ ، ص ٤٣٨ .

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٥ ، ص ٧٩ .

(٤) ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص ٥٩؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ٦، ص ٢٨٦٣ .

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٧ ، ص ١٧٣ .

(٦) ابن العديم: بغية الطلب، ج ٨ ، ص ٣٨٠٦ .

وأبو يسir، الذي روى عن مسلمة وكان معه في منزله بالناعورة، وكان سعيد بن مسلمـة يحترم أبا يسـير وينقل عنه، حيث تحدث بروايات كثيرة عن عمر بن عبد العزيـز، وهو ثقة يؤخذ عنه، ويـعتدـ برأيـه^(١)، ونقل عن عمر وروى عنه^(٢).

وكانت لمسلمـة فرس يـعـتـزـ بها اسمـها "الـظـلـ" ، وهي تعـنيـ الروـضـةـ الـكـثـيرـةـ الأـغـصـانـ^(٣).

وليس من الغـريبـ أن تكونـ أـمـلاـكـ مـسـلمـةـ كـثـيرـةـ وـمـتـوـعـةـ، فـهـوـ يـجـاهـدـ وـيـفـتـحـ الـبـلـادـ، وـيـغـنـمـ الـأـمـوـالـ الـكـثـيرـةـ، وـلـعـلـ مـعـظـمـ هـذـهـ الـأـمـوـالـ مـنـ سـهـمـهـ فـيـ الـغـنـيمـةـ، وـكـانـ يـنـمـيـهاـ وـيـنـفـقـهاـ فـيـ سـبـيلـ الـبـرـ وـالـخـيـرـ، مـثـلـ أـرـضـ بـغـارـاسـ، وـعـيـنـ السـلـورـ، وـغـيـرـهـاـ.

(١) ابن العديـمـ: بغـيةـ الـطـلـبـ، جـ ١٠ـ ، صـ ٤٦٥٦ـ .

(٢) عبد الرحمن أبو الفرجـ: صـفـوةـ الصـفـوةـ، جـ ٢ـ ، صـ ١٢١ـ .

(٣) ابن منظورـ: لـسانـ الـعـربـ، جـ ١١ـ ، صـ ٤٢٠ـ .

موقفه من مؤسسة الخلافة:

تميز موقف مسلمة من الخلافة، بالولاء المطلق، وكان المعيار عنده طاعة الله ورسوله وطاعةولي الأمر ونقل عبد الله بن المبارك عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: قال مسلمة بن عبد الملك "أليس قد أمرتم بطاعتكم؟ يعني "أطاعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم" (١) .. قال: قلت إن الله قد انتزعه منكم إذا خالفتم الحق، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنْزَعُّمْ فِي شَيْءٍ فَرْدُوْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال: فأين الله؟ قلت: الكتاب، قال: فأين الرسول؟ قلت السنة (٢).

ومن خلال هذا الفهم العميق، والطاعة المبصرة، تعامل مسلمة مع الخلافة منفذًا أوامرها، ومتبرصاً بتصاححها، ومسترشداً بتوجيهاتها؛ عن إيمان لا يتسرّب إليه الشك، وثقة يملؤها اليقين، وقد كان هذا ديدنه من البداية وحتى النهاية.

لقد تولى مسلمة ولاية مكة في عهد والده عبد الملك، وبينما هو على المنبر قام إليه خالد وصعد المنبر، فلما ارتقى في الدرجة الثالثة تحت مسلمة، أخرج كتاباً مختوماً وفضاه، ثم قرأه على الناس، فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، إلى أهل مكة، أما بعد: فإني وليت عليكم خالد بن عبد الله القسري، فاسمعوا له وأطاعوا، ولا يجعلن أمرؤ على نفسه سبيلاً، فإنما هو القتل لا غيره، وقد برئت الذمة منه، وعلى الفور التزم مسلمة السمع والطاعة، ودعا براحة، ولحق بالشام" (٣).

وعندما تمكن مسلمة من القضاء على يزيد بن المهلب، وتولى إماراة العراق، ولم يمضي وقت قصير على ولادته جاءه أمر من أخيه يزيد بالتوجه إلى الشام فوراً، فاقترب عليه عبد العزيز بن النعمان الباهلي بالإقامة ومخالفة، الأمر وقال له: إنك لذو عهد قريب بالولاية، فرفض مسلمة، فقال عبد العزيز: إن لم تقم

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨، ص ٤٢.

(٣) ابن قتيبة: الأمامية والسياسة "منسوب" ج ٢، ص ٤١؛ الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج ٧، ص ١٩٥

فأول من يلتقاك عامل على عملك، فلقيه ابن هبيرة مقبلًا إلى العراق، فأعظم مسلمة، وترجل له، فقال له: إلى أين يا ابن هبيرة؟ قال بعثني أمير المؤمنين لاصطفاء أموال بنى المهلب، فودعه مسلمة وقال: في حفظ الله^(١).

وأصل مسلمة مسيره إلى الشام مؤثراً الطاعة، وتولى بالفعل ابن هبيرة ولادة العراق مكانه، ولو كان مسلمة يطمع في دنيا لأخذ العراق واستقل بها، ولم يستطع أحد إجباره على تركها، فهو حديث عهد بالانتصار على يزيد بن المهلب، ومعظم جيوش الشام تحت إمرته.

وكذلك عندما طلب عمر بن عبد العزيز من مسلمة العودة بالجيش، ومواصلة الرحيل إلى الشام، والتوقف السريع عن مواصلة الفتح في بلاد الروم، حيث كان مسلمة يقيم بالنفورية^(٢) من بلاد الروم، فلم يشعر إلا وكتاب عمر بن عبد العزيز قد ورد إليه وفيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة بن عبد الملك أما بعد: فأعظم الله لك الأجر في أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وبارك له فيما صار إليه، فإن أهل الشام قد بايعوني طائعين غير مكرهين على أن أعدل في الرعية، وأقسم الفيء بالسوية، وأنا أسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاسمع وأطع تُوفّق وترشد، وعجل القدوم علىَّ، وإياك والخلاف والشقاق فتفسد ما أصلحت، وتنقض ما أبرمت، وادخل في الطاعة، وكن مع الجماعة، واقدم إلىَّ بجميع من معك من المسلمين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^(٣)".

فلما ورد كتاب عمر إلى مسلمة دعا بوجوه أصحابه، ثم استشارهم في المسير إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا إليها الأمير: نشير عليك بأن لا تخالف، وأن تكون مع الجماعة، فإنك بحمد الله من يحتاج إليه، ويُرحب به فيما عنده، لما قد أعطاك الله من العلم والحلم، والشدة والشجاعة، والنجد والشرف في أهل بيتك، ونكاياتك في العدو، ولا تفسد هذه الخصال بالخلاف والشقاق، فيكون آخر أمرك

(١) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٥٧.

(٢) النفورية: لم أجدها في مصادرنا الإسلامية تعرِيفاً.

(٣) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٩.

إلى الدمار والتبار، فقال مسلمة: لعمري لقد أحسنتم المشورة، هذا الرجل هو أهل لما هو به، لدينا وورعه وزهده وعبادته ونسكه وشرفه في قومه، وأنا سائر إليه إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وعندما وصل إلى الشام راجعاً من بلاد الروم ذهب بكمال جيشه إلى عمر، الذي خاطبه قائلاً: يا أبا سعيد، إنك ضربت الناس برأً وبحراً وسهلاً وجبلأً فقتلتهم، وبلغت بهم موضعًا لم تؤمر بقصده، فخاطرت وغررت وخالفت وأردت أن يقال غزا مسلمة أرض كذا، وفتح وأغار وسبى، وفعل وصنع وطلبت الرياء والسمعة، فإن فعلت ما فعلت الله -عز ذكره- فطوباك، وإن تكن الأخرى فقد صار عملك هباءً منثوراً، غفر الله لنا ولك أبا سعيد، وتجاوز عنا وعنك برحمته، فترشح مسلمة عرقاً، ولم يقدر أن يجد جواباً، وانصرف إلى رحله، ثم دعا عمر بسراقبة بن عبد الرحمن التميمي وعقد له عقداً، وولاه ما كان مسلمة يتولاه من أمور الثغور، وأمره أن لا يتجاوز طرسوس^(٢) إلى غيرها، وضم إليه معظم الجيوش الذين مع مسلمة^(٣).

وهكذا يُظهر مسلمة عظيم الولاء والطاعة لمؤسسة الخلافة، ونجده يتزم الأمر ومعظم جيوش الدولة تحت إمرته، ويقبل عزله من سدة القيادة، وتوليته آخر مكانه دون أدنى اعتراض، ولو بكلمة يُظهر فيها عدم رضاه بما يفعله عمر، فهو بذلك نظير خالد بن الوليد، عندما عزله عمر بن الخطاب وولي مكانه أبا عبيدة، مما من عجب أن يكون مسلمة كذلك، وهو يقتدي بمن سبقة، ويقتفي أثراهم، ويensus على سيرتهم بالنواخذ.

وشعوراً بالمسؤولية وحرصاً على تماسك صف المسلمين ووحدتهم وخلافتهم كان مسلمة يكتم الأخبار التي يمكن أن تؤثر على معنويات الجنود وصمودهم فعندما ظهر خطر يزيد بن المهلب، واستدعي الخليفة مسلمة للتصدي

(١) ابن أعثم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٢٩.

(٢) طرسوس: موضع في بلاد الروم بين إنطاكية وحلب وهي من ثغور الشام ياقوت معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٨٠.

؛ الإصطخري: المسالك والممالك ، ج ١ ص ٤٩.

(٣) المرعشي: غرر السير، ص ١٥٧.

له، أمر مسلمة مناديه فنادى في الناس فجمعهم وخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس: أعلمكم أني في غمرات وغموم منذ بضع عشرة سنة، ولم أخبركم بشيء من ذلك مخافة أن تفشووا عن قتال عدوكم، ولعله قد بلغكم بعض ذلك، أعلمكم أني لما عبرت هذه الجزيرة وأمرتكم ببناء هذه المدينة، ورد على الخبر بموت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فكتمتم ذلك مخافة العدو، ثم ولى الناس أخي الوليد، وقام بالأمر بعده أخي سليمان منذ ثلاثة وعشرين شهراً، وهذا كتابه يأمرني بالقدوم عليه لأمر قد دهمه من بلاد خراسان من قبل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وأنا راحل إلى ما قبله إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله، فأحببت إعلامكم بذلك^(١). فبكى الناس، ثم قالوا: هلم أيها الأمير حتى نبaiduك، فأنت أحق بهذا الأمر، فقال مسلمة: عافاكم الله، فإني رجل قد بلغ الناس عنِّي ما قد فعلت بأرض العدو طول هذه، ولا أحب أن أشق العصا، وأخرج على رجل قد بايعه الناس طائعين غير مكرهين، وأنا قد بايعت أخي سليمان فبايوعه، رحمكم الله، فبایع الناس سليمان^(٢).

وكان مسلمة بالغ الحزم على من يخرج على الخلافة، وكانت مصلحة الدولة العليا عنده أهم المصالح، فقد أوقف حياته في سبيلها، والحفاظ عليها، باذلاً الغالي والنفيس من أجل كرامتها، ويدرك سلمة بن محارب، قال: أخبرني أبي قال: كنت مع مسلمة لما قُتل يزيد وأتى بالأسرى، فجعل يغفو عنهم، فناداه مولاه من آخر الناس، أصلاح الله الأمير، أنا مولاك، قال: مولاي لا يخرج علىَّ مع ابن المهلب، اضربوا عنقه فقتل^(٣).

ومن جانب آخر، كان مسلمة يُصحح مسار الخلافة، وينصح للخلافاء بما يراه لصالح الخلافة وذلك عندما وجه يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب، وعقد لمسلمة بن عبد الملك على الجيش، ولل Abbas بن الوليد على أهل دمشق، قال له العباس: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف، وقد

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق: ج ٤ ، ص ٢٢٦.

(٣) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٩ ، ص ٢٥٨.

ووجهتا محاربين، والأحداث تحدث، ولا آمن أن يُرجف أهل العراق ويقولوا مات أمير المؤمنين، ولم يعهد، فيفت ذلك في أعضاد أهل الشام، فلو عهدت عهداً لعبد العزيز بن الوليد قال: غداً، وبلغ ذلك مسلمة فأتى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين، أيمماً أحب إليك، ولد عبد الملك أم ولد الوليد؟ فقال بل ولد عبد الملك، قال: فأخوك أحق بالخلافة أم ابن أخيك؟ قال إذا لم تكن في ولدي، فأخي أحق بها من ابن أخي، قال: فابنك لم يبلغ، فبائع لهشام، ثم لابنك بعده، قال: غداً أبائع له، ولما أصبح فعل ذلك، وبائع لهشام، وأخذ العهد عليه ألا يخلع الوليد بعده، ولا يغير عهده، ولا يحتال عليه^(١).

وهكذا يُخرج مسلمة الخلافة من أزمة كادت أن تعصف بها، ولربما أن تودي بها بشكل نهائي، فكم كانت الخلافة تحتاج إلى عزمه في قيادة الجيوش، وإلى حكمته في توجيه دفة الشراع نحو بر الأمان، شعاره الولاء والنصح والوفاء ويعلق المسعودي على دور مسلمة في توجيهه مسار الخلافة والنصح لها، وذلك عندما تعلق يزيد بن عبد الملك بإحدى الجواري، فنصحه مسلمة ونهاه عن الظلم والجور، وقال له: إنما مات عمر أمس، وقد كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تظهر للناس العدل، وترفض هذا اللهو، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك^(٢).

ويذكر الطبرى أن يزيد مكت بعد موت الجارية "حبابة" سبعة أيام لا يخرج إلى الناس لأنه كان متاثراً عليها بشكل كبير، حيث أن مسلمة نصحه بعدم الخروج خشية أن يظهر عليه ما يسفهه عند الناس، وبالتالي يحط من قدر الخلافة^(٣).

وشك الدكتور حسين عطوان في المبالغة بقصة يزيد مع حبابة، ويرى أن "ال الخيال واضح في قصة عشق يزيد لحبابة، فقد حاكى صانعها قصص الحب العذري، وصاغها على مثاله"^(٤).

ويبدو أن الأمور كانت في قصر الخلافة أكثر انضباطاً، وكان مسلمة شديد الحرص على هيئتها، حيث إنه زار هشام في قصره، وشاهد شاباً شديداً الوضاءة

(١) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥٥٨ ؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٥ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ٧ ، ص ٦ - ٧ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٤٧ .

(٢) مروج الذهب، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٩ ، ص ٤٣ . ؛ ابن العماد الحنبلبي: شذرات الذهب، ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٣) تاريخ، ج ٤ ص ١١١ ؛ الأصفهاني: ج ١٥ ، ص ١٤١ .

(٤) الوليد بن يزيد عرض ونقد، ص ٣٥ .

تأخذه العين، فخاف الفتنة على الجواري، وأمر بإخراج هذا الشاب إلى الرصافة، ثم لحق بالثغر مرابطًا^(١).

وعلى أية حال، فقد استطاع مسلمة توجيه النصح لل الخليفة، واستجاب يزيد، وأقلع عما كان عليه، واعتدل وعاد إلى رشده^(٢).

ويرى عطوان أن المؤرخين المتأخرین يُجمعون على أن يزيد استبان الرشد بعد أن لامه أخوه مسلمة وزجره كتاب، وأقلع عن الله، وجفا حبابة، وندم على ما فرط منه^(٣).

وأهم ما يميز علاقة مسلمة بالخلافة ولاؤه الشديد لها، والحرص على وحدة الصف، حيث أشار عليه بعض المسلمين أن ينصب نفسه للخلافة فيباعوه، فامتنع من شق العصا، ومخالفة الأخوة، وإضرام نار الفتنة^(٤).

وآخر مسلمة جهاده وتضحياته على أي منصب من هذه الدنيا، حتى لو كان منصب الخلافة، لأنّه يعلم أن ما يقوم به من جهاد في سبيل الله أبقى عند الله من منصب الخلافة وروى المدائني أنه قيل لمسلمة ما يمنعك من العمل: لو أردتَه لتوليتْ أَجْسَمَه؟ فقال: يمنعني منه ذل الطلب، ومرارة العزل، وهول الخطب، وقرع حلق البريد^(٥).

وبالرغم من أن التقليد الأموي كان لا يعطي الخلافة لمن كان ابن أمة، إلا أن مسلمة كان عازفًا عنها، ولا يفكر فيها البتة، ويُعلل التتوخي أن عدم وصول مسلمة للخلافة كونه ابن أمة، الأمر الذي حال بينه وبين الخلافة^(٦).

(١) أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والموانسة، ج ١ ، ص ٢٠١.

(٢) القالى: ذيل الأمالى، ص ٢٧.

(٣) الوليد بن يزيد، عرض ونقد، ص ٣٤.

(٤) المرعشى: غرر السير، ص ١٥٣.

(٥) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥٤٩.

(٦) الفرج بعد الشدة، ج ١ ، ص ٢٤٥.

ويؤكد ابن عبد ربه هذا الأمر، ويرى أنهم كانوا يخرجون أبناء الإمام من ولادة العهد؛ لأن العرب لا تطيعهم، ولا تخضع لهم، وتستخف بهم، وتتمرد عليهم^(١).

ويعتقد عطوان أن العرب كانت تمنع أبناء الإمام من الخلافة أو من ولادة العهد بسبب نزعتهم العربية وتأثرهم بـتقاليد السيادة القبلية التي ترفض تسويده أبناء الإمام^(٢).

(١) ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ج ٤ ، ص ١٣٠ .

(٢) عطوان: نظام ولادة العهد ووراثة الخلافة في العصر الأموي، ص ٥٤ .

المبحث الرابع

عصر مسلمة بن عبد الملك
ورأي بعض العلماء فيه ووفاته

أولاً: عصر مسلمة بن عبد الملك.

تميز عصره بالفتحات على مختلف الجبهات للخلافة، حيث أغزى عبد الملك في البداية ابنه مسلمة، ثم أغزى الوليد ابنه العباس مراراً، وأوسع الروم بعزوّاته ذلة وصغاراً، ورابط سليمان بداعق، وحلف أن لا يعود منها، حتى يفتح الله على المسلمين، وندب لهذه المهمة أخيه مسلمة، الذي بقي مرابطًا عليها حتى استدعاه عمر بن عبد العزيز إشفاقاً على المسلمين ومرحمة^(١).

وتركت هذه الفتحات الواسعة في ثلاثة ميادين وهي :

(١) ميدان الحرب ضد الروم في آسيا الصغرى، وقد امتدت الحرب في هذا الميدان فشملت حصار القسطنطينية وغزو بعض جزر البحر المتوسط^(٢).

(٢) ميدان الشمال الأفريقي، وقد امتد هذا الميدان، حتى المحيط ثم عبر مضيق جبل طارق غرباً^(٣).

(٣) الميدان الشرقي، وقد امتد هذا الميدان من العراق تجاه الشرق، ثم تفرع فرعان أحدهما إلى الشمال، تجاه ما وراء النهر، وهبط الآخر إلى الجنوب فشمل بلاد السند^(٤).

ولكن الميدان الشمالي الذي كان يعمل فيه مسلمة كان أهم الميادين، حيث قربه من عاصمة الأمويين، ومحاولات الروم المستمرة لاستعادة البلاد التي رحلوا عنها عنوة أثناء الفتح الإسلامي^(٥)

وقد علق أحمد شلبي على فتوحات الدولة الأموية في الميادين السابقة^(٦) ووصلت الدولة العربية الإسلامية إلى أقصى اتساعها، فقد ظهر قواد أكفاء عملوا

(١) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٥٨٩.

(٢) المصدر السابق .

(٣) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ، ص ٣١.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٧٩ .

(٥) الذهبي: العبر ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٦) للمزيد ينظر، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢ ، ص ١١٣ .

على رفعة الإسلام شرقاً وغرباً، وقد عُدّت الفتوحات في عهده من الفتوحات العظيمة، مثل التي كانت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب^(١).

ومما لا شك فيه أن مسلمة كان بين هؤلاء القادة العظام، والذي وصفه ابن كثير بأنه "فتح حصوناً كثيرة، وغنم غنائم جمة"^(٢).

وبقيت الفتوح متواصلة على جبهة الشمال، وتعدّت الصوائف وقادتها^(٣).

أما في الجبهة الشرقية فكانت الفتوح متواصلة أيضاً، وتوسعت وتلاحت وتيرتها، حيث غزا قتيبة^(٤)، فافتتح فرغانة وكاشان، وكان البريد في كل وقت يجيء بالفتح حتى امتلأ خزينة الدولة بالغنائم، وعظمت هيبيتها^(٥).

وفي المقابل ضعفت دولة الروم، وغشيمهم المسلمين في ديارهم، وغزوهم في البر والبحر، واضطرب ملك الروم، ولم يزل أمرهم مضطرباً^(٦).

وعندما جاء عهد الوليد، جاء عهد الظفر الواسع، ولكن ميدان الروم كان أقل تأثيراً بحركة الفتوحات الهائلة، واكتفى ميدان الروم ببعض ضربات لم تكن حاسمة، ولكنها كانت قوية، فقد دفع خط المواجهة إلى الأمام مسافة طويلة، حيث استولى المسلمون على بعض حصون الروم، وأعادوا ترميمها، وإعدادها، وأسكنوها الجنود الأشداء^(٧).

وكذلك الأمر في بلاد الترك والخزر، فقد توسيع الفتوحات، وامتدت زمن هشام، وهي انتصارات عظيمة كما وصفها ابن الأثير، حققها سعيد الحرشي على الترك والخزر في آن واحد، واحتراق بلادهم، وتعقب آثارهم^(٨).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٧٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٧١.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١، ص ٥٨٩.

(٤) قتيبة: بن مسلم أبو حفص بن أبي صالح بن عمر بن الحصين بن ربيعة بن خالد، يرجع بنسبة إلى مصر أمير خراسان، ابن خلkan: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٨٦.

(٥) الذهبي: دول الإسلام، ج ١ ، ص ٦٦.

(٦) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج ٢ ، ص ٢٧٣.

(٧) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨، ص ٣٢ ؛ ابن الجوزي: المنظم، ج ٧، ص ١٩.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٩٥.

أما في الجبهة الغربية، فقد بدأ موسى بن نصير في فتح بلاد الأندلس، وأرسل أول الجيوش (سنة ٩٢ هـ - ٧١١ م) بقيادة طارق الذي واصل الفتح من مدينة إلى أخرى، حتى فتح الله عليه تلك البلاد العظيمة، وحملت الأموال؛ التي لا تعد ولا تحصى إلى الشام^(١).

وببدأ المسلمين يفرضون سيطرتهم في جزر البحر بعد فتح الأندلس؛ حيث سير موسى بن نصير طائفة من جيشه إلى سرداية، التي هي من أكبر الجزر في بحر الروم، فدخلوها وغنموها وأموالها؛ بما لا يُحِدُ ولا يوصف^(٢).
والخلاصة أن عصر مسلمة تميز بالفتحات الكبيرة والانتصارات العظيمة، والتي رافقت حياته مع مجموعة من الخلفاء، كلاً منهم كان له فضل في هذا الجانب، وإن تفاوتت الفتوحات بين خليفة وآخر.

ويقول الذهبي بشأن هذه الفتوحات: "كانت الفتوح بأرض المغرب والأندلس، وبأرض الروم، وبأرض الهند، ولم يفتح المسلمون منذ خلافة عثمان مثل هذه الفتوح التي جرت شرقاً وغرباً"^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

(٣) العبر، ج ١ ، ص ١٠٧ .

ثانياً: رأي بعض العلماء في مسلمة:

نالت شخصية مسلمة إعجاب العديد من العلماء قديماً وحديثاً، وكانت شخصيته محل إجماع؛ فلم يختلف عليه أحد من الخلفاء الذين عاصرهم؛ منذ زمن والده عبد الملك إلى هشام ، وبالطبع كان أعلم الناس به والده عبد الملك، الذي شهد الشعبي بغزاره علمه فقال: "ما ذكرت أحداً إلا وجدت لي فضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذكرته حديثاً إلا زادني فيه ولا شرعاً إلا زادني فيه"^(١) ولقد كان عبد الملك رؤية واضحة ومميزة في ولده مسلمة، حيث خرج في إحدى الغزوات يودعه مع جيشه فقال: "أيها الناس: هذا ابني مسلمة، وهو سيفي ورمحي وسهمي، وقد رميت به في نحر العدو، وبذلت دمه ومحجته لله عز وجل، ورجوت أن يقض الله به جيش الروم، فأعينوه وأعضدوه، وقوموا معه، وانصروه إذا كسل، وشجعوه إذا فشل، وأيقظوه إذا غفا، وفهموه إذا هفا"^(٢).

وزاد ابن أثيم في وصية عبد الملك قوله: "انظروا ابني مسلمة -حفظه الله- إذا قدم من أرض الروم، فاعرفوا له حق الجهاد في سبيل الله"^(٣).

وقال خالد بن صفوان الخطيب المشهور: "الأمير مسلمة، كريم الغراس، عالم بالناس، جواد في المحل، بسام عند البذل، حليم عند الطيش في ذروة قريش، ولباب عبد شمس، ويومه خير من أمس"^(٤).

وتبارى شعراء زمانه في مدحه، حيث مدحه أشهرهم مثل: الفرزدق، والكميت بن زيد، وكثير عزة الذي قال: "مسلمة بن عبد الملك فتى العرب"^(٥).

ولم يغفل العلماء اللاحقين حق مسلمة من المدح والثناء، حيث استوقفهم تاريخه العريق، وماضيه المشرق، يذكره ابن كثير فيقول: كانت لمسلمة موافق مشهورة، ومساعي مشكورة وغزوات متالية متثورة، وقد افتح حصوناً وقلعاً،

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٣٩.

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٤ ، ص ١٣٧.

(٤) الأصفهاني: الأغاني ، ج ٨ ، ص ٨٦.

(٥) المصدر السابق، ج ٩ ، ص ٢٩٥.

وأحياناً بعزمها قصوراً وبقاعاً، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوة عزيمته، وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه^(١).

وقال الزبير بن بكار: "مسلمة بن عبد الملك من رجالبني أمية، ويلقب بالجراده الصفراء، وله آثار كثيرة في الحروب، ونكاية في الروم"^(٢).

وقال الدينوري "كان مسلمـة ذـا عـقل كـامل وـأدب فـاضـل"^(٣)
"وكان مسلمـة شـجاعـاً خـطـيـباً بـارـعـاً لـلـسـان جـوـادـاً وـلـم يـكـن فـي وـلـد عـبد الـمـلـك مـثـلـه وـمـثـلـ هـشـام بـعـده"^(٤) ، وـعـنـدـما رـجـع مـسـلـمـة مـن حـرـبـه مـع يـزـيد بـنـ الـمـهـلـب مـنـتـصـراً لـقـيـه الشـاعـر أـبـو نـخـيلـه مـادـحاً فـقـالـ:

مـسـلـمـ يا مـسـلـمـة الـحـرـوبـ اـنـتـ المـصـنـطـفـي مـنـ الـعـيـوبـ
وضـحـكـ مـسـلـمـة لـقـولـه، وـضـمـه إـلـيـه، وـأـجـزـلـ لـه الـعـطـاء^(٥).

ويظهر أبو نخيلة مكانة مسلمـة وحمايته لأمة الإسلام، فـلـوـلا مـسـلـمـة لـأـصـبـحـتـ الـأـمـةـ حـالـهـ كـحـالـ الشـاةـ معـ الذـئـبـ، وـلـأـصـبـحـتـ نـهـيـاً لـعـدـوـهـاـ يـطـمـعـ فـي بـلـادـهـاـ، وـهـوـ ماـ عـبـرـ عـنـ الـوـلـيـدـ بـنـ يـزـيدـ عـنـ وـفـةـ عـمـهـ مـسـلـمـةـ بـقـولـهـ: "أـفـقـرـ الصـيـدـ بـعـدـ مـسـلـمـةـ لـمـنـ رـمـيـ"^(٦).

وأراد الوليد بذلك أن عمه كان كثير الغزو، يحمي بيضة الإسلام، ويتولى سداد التغور، فـلـمـا مـاتـ اـخـتـلـ ذـلـكـ، وـأـمـكـنـ الـإـسـلـامـ لـمـنـ يـتـعـرـضـ إـلـيـهـ، وـيـقـالـ: أـفـقـرـ الصـيـدـ فـارـمـهـ، أـيـ أـمـكـنـاـكـ مـنـ نـفـسـهـ^(٧).

ويعطي أبو نخيلة الشاعر رأيه في مسلمـةـ، عـبـرـ أـبـيـاتـ مـنـ الشـعـرـ نـقـطـفـ بـيـتـيـنـ مـنـهـ حـيـثـ يـقـولـ:

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ، ص ٢٨.

(٣) الأخبار الطوال، ص ٣٣٢

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ، ص ٤٨١.

(٥) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٠ ، ص ٤٠٦.

(٦) ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر، ج ٣، ص ٤٦٤ ؛ الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، ج ٣ ص ١٣٦.

(٧) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥ ، ص ٦٢.

أَمْسِلْمَ يَا مَنْ سَادَ كُلَّ خَلِيقَةٍ
وَ يَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَ يَا قَمَرَ الْأَرْضِ
أَنْبَهَتَ لِيْ ذِكْرِي وَ مَا كَانَ حَامِلاً
وَ لَكَ بِعْضَ الذَّكِيرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضٍ^(١)

وارتبط اسم مسلمة مع كل فتح يتم للأمة الإسلامية، فهو رمز العطاء المتواصل للأجيال، حتى الجويني عندما مدح صلاح الدين على فتوحاته لم يغفل أو ينسى مسلمة من الإشادة والذكر الحسن فقال:

جُنْدُ السَّمَاءِ لَهُذَا الْمَلَكِ أَعْوَانُ
مَنْ شَكَّ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بُرْهَانُ
فَأَيْنَ مَسْلَمَةُ عَنْهَا وَ إِخْوَتُهُ بَلْ أَيْنَ
وَ الدَّهْمُ بَلْ أَيْنَ مَارْوَانُ^(٢)

ويصف ابن الجوزي مسلمة في المنظم بقوله: "مسلمة بن عبد الملك أبو سعيد، كان شجاعاً فارساً جوداً، ذا رأي وحزم وفضل، وغزا غزوات، وكان حسن التدبير"^(٣). وكان الناس في بخارى يعتزون ب المسلمة وتاريخه، وذكر القزويني مدينة فيها مسجد على رأس تل، للمسجد محراب فيه سيف، يقولون إنه سيف مسلمة بن عبد الملك، وقد اتخذ الناس من هذا المكان مزاراً يقصدونه كل عام للتبرك، وبذلك المكان عين ماء يسمونها عين الثواب^(٤).

ومسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد كبار أمراءبني أمية وعقلائهم وقادتهم جيوشهم^(٥).

"وكذلك كارل بروكلمان لم يغفل مسلمة في كتابه: تاريخ الشعوب الإسلامية، فقال عنه: "مسلمة بن عبد الملك؛ لمع نجمه في عهد أسلافه، وأثبتت كفایته في معارك آسيا الصغرى"^(٦).

وهو "القائد الذي اقترب اسمه بعزو بلاد الروم، وبالفتح الجليلة فيها، فكان نابغة في الفنون الحربية شجاعاً، وقد نال ثقة جميع الخلفاء، وقد جيش الغزو باسمهم، منذ أيام عبد الملك إلى أيام أخيه هشام".^(٧)

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٠ ، ص ٤١٣ ؛ الجرجاني: دلائل الأعجاز، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٢) ابو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٣ ، ص ٣٦٩ .

(٣) المنظم، ج ٨ ، ص ٢٢٤ .

(٤) القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٥) البasha: صور من حياة التابعين، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٦) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٥١ .

(٧) فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٤٦ .

وقال حسين عطوان: "لم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسدَ رأيًّا ولا أذكي عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً، ولا أُسخى كفًا، من مسلمة"^(١).

ويرى أبو عزب في كتابه مواقف من التاريخ الإسلامي أن: "مسلمة بن عبد الملك؛ من أكثر النساء الأمويين شجاعة ونبلًا وكرماً، بالإضافة إلى ما أشتهر به من حكمة، وأصالة ورأي، وعلو همة ونفس"^(٢).

أما طقوش فيقول: "يعتبر مسلمة من المع القادة العسكريين المسلمين، وصاحب فكرة مهاجمة القسطنطينية مباشرة، دون التمهيد بفتح المدن والمعاقل المؤدية إليها وتمصيرها، وقد تمرس هذا القائد على قتال البيزنطيين، وعرف أرضهم وأساليبهم"^(٣). ويثنى محمد الأسود على سيرة مسلمة بقوله: "لن ينسى التاريخ بطلاً فذا اسمه مسلمة، أو ما كانوا يطلقون عليه الجرادة الصفراء، بطل حروب الروم وفارسها، الذي لا يبارى في شجاعته وبذله وعبريته في قيادة الحروب، وإذا كان يحق لعبد الملك، الملقب بأبي الملوك أن يفخر بأبوته لأربعة من تولوا الخلافة، فإن أبوته لمسلمه ادعى إلى افتخاره وتباهيه في مجال الزهو بالصالحين من الأبناء"^(٤).

وتطرق العсли في مشاهير الخلفاء والأمراء إلى مسلمة، فقال: "كان من أكفاء القيادات، الثاقب في إدارة الأمور وسد الثغور"^(٥).

وسلمة بن عبد الملك، فاتح عربي متثقف ثقافة عالية، تدرب على فنون الفروسية حتى غداً أشبه الناس بوالده في شؤون الإدارة والسياسة وال Herb من أبطال عصره، كان خليفة بغير خلافة، وملكاً غير متوج، ومتفوقاً على الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد أبيه، دون أن يستغل تفوقة في منافسة الخلفاء على السلطة، وكان أوسع الأمويين فتحاً، وأشهرهم بعد معاوية وبعد أبيه عبد الملك بن مروان^(٦).

(١) عطوان: نظام ولادة العهد ووراثة الخلافة في العصر الأموي، ص ٥٥.

(٢) ابو عزب: مواقف من التاريخ العربي، ص ٣٤.

(٣) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٠.

(٤) شوامخ وأعلام، ص ٣٤٧.

(٥) مشاهير الخلفاء والأمراء "عبد الملك"، ج ٥ ، ص ٦.

(٦) الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

هكذا كان مسلمة في أعين العلماء والخلفاء، ونال احترام وتقدير السابقين واللاحقين وال المسلمين أجمعين إلى يوم الدين؛ لأنَّه أخلص جهاده لله وعرف طريقه، ولا يعنيه إطراء الخلفاء، ولا تغريه ولالية الأمراء.

ثالثاً: وفاة مسلمة:

وأصل مسلمة جهاده رافعاً راية الحق إلى العام الذي توفي فيه، ولم يترك الغزو مطلقاً منذ زمن والده عبد الملك، حيث بدأت باكوره أعماله العسكرية واستمرت حتى وفاته في يوم الأربعاء (٧-محرم-١٢١هـ = ٧٣٨م) ^(١).

وأجمع كبار المؤرخين أن وفاة مسلمة كانت عام ١٢١هـ، حيث يؤكّد خليفة بن خياط في تاريخه أن مسلمة غزا في العام نفسه الذي توفي فيه ^(٢). ويوافق ابن الأثير والذهبي خليفة في هذا التاريخ وكلاهما يؤكّد أن مسلمة غزا في العام نفسه الذي توفي فيه حتى بلغ ملطية ^(٣).

أما ابن حجر العسقلاني فلم يجزم بسنة الوفاة وقال مات مسلمة سنة عشرين ومائة أو بعدها ^(٤).

ومن خلال المعلومات المتواترة التي قدمتها مصادرنا يتأكّد لدينا أن سنة وفاته هي (١٢١هـ= ٧٣٨م).

ولم يذكر أحد من المؤرخين سبب وفاة مسلمة أو أي مرض يحتمل أن يكون قد أصابه، وأشار الطبراني إلى طبيب اسمه "برمك" كان قد عالج مسلمة من علة كانت به، ثم ذكر أن مسلمة غزا في السنة نفسها أرض الروم، لكن الواضح من النص أن مسلمة شفي من هذه العلة ولم تكن السبب في وفاته ^(٥).

ويبدو أن مسلمة توفي فجأة، وذلك حسبما حدث موسى بن زهير، قال رأيت هشام بن عبد الملك وأنا في عسركه يوم توفي مسلمة، وهشام في شرطته، إذ طلع الوليد بن يزيد، فوقف على هشام فقال : "يا أمير المؤمنين، إن عقبى من بقى، لحوق من مضى، وقد أُفقر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واحتل التغر فوهى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٣٢٩.

(٢) خليفة : تاريخ، ج ١ ، ص ٣٥٢.

(٣) الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ ؛ الإعلام بوفيات الأعلام ص ٦١ .

؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١ ، ص ٢٤٩.

(٤) تقريب التهذيب، ص ٥٣١.

(٥) الطبراني: تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٧١.

وعلى أثر من سلف يمضي من خلف فتزدوا فإن خير الزاد التقوى، فأعرض عنه هشام، ولم يرد جواباً، ووجه الناس فما همس أحد بشيء^(١).

الظاهر من النص أن الأمور كانت طبيعية، وكان هشام في شرطته، والموقف يوحي أن موت مسلمة كان مفاجئاً، حيث أن الجميع أبدى الصمت، ولم يتكلم أحد بشيء، وهو ما يوحي بأن مسلمة لم يكن مريضاً من قبل.

وكان أول من نعى مسلمة الوليد بن يزيد وأشار إلى فضل عمه مسلمة موضحاً أثر موته على الأمة، حيث التغور التي كانت مصانة أصبحت بعد مسلمة واهية يطمع فيها العدو، وتمنى الوليد أن قوماً بأكملهم ماتوا ولم يُصب مسلمة ما أصابه^(٢).

ورثى عبد الله بن عبد الأعلى مسلمة فقال :

أبا سعيدٍ أراكَ اللهُ عافِيَةً
فيها لروحكَ عندَ العُسْرِ تَسْيِيرُ
فقدَ أقمْتَ قنَّةَ الْحَقِّ مَا عَنَّدَتْ
إذْ أَنْتَ لِلَّدِينِ مِمَّا نَابَهُ سُورُ^(٣)

والمعنى نفسه الذي ذهب إليه بن عبد الأعلى، هو الذي ذهب إليه الوليد، وهو حماية الدين من طمع العدو فيه، وكان مسلمة السور أو الصخرة الصلبة التي يتحطم عليها العدو.

قال الشاعر ذو الشامة يرثي مسلمة:

ضَاقَ صَدْرِي وَ عَيْلَ صَبْرِي
فَلَا صَبَرْ دُونَ مَا أَرَاهُ أَتَاكَا^(٤)

ورثى الوليد بن يزيد عمه مسلمة بأبيات من الشعر، تحمل الأسى والحسرة على فقدان عمه فقال:

أَقُولُ وَ مَا الْبُعْدُ إِلَّا الرَّدَى
مُسْبِيًّا فَقَدْ أَصْبَحَتْ مُظْلِمَةً
فَقَدْ كُنْتَ نُورًا لَنَا فِي الْبِلَادِ

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ٧ ، ص ١٣ ؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ٩ ، ص ٣٩٠٣.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ٧ ، ص ١٤.

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ١٤

؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين ، ج ١ ، ص ٨٣-٨٢.

(٤) المصدر السابق: ج ٨ ، ص ٣٥٥٣

وَكُمْ مِنْ يَتِيمٍ تَلَفَّيْتَهُ بِأَرْضٍ
الْعُدُوِّ وَكُمْ مِنْ أَيْمَهُ
دَمًا نَصَبْتَ لَهَا رَأْيَةً مَعْلَمَهُ^(١)
وَكُنْتَ إِذَا حَرَبُ دَارَتْ

ويؤكد الأصفهاني أن موت مسلمة كان خسارة كبيرة للأمة؛ حيث "اختل
النغر بعد موت مسلمة البطل القرار عام ١٢١ هـ"^(٢).

أما ابن الأثير ، فيرى أن موت مسلمة كان سبباً في طمع الروم،
ومهاجمتهم لجيش المسلمين بلغ عده خمسون ألفاً، وقتل أربعين ألفاً منهم ولم يبق
منهم إلا عشرة آلاف ومن بين الذين قتلوا قائد الجيش نفسه^(٣). وهذا يسدل
الستار على حياة هذا البطل المغوار؛ الذي حمى بيضة الإسلام سنين طويلة،
صابراً مجاهداً محتسباً أجره على الله، باذلاً في سبيل الله نفسه وماله ودمه؛ لتعلو
رأية التوحيد، ويسود العدل، ويعم الخير.

وسوف يتحدث الباحث في الفصل الثاني إن شاء الله عن جهاد مسلمة
وحروبه وغزواته وفتحاته المختلفة.

(١) الأصفهاني : الأغاني، ج ٧ ، ص ١٢ ؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥٨ ، ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق، ج ٦ ، ص ٤٠٧ .

(٣) ابن الأثير:الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

الفصل الثاني

فتورات مسلمة بن عبد الملك وجهاه

- * المبحث الأول:
جهاه مسلمة في عهد والده عبد الملك
فتوره وجهاده في عهد الخليفة الوليد
فتوره وجهاده في عهد الخليفة سليمان
- * المبحث الثاني:
جهاه في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز
جهاه في عهد الخليفة يزيد
جهاه في عهد الخليفة هشام
- * المبحث الثالث:

المبحث الأول

**جهاد مسلمة في عهد والده عبد الملك
جهاده وفتحه في عهد الخليفة الوليد**

جهاد مسلمة في عهد والده عبد الملك:

بعد الحديث في الفصل الأول عن مسلمة ونشأته والتعرف على ظروف حياته يتوجب على الباحث أن يستعرض جهوده وجهاده في زمن مجموعة من الخلفاء، حيث بدأت بوأكير أعماله العسكرية زمن والده، واستمرت حتى وفاته زمن هشام، ولقد بدأت هذه الجهود مع الروم مبكرة ومنذ نشأة الدولة الأموية، حيث أن معاوية أغزى ابنه يزيد حتى وصل القسطنطينية، وأغزى كذلك عبد الملك ابنه مسلمة، وأغزى الوليد ابنه العباس مراراً، ورابط الخليفة سليمان بدق سفين، وحلف أن لا يعود منها حتى يفتح الله على المسلمين، وجهز لتلك الغزارة الكبرى بقيادة أخيه مسلمة الذي ظل مرابطًا عليها حتى استدعاها الخليفة عمر بن عبد العزيز، خوفاً على المسلمين ورحمة لهم^(١).

واهتم الخلفاء الأمويين بججهنهم مع الروم اهتماماً كبيراً لأسباب عدة أهمها:-

- ١- أن هذه الجبهة تجاور بلاد الشام مركز الخلافة الإسلامية.
 - ٢- كانت إمبراطورية الروم لا تزال قوية وتمثل الندية في علاقتها بالدولة الإسلامية.
 - ٣- رغبتهم في القضاء على الدولة البيزنطية مثلاً قضي على الدولة السasanية سابقاً.
 - ٤- لم يكن العرب المسلمون مطمئنين لجانب البيزنطيين، فما زالت عاصمتهم قائمة فالتهديد قائماً.
- وقد فكر خلفاء بني أمية بقائد تميز جاد، يتولى قتال الروم على الجبهة الشمالية، فوجدوا في مسلمة ضالتهم، واسندوا إليه هذه المهمة الصعبة على هذه الجبهة، وقد قام بالنصيب الأوفر منها، حيث قامت على أكتافه جل تلك الانتصارات الإسلامية العظيمة^(٢).

(١) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١، ص ٥٨٩؛ القلقشندي: مآثر الأناقات في معلم الخلافة، ج ١، ص ١٤٠.

(٢) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٤٢٩.

وببدأ جهاده وفتحاته، في عهد والده عبد الملك، حيث تحرك الروم من بلادهم، فاجتمعوا في خلق عظيم، وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم، وأخذ الشام من أيديهم، فبلغ ذلك عبد الملك، فنادى في أهل الشام، فجمعهم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "أيها الناس: إن العدو قد كلّب عليكم، وطمع فيكم، وهنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى، واستخفافكم بحق الله، وتتلاطفكم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وأنني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم، فماذا عندكم من الرأي؟"^(١).

وهكذا يختبر عبد الملك جاهزية شعبه لمعركة ذات حساسية خاصة، فهي ضد الروم، العدو الأخطر والأقرب لل المسلمين وعاصمتهم، والأشد أثراً عليهم، وأجابه الناس بأحسن الجواب، ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد، وعزموا على ذلك، وأرسل عبد الملك إلى عماله في الأمصار بالقدوم عليه بالأجناد، واستدعي أخاه محمد بن مروان، وابنه مسلمة، من بلاد أرمينية وأذربيجان، فأشخصهما إليه في جميع من معهما من الأجناد^(٢).

وعندما قدم الأجناد من كل حدب وصوب، على كل ضامر ومن كل فج عميق، قام فيهم عبد الملك خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أمرت عليكم مسلمة بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ترشدوا وتوفقوا، فإن استشهد فالامير من بعده محمد بن خالد بن الوليد المخزومي، فإن استشهد فالامير من بعده محمد بن عبد العزيز، وقد وليت الغنائم رجاء بن حبيبة، وصيرته أمنياً على مسلمة وعليكم، ثم أقبل على مسلمة فقال ... يابني: "إني قد وليتكم على هذا الجيش، فسر بهم وأقدم على "أليون" كلب الروم، وكن لل المسلمين أباً رحيمًا، أرفق بهم وتعاهدهم، وإياك أن تكون جباراً مختالاً فخوراً، ثم عرض الناس، فانتخب منهم ثلاثين ألفاً من أهل البأس والنجدة"^(٣).

وزاد ابن أعمش في وصيته عبد الملك لابنه مسلمة بقوله: "يابني: إني قد ندبتك لهذا الأمر، وشرفتك بهذا الجيش، فجعلته لك شرفاً وذكرها إلى الأبد ...، فثق

(١) ابن أعمش الكوفي: الفتوح، ج ٤، ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق: ج ٤، ص ١٢٢.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب، ج ٤ ، ص ١٩٢٢.

بإله واستعن به، وتوكل عليه، وكفى به ولیاً وناصراً، وانظر يا بني لا يهولنك ما ترى من جموع الروم وكثرة عددهم، فإن الله تبارك وتعالى بفضله مهلكهم وضارب وجوههم^(١).

وبعدما استكمل عبد الملك الإعداد والعدة والعتاد في هذا الجو المهيب، المفعم بالحماس، دعا مسلمة ليودعه، فعانقه وقبل بين عينيه وقال: "السلام عليك يا ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي، فإن نفسي تحذثني أنى لا أراك ولا تراني بعد هذا اليوم أبداً، ثم بكى وبكى الناس لبكائه، وودع الناس بعضهم بعضاً، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة^(٢).

ولم يكن اختيار الأبناء لهذه المهمة الصعبة الخطيرة التي قد تؤدي بحياتهم تحيزاً وتميزاً لهم عن المسلمين، وإنما تضحيه بهم في سبيل الله، وحتى يقتدي بهم المسلمون ويغدو دينهم بأبنائهم وأنفسهم واعز ما يملكون، فقد كان بإمكان عبد الملك أن يبقى ولده حوله ويسلمه مهمة مدنية بعيدة عن الخطر فيتمنع بولده، ويجعل ولده يتمتع بملك أبيه، لكنه لم يفعل لعلمه أن في ذلك مصلحة لدينه ولو لولده الذي سيشرف ويغزو بالجنة أن هو قتل في سبيل الله.

وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل، والزي الحسن، والخيل العتاق، حتى نزلوا بموضع يقال له دابق وهي قرية قرب حلب، فلم يزل مسلمة هنالك نازلاً، والناس يخرجون إليه ويتلحوذون به، من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم^(٣).

ويعلق الناطور، على توجيه الجيش إلى هذه الجبهة بالذات في ذلك الوقت فيقول: "كانت هذه الجبهة تقتضي من الخليفة الرد الحاسم حيث الإمبراطورية لا تزال تتبع بكل مقومات الحياة، وأرضها الحقيقة -الأم- ما زالت لم تمس، إلا بعض الدروب والثغور"^(٤).

(١) ابن أثيم الكوفي: الفتوح، ج ٤ ، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق: الفتوح، ج ٤ ، ص ١٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤ ، ص ١٣٤.

(٤) تجديد الدولة الأموية في عهد عبد الملك، ص ١٨٨.

أما العدوى، فيرى أن الميدان البيزنطي أول الميادين التي يجب أن تركز فيه الخلافة نشاطها الحربى؛ لأن إمبراطورية الروم كانت مركز القوة الرئيسية المعادية للدولة العربية الفتية، وتنطع إلى استرداد الشام ومصر التي تعدّهما أثمن وأغلى أقاليم الإمبراطورية^(١).

وواصل مسلمة زحفه صوب عمورية وبلغ شمعون - صاحب عمورية - بأن العرب قد صارت إلى ما قبله، فجمع من كان حوله من القرى والحسون وأدخلهم عمورية، ثم دعا بطريقاً يقال له: "روسيب" فضم إليه أربعين ألفاً على مقدمة شمعون، وأقبل شمعون من ورائه في ثمانين ألفاً، وبلغ مسلمة هذا الحشد، فعبأ أصحابه، ثم دعا بالبطال، فأمره أن يتقدم بين يديه فسار البطال في المقدمة ومعه عشرة آلاف من الجنود لا يرى منهم إلا الحق، حتى إذا أشرف على عمورية كان "روسيب" قد استقبله في أربعين ألفاً من النصارى، واشتد بريق السيف، وعلا صهيل الخيول، والتهم الجيشان، واقتلاوا، وعلت الأصوات، وتساقطت هامات المشركين، وحمل روسيب على البطال وهو لا يعلم، لكن البطال يعرفه، فخفق عليه، ثم ضربه ضربة على بيضته، فقد البيضة والهامة، وخر روسيب قتيلاً^(٢).

والجدير باللحظة أن مسلمة أنشأ وحدة خاصة كانت مجهزة بكامل العدة والعتاد، ووضع على رأسها البطال؛ لتنفيذ أعقد المهام العسكرية التي لا تتسع لبقية الوحدات الأخرى من الجيش، وقد نجحت هذه الوحدة في حسم المعركة نفسياً على الأقل؛ عندما تخلصت من "روسيب" في الساعات الأولى، وقبل بدء المعركة الكبرى الخامسة.

ويؤكد محمد صديقي، أن السبب في هذه النجاحات العسكرية هو الحماسة الدينية لدى حملة الإسلام، إضافة إلى بعض الدوافع والعوامل الأخرى

(١) التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص ٢٣٠

(٢) ابن أثيم الكوفي: الفتوح، ج ٤، ص ١٢٥.

المساعدة^(١)، ولما طار الخبر إلى شمعون صاحب عمورية "بمقتل روسيب"؛ زحف بخليه ورجله يريد لقاء المسلمين، وأرسل البطل كذلك يخبر مسلمة، فأقبل مسرعاً في جماعة من المسلمين حتى قابل الروم، وصهلت الخيل، وتداعت الفرسان، وتقابل الجيشان، واستبشر المسلمون بما وعدهم الرحمن من الخلود في الجنان، وتقدم عبد الرحمن بن صعصعة أمام المسلمين وهو يرتجز ويقول:

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ جَدِّيْ صَعْصَعَةُ
ذُو الْبَاسِ وَالْإِقْدَامِ عِنْدَ الْمَعْمَعَةِ
وَمَنْ يَخَافُ اللَّهَ فَاللَّهُ مَعَهُ

ثم حمل عبد الرحمن بن صعصعة، فقاتل ساعة ورجع مجروهاً، وتقدم عبد الله بن جرير الجلي وهو يرتجز ويقول:

أَنَا ابْنُ ذِيِّ الْفَضْلِ فَتَىِ بُجَيْلَةَ
جَرِيرُ شَيْخِيْ وَلَهُ فِضْيَلَةَ

وتقدم محمد بن مروان يرتجز ويقول:

أَنَا ابْنُ مَرْوَانَ إِذْ الْهَيْجُ اضْطَرَّمْ
أَكْرُرُ فِيِ الْحَرَبِ كُلِّيْتِ مُقْتَحِمٍ^(٢)

وحمى الوطيس، وتداعى الفرسان، وشمر الرجال، وظهرت البطولات، وترجل مسلمة، فنزل عن فرسه، ونزل الناس معه، واختلط القوم، فاقتلوها قتالاً شديداً، وصبر القوم بعضهم ببعض، وصاح صالح من المسلمين، أيها الأمير: البشري، فقد قتل "شمعون" فكبـر مسلمـة، وكـبـر المـسلمـون معـهـ، وإذا بالـبـطلـ يـقـبـلـ، وفي يـدـهـ رـأسـ "شـمعـونـ" حتـى الـقاـهـ بيـنـ يـدـيـ مـسـلمـةـ وـوـثـبـ مـسـلمـةـ، وـاسـتـوـىـ عـلـىـ فـرـسـهـ، وـاسـتـوـىـ النـاسـ مـعـهـ علىـ خـيـولـهـمـ، ثـمـ حـمـلـ وـحـمـلـ النـاسـ مـعـهـ، وـانـهـزـمـتـ الرـومـ وـوـلـواـ الأـدـبـارـ، وـتـسـارـعـ النـاسـ إـلـىـ بـابـ عـمـورـيـةـ فـدـخـلـوـهـاـ بـالـسـيفـ عـنـوـةـ، فـقـتـلـوـاـ مـقـاتـلـهـاـ، وـغـنـمـوـاـ أـمـتـعـتـهـاـ وـأـمـوـالـهـاـ، وـكـانـتـ غـنـائـمـ عـمـورـيـةـ يـوـمـئـذـ تـزـيدـ عـلـىـ مـائـةـيـ أـلـفـ مـقـاتـلـ

(١) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، ص ١١٢.

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ١٣٦.

من الذهب والفضة، سوى الأمتعة والبغال والحمير، فاخراج مسلمة منها الخمس، ووجه الباقي إلى بيت مال المسلمين، وكان عبد الملك لا يزال على قيد الحياة^(١).

ثم واصل مسلمة زحفه إلى مدينة القفورية^(٢) حتى إذا أشرف عليها، خرج إليهم "تفور" الأكبر في زهاء سبعين ألف عنان سوى الرجال، فلما نظر إلى جيش المسلمين، صاح بأصحابه أن يحملوا على المسلمين، وانكشف المسلمون أمامهم في البداية، وقتل عدد منهم، وعندما نادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: "يا أهل الشام لا شام لكم، ويا أهل العراق، لا عراق لكم، ويا أهل مصر، لا مصر لكم، إن أئتم وليتكم الأدبار، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين"^(٣).

ونادى محمد بن مروان قائلاً: "يا أهل الإسلام، أما تستحون أن ينهزم أهل الدين والقرآن بين أيدي الكفرا وعبدة الصليبان، أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم، وأتاه به نبيكم، والله ينصركم ويثبت أقدامكم"^(٤).

وفي هذا الموقف؛ تصدق عزائم المسلمين، ويلتزم الفريقان، ويحمل "تفور" على "مسلمة"، ويضربه على رأسه، ويتكالب الروم على المسلمين، غير أنهم ثبتوا لهم، وأشروا الرماح في وجوههم ورشقواهم بالسهام، وتقهقر الروم للوراء، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه واقفاً، ثم نادى بأعلى صوته، أيها الناس إلى إني أنا مسلمة بن عبد الملك، أوجب الله لكم الرضوان، فاجتمع عليه الناس، ثم توادعوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضاً، وحملوا على الروم حملة رجل واحد، ووضعوا فيهم السيوف، وسقط "تفور" صريعاً، ولما علمت الروم؛ ولت الأدبار والسيوف تحصدتهم، وتقدم البطل بوحدته الخاصة صوب باب المدينة، فهجموا على أهلها، ولحق بهم مسلمة ومن معه من الجيش، حتى أحاطوا بالمدينة،

(١) ابن أثيم، ج ٤، ص ١٣٧.

(٢) القفورية: لم يجد لها الباحث تعريفاً في المصادر الإسلامية.

(٣) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ١٣٨.

(٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٨.

فاجتمعوا عليها، وغنموا ما فيها، وقد بلغت غنائم هذا المدينة مائة وثمانين ألف مثقال من الذهب والفضة سوى الدواب والأمتعة والرقيق^(١).

ويرى الباحث أن ما تحقق لمسلمية من انتصارات بدأها في باكوره جهاده زمن والده، قد رسمت مستقبله العسكري، وصاغت إلى حد كبير مستقبل العلاقة بين الخليفة الأموية وبين الروم بشكل عام وعلى جبهة الشمال التي يقودها مسلمة بشكل خاص.

وقد أبدى هذا القائد الشاب شجاعة فائقة، وجداً عظيماً في الحروب؛ منذ انطلاقته الأولى؛ حتى قال عنه الجاحظ: "لم يكن في ولد عبد الملك مثله ومثل هشام"^(٢).

وقد بلغت خسائر المسلمين في هذه الفتوح ثمانمائة شهيد، ما بين فارس وراجل من جيش مسلمة^(٣).

فتوح مسلمة وجهاده في عهد الخليفة الوليد:

انتهج الوليد نهج والده في الضغط على الإمبراطورية البيزنطية، وفي الوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي يخشى اتساع النشاط العسكري الإسلامي في البر والبحر؛ كان الخليفة يعمل على تحقيق الهدف الذي ظلّ يراود الخلفاء الأمويين منذ تأسيس دولتهم، ألا وهو فتح القسطنطينية، لا سيما بعد أن أصبحت الإمكانيات الإسلامية متاحة، بعد تقوية الأسطول البحري، وتنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية، في حين افتقد الجانب البيزنطي إلى الاستقرار، مما خلق مناخاً طيباً للعمليات الحربية^(٤).

(١) ابن أثيم، ج٤، ص١٣٨.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص٤٨١.

(٣) ابن أثيم: الفتوح، ج٤، ص١٣٨.

(٤) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص١١٤.

وكان العمل العسكري المميز الذي افتتح به مسلمة خلافة الوليد هو فتح مدينة الطوانة^(١)، وقد أصاب المسلمين فيها شدة عظيمة، حتى كتب مسلمة إلى أخيه الوليد وهو غازٌ:

أَرِقْتُ وَصَحْرَاءُ الطَّوَانَةِ يَيْتَنَا
لَبْرَقْ تَلَالًا غُمْرَهُ يُلْمَحُ
أَزَوِلُ أَمْرًا لَمْ يَكُنْ لِيُطِيقَهُ
مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا اللَّوْذَعِي^(٢) الصَّمَحْمَحُ^(٣)

ويصف القعاع بن خالد العبسي، الذي عاين الموقف بقوله: "أكلنا لحوم الخيل رطباً ويابساً، حتى تقرحت أكبادنا"^(٤).

وذكر المؤرخون الشدة التي أصابت المسلمين في الطوانة؛ حيث استمر حصارها ما يقرب من تسعة أشهر، وكانت بين الروم وال المسلمين فيها معركة حامية الوطيس؛ حتى انهزم فريق من المسلمين وبقي العباس بن الوليد في نفر من المؤمنين الثابتين، منهم ابن محيريز^(٥) الجمي، فقال له العباس: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة، وقال ابن محيريز: نادهم يأتوك، فنادي العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا جميعاً، فهزم الله الروم؛ حتى دخلوا الطوانة وفتحوها^(٦).

ومما يعكس حجم الشدة والمعاناة التي أصابت المسلمين في فتح الطوانة؛ أن رجلاً كان يجاهد مع مسلمة في غزو الطوانة، جاءه الخبر بمولود جديد، شاء القدر أن يكون يوم الفتح، فأعلم الرجل مسلمة، فقال له: ما سميته؟ قال: الفرج؛ لما فرج الله عنا في هذا اليوم بالفتح، فقال مسلمة للرجل أصبت، لما أصاب المسلمين من شدة في الإقامة على الطوانة^(٧).

(١) الطوانة: هي بلد من بلاد الروم من ثغور المصيصة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٥.

(٢) اللوذعي: الرجل الحديد الفؤاد واللسان الظريف؛ لسان العرب، ج ٨ ، ص ٣١٧.

(٣) الصمحمح: الشديد من الرجال المجتمع الألواح وهو في السن ما بين الثلاثين والأربعين، لسان العرب، ج ٢ ، ص ١٥٩.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٦.

(٥) ابن المحيريز: كان رجلاً صالحًا عابداً قدوة، مدحه الأوزاعي كثيراً، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤ ، ص ٩٦.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٢٣٧.

؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٧٤ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١ ، ص ٢١٢.

(٧) البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٢ ، ص ٣٩٣.

ومن الذين لَمْ نجدهم في معركة الطوامة "ميمون الجرماني"، الذي كان عبداً رومياً لبني أم الحكم، أخت معاوية بن أبي سفيان، وهم ثقفيون، وإنما نُسِب إلى الجراجمة؛ لاختلاطه بهم، وقد بلغ عبد الملك عنه بأس وشجاعة، فسأل مواليه أن يعتقه ففعلوا، وأمره على جماعة من الجنديين، وسيّره إلى أنطاكية؛ فغزا الطوامة مع مسلمة، وهو على ألف من أهل أنطاكية، فاستشهد بعد بلاء حسن، وموقف مشهود، فأرسل عبد الملك إلى الروم جيشاً عظيماً طلباً بثأره^(١).

وواصل مسلمة تقدمه وزحفه بعد الطوامة؛ حيث فتح الله عليه مجموعة من الحصون، وقتل وبى وغنم، وفي الوقت نفسه كان قتيبة في جبهة الشرق يتقدم نحو بيكند^(٢).

ونتيجة لهذا التقدم قاتل الروم بتحريض جماعة تعرف بالجراجمة -سكن بعض جبال الشام- ضد الجيش الإسلامي المتقدم، فوجه الوليد إليهم مسلمة، فأناخ عليهم في خلق من الناس، وتمكن من فتح مدinetهم صلحاً على أن ينزلوا حيث أحبوا من بلاد الشام، ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير، وعلى عبادهم القوت من القمح والزيت، وعلى ألا يكره أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية وعلى أن يلبسوها لباس المسلمين ولا يؤخذ من أولادهم ونسائهم جزية، وعلى أن يغزو مع المسلمين؛ فينفلوا أسلاب من يقتلونهم مبارزة، وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال أغزيائهم ما يؤخذ من أموال المسلمين^(٣).

ويبدو من خلال النص، أن الجراجمة كانوا يعملون كمرتزقة، هدفهم الأكبر الحصول على الطعام، لذلك استطاع مسلمة أن يستعيد منهم، فوضع بعضهم في الخندق الإمامي باتفاقه معهم؛ أن لهم أسلاب من يقتلونه مبارزة، وهم بذلك وضعوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع أعداء مسلمة مقابل الغنائم، والبعض الآخر تم تحبيده مقابل ما

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٦٥.

(٢) بيكند: بلد بين بخاري وجيحون، وتبعد ثلاثة فراسخ من بخاري ؛ ياقوت مجمع البلدان، ج ٢، ص ١١١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ، ص ١٦٥ ؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٢٣٣.

يحصل عليه من قوت، ويصف فروخ "الجرائم" "بالسور النحاسي الذي استخدمه الروم ليفصلوا حدودهم عن حدود خصومهم من العرب والمسلمين"^(١).

وقد أحدث الجرائم فلماً للدولة الأموية، وكانوا يقطعون طريق الصوائف على المتأخرین من الجيش، حتى قامت الدولة بعمل مسالح على الطرق، وأخرجت جيشاً ليصد الجرائم؛ فسموا الروادف^(٢).

ويتوافق زحف مسلمة، والحسون والقلاع تنهاوی أمامه، وكان يشارکه ابن أخيه العباس بن الولید، فتوغلوا في بلاد الروم، فقتلوا خلقاً كثیراً، وفتحت أمامهم الحسون المتعددة، منها: سوريا^(٣)، وهرقلة^(٤)، وغيرها، وغنموا كثیراً، وأسرموا جمعاً غیراً^(٥).

وقد وقع بعض الأسرى المسلمين في هذه المعارك، وكان مسلمة شديد الحرث على سلامه جنوده ويعمل على تحريرهم من الأسر بكل ثمن، وقد ذكر التوخي رواية تُظهر تعامل مسلمة وحرصه على إنقاذ جنوده، حيث ذكر رجل من أهل الكوفة، قال: كنا مع مسلمة ابن عبد الملك ببلاد الروم، فسبا سبايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعرض السبي على السيف، فقتل خلقاً، حتى عرض عليه شيخ كبير ضعيف، فأمر بقتله،

قال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثل؟ إن تركتني حياً، جئتك بأسيرين من المسلمين شابين، قال له: ومن لي بذلك؟

قال: إني إذا وعدت وفيت

قال: لست أثق بك

قال له: دعني أطوف في عسكرك، لعلي أعرف من يتکفل بي؛ إلى أن أمضى وأعود بالأسيرين، فوكل من يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشيخ يطوف ويتصفح الوجوه، حتى مرّ بفتى منبني كِلَاب، قائماً يحس فرسه.

(١) عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٤٧.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٢٣٣.

(٣) سوريا : موضع بالشام بين خناصرة وسليمة ؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .
؛ البكري: معجم ما استجم، ج ٣ ، ص ٧٦١

(٤) هرقلة: مدينة في بلاد الروم غزاها الرشيد بنفسه وفتحها عنوة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٥ ، ص ٣٩٨ .

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٧٦ .

فقال له: يا فتى، أضمنني للأمير، وقص عليه قصته.
 فقال له: أفعل، وجاء الفتى إلى مسلمة، فضمنه فأطلقه مسلمة
 فلما مضى، قال للفتى: أتعرفه؟
 قال: لا والله، قال: فلمَ ضمنته؟
 قال:رأيته يتصرف الوجه، فاختارني من بينهم، فكرهت أن أخلف ظنه فيَّ.
 فلما كان من الغد، عاد الشيخ ومعه أسيران شابان من المسلمين، فسلمهما إلى مسلمة، وأطلق
 مسلمة سراحه^(١).

وواصل مسلمة فتحه عام (٩٠ هـ = ٧٠٨ م)، حيث غزا أرض الروم من ناحية سوريا،
 وفتح الحصون الخمسة التي بسوريا، وكذلك غزا العباس بن الوليد حتى بلغ الأردن، وقال
 بعضهم: حتى بلغ سوريا: وتمكن الروم من أسر أمير البحر، خالد بن كيسان، فذهبوا به
 إلى ملكهم، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك^(٢).

ويرى الباحث أن ما قام به ملك الروم من هذا الفعل يرجع إلى قوة الدولة
 الإسلامية وهيبتها، ولم تكن بيزنطة قادرة على تحمل أي نتائج للإضرار بخالد بن
 كيسان، أو حتى استمرار احتجازه لديها، وهي بذلك تخطب ود الخلافة، وتسعى لتخفييف
 نار الحريق المحتم بين الطرفين، أو لربما التوسل إلى الخلافة واستجدائها بطريقة غير
 مباشرة إنها القوة والجهاد في سبيل الله التي لا يُعزُّ المسلم ويكون له قيمة واحترام في
 نظر الأعداء إلا بهما.

وقد حدثت تطورات على جبهة الشمال، حيث أن مسلمة فتح جبهة جديدة مع
 الترك، يساعده ابن أخيه عبد العزيز بن الوليد، حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان،
 ففتح مداين وحصون كثيرة، وقام الوليد بعزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة
 وأذربيجان، ولاما أخاه مسلمة^(٣).

(١) التوخي: الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٢٩-٣٠-٣١؛ ابن حمدون: الذكرة الحمدونية، ج ٩، ص ٢٧٥-٢٧٦-٢٧٧؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٢٢١-٢٢٢؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ٥، ص ٢٠٣٥.

(٢) الطبرى: تاريخ، ج ٣، ص ٦٨١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨، ص ٣١؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٢٩٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٢١.

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٣، ص ٣؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨، ص ٣١؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٢٩٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٢٥٢.

؛ الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٠٥.

ويعلق العش على هذا التطور في جهة الشمال فيقول: "أصبح في بلاد الروم جبهتان وقيادتان: إحداهما قيادة جديدة مستقلة في الجزيرة بقيادة محمد بن مروان، الذي انطلق في سبيل الله، ففتح أرمينية، ودكَّ الحصون، وبعث هيبة المسلمين. وثانيها: قيادة مسلمة؛ الذي يرנו صوب القسطنطينية التي لا تزال بعيدة المنال، رغم أن جيوش الوليد استولت على "طوانة"، ودكَّت كثيراً من الحصون في بلاد الروم"^(١).

ومنطقة الباب التي وصل إليها مسلمة في بلاد الترك تعرف عندهم بـ"دربرند"، وتسمى بها العرب الباب، وهي مدينة ساحلية فيها مرفأ، وتقع شمالي بلاد شروان، وهي أجمل موانئ بحر قزوين، وفي وسطها مرسى للسفن^(٢).

ويصف ابن خرداذبة الأبواب بقوله: "فهي أفواه شعاب في جبل القفق، فيها حصون منها: باب صول، وباب اللان، وباب الشابران ولاذقة، وباب بارقة، وباب صاحب السرير، وغيره أما خارج الباب فيوجد ملك سور، وملك اللكر^(٣)، وملك اللان، وملك فيلان^(٤)، وصاحب السرير، ومدينة سمندر^(٥)، وكل ذلك من بلاد الشمال"^(٦). ويرى الباحث أن الذي دفع مسلمة للتغلب في أرض الترك جملة أمور منها:

- ١- تأمين الطريق للجيش الإسلامي المتقدم صوب القسطنطينية.
- ٢- يُعد سكان هذه المناطق الحلفاء التقليديين للروم، وإخضاعهم يخدم هدف مرحي من أهداف مسلمة الزاحف نحو بيزنطة.
- ٣- سكان هذه المناطق يتوزعون في العديد من الممالك الصغيرة، غير المتاغمة عرقياً أو مصلحة ويسهل إسقاطها، هذا من جانب، ومن جانب

(١) الدولة الأموية والأحداث التي سبقها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، ص ٢٤٨.

(٢) الذهبي: دول الإسلام، ج ١ ، ص ٦٣.

(٣) اللكر: بلد تقع بالقرب من فيلان وهي قريبة من باب الأبواب، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٤.

(٤) فيلان: بلد قريب من باب الأبواب من جهة الخزر وملكتها يعرف بملك السرير ، ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٢٨٦.

(٥) سمندر: مدينة خلف باب الأبواب بأرض الخزر بناها أنوشروان ، ياقوت: معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٢٥٣.

(٦) المسالك والممالك، ص ١٠٨ - ١٠٩.

آخر، منعها من أن تتحد عندما تشعر بالخطر من تقدم مسلمة؛ فيصبح عليه مواجهة جبهتين من الشمال والشمال الشرقي.

ولعل الذي حدث بالفعل يؤكد صحة هذه الافتراضات، حيث يؤكد ابن عساكر أن مسلمة غزا سنة (٩١٠هـ=١٧٠٩م) الترك، حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، ويؤكد كذلك أنه دان له منْ وراء الباب^(١)، وهي الممالك التي أشار إليها ابن خرداذبة سالفاً^(٢).

والجدير بالذكر أن المنطقة كانت تنتشر فيها القلاع والحسون، وكان يُطلق على الحسون التي في الشمال الشرقي منطقة الثغور، والمنطقة على العموم جبلية وعرة صعبة المسالك، وشديدة البرد في الشتاء، وكان المسلمون يدخلون منها إلى أرض الروم عبر الدروب التي كانت معروفة فيها آنذاك، والتي أهمها: درب الأبواب، وكان يعرف بدرب السلامة، وكان يستخدم طريقة للغزو، وفي الوقت نفسه لأغراض البريد والسفارات المتبادلة^(٣).

وعلى المدخل الجنوبي لدرب الأبواب -أي جهة بلاد المسلمين- كانت تقوم طرسوس، أما في أقصى الطرف الشمالي من هذا الدرج -أي جهة بلاد الروم- فكان يقوم حصن اللؤلؤة، وهو حصن منيع على قمة منعزلة، يبلغ ارتفاعها حوالي ألف قدم، ويتحكم في منطقة واسعة من السهول الممتدة، ومما زاد في أهمية هذا الحصن تحكمه في الممرات الشمالية المؤدية إلى طوانة، وتحكمه في الممرات الغربية المؤدية إلى هرقلة؛ ولذلك فإن من يسيطر على هذا الحصن من المسلمين أو من الروم يجعل مرور الطرف الآخر في هذا الدرج أمراً بالغ الصعوبة، ويعرض للمخاطرة والخسارة في الأموال والأرواح^(٤).

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ص ٣١.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) الطبرى: تاريخ ، ج ٥ ، ص ٦٣٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٩٩

؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن العديم : بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٠١ - ١٠٠ .

وطول درب باب الأبواب من سفح هضبة آسيا الصغرى جنوبى طوانة، حتى سفح جبال طوروس، حوالي سبعة أميال، تخللها الوديان الضيقة، والمرات الشديدة الانحدار، التي قد لا يتجاوز عرض بعضها بضع ياردات أحياناً، ويقوم في موضع منها قلاع وحصون مثل: قلعة الصقالبة، وتستطيع الحامية الصغيرة أن توقف الجيش الكبير العدد^(١).

ويبدو للباحث أن مسلمة عندما يستولى على هذه القلعة وال حصون يحقق أهدافاً عسكرية جزئية مرحلية، تمهد الطريق للهدف العام، وهو إسقاط عاصمة بيزنطة، الهدف المرتجل والحلم المنشود، وفي العام التالي واصل مسلمة تقدمه في أرض الروم يرافقه ابن أخيه عبد العزيز بن الوليد، وفتح الله عليهما حصوناً كثيرة، وغنائم وفيرة، وهرب الروم أمامهم إلى أقصى بلادهم، حتى بلغا خليج القسطنطينية، ومن أهم الحصون حصن سوسة^(٢)، ولقد جلا أهل سوسة إلى جوف بلاد الروم^(٣).

ويتنقل مسلمة بعد حصن سوسة صوب باب الحديد، من ناحية ملطية، ويفتح ما بين الحصن ومالمطية، هذا حسب رواية ابن عساكر^(٤).

وافتتح مسلمة بن عبد الملك حصوناً كثيرة من بلاد الروم منها: حصن الحديد، وغزاله، وماة و كذلك في الوقت نفسه غزا العباس بن الوليد، وكذلك غزا مروان بن الوليد حتى بلغ خنجرة من نواحي بلاد الروم^(٥).

وتميز عام ثلث وتسعين للهجرة بأنه عام الفتوح في مختلف الجبهات، كما سماه الذهبي بقوله: "كانت الفتوح بأرض المغرب والأندلس، وبأرض الروم، وبأرض الهند، ولم يفتح المسلمون منذ خلافة عثمان مثل هذه الفتوح التي جرت

(١) ابن خردانة: المسالك والممالك ، ص ١٠١.

(٢) سوسة، الحديد، غزاله، ماسة، لم يجد الباحث لها تعرضاً في مصادرنا الإسلامية.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ، ص ٣٠٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٢٧٢

؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٨١.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ، ص ٣١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ٨٤.

بعد التسعين شرقاً وغرباً^(٦). وفي العام التالي قام مسلمة بغزو الروم، وتوغل في بلادهم، وفتح الله عليه سندرة^(١) وفي العام نفسه، شهد الموسم، وأقام الحج لل المسلمين^(٢).

ويواصل مسلمة جهاده، ويتقدم نحو مدينة الباب من أرمينيا، ويستولي على مدinetها، ويقوم بهدمها، ثم يعيد بناءها بعد تسع سنين من ذلك^(٣).

ويُتوج مسلمة فتوحه في عهد الوليد، ويستولي على برجمة^(٤) والحسن الذي يعرف بالوضاح، وهو حصن ابن عوف، وفتح كذلك حصن الحديد وشتي بضواحي الروم^(٥).

لقد كانت سوق jihad قائمة في بني أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك، وقد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض وغاربها، فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسيب ويغنم، حتى وصل إلى تخوم الصين، وأرسل إلى ملكه يدعوه فخاف منه، وأرسل له هدايا وتحفًا وأموالًا كثيرة، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده. ومسلمة بن عبد الملك وابن أمير المؤمنين الوليد يفتحون في بلاد الروم، ويواجهون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية، وبني بها مسلمة مسجداً يعبد الله فيه، وامتلأت قلوب الفرنج منهم رعباً، ومحمد بن القاسم بن أخي الحاج، يجاهد في بلاد الهند، ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم، وموسى بن نصیر يجاهد في بلاد المغرب ويفتح مدنها وأقاليمها، في جيوش مصر وغيرها، وكل هذا زمان الوليد^(٦).

(٦) الذهبي: العبر، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(١) سندرة: لم يجد الباحث لها تعريفاً في المصادر الإسلامية.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢٩١ ؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٨ ، ص ٣١ ؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ، ص ٣١٨ ؛ الذهبي: العبر، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق، ج ٨ ، ص ٥٨ ، ص ٣١ .

(٤) بترجمة: حصن من حصون الروم ذكره جرير في شعره، ياقوت معجم البلدان، ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٨ ، ص ٣٢ ؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧ ، ص ١٩ .

(٦) كنان: تاريخ الدولة الأموية خلاصة تاريخ ابن كثير، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

وهكذا في سنوات خلافة الوليد ٩٦ - ٨٦ هـ ، لا تمر سنة إلا ويغزو المسلمين أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم، والجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموي، أو أولاد الخليفة الوليد نفسه، وإخوة مسلمة الذي لا يكاد يختلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم، وهذا أمر له مغزاه، ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر في غزو بلاد الروم كان مقصوداً، ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك المؤدية إلى عاصمة البيزنطيين، الهدف المنشود^(١).

ويُجمل محمد سعد أعمال مسلمة زمن أخيه الوليد في موسوعة التاريخ الهجري، والتي تبدأ عام ٩٦هـ وتنتهي ٩٦هـ بالعديد من الأنشطة العسكرية المختلفة على الجبهات^(٢) ويعلق شاكر على الفتوحات في عصر الوليد بقوله: "وبعد هذه الفتوحات العظيمة توفي الوليد رضي الله عنه أقوى خلفاء الأمويين، وهو الذي عمل على توسيع رقعة الإسلام إلى مدى لم تصله قبلاً أو بعده، بحيث جعل الدولة العربية الإسلامية أشبه بهلال ضخم، رأسه عند جبال البرات والأخر قرب الصين، كذلك أقام المسلمين أفضل عمايرهم وأجملها، وأثبت أن خلفاء الإسلام بناءون يتمتعون بذوق عال"^(٣).

ويرى الباحث، أن الثناء والذكر الحسن الذي تميزت به سيرة الخليفة الوليد بن عبد الملك، بما قام به من أعمال عظيمة، وفتوحات جليلة، ترجع في معظمها إلى ما خطّه مسلمة من انتصارات وفتحات على الجبهات المختلفة وخاصةً على الشمال حيث جبهة الروم.

(١) عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الهجري، ص ٦٥ - ٧١.

(٣) موسوعة الفتوحات الإسلامية، ص ١٨٨.

المبحث الثاني:

- جهاده وفتحه في عهد الخليفة سليمان
- جهاده في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز

جهاد وفتح مسلمة في عهد الخليفة سليمان:

بعد وفاة الوليد تولى أخوه سليمان بن عبد الملك الذي كان من خياربني أمية، وولي الخلافة في (جمادي الآخرة سنة ٩٦هـ - ٧١٤م)، وكان فصيحاً مفوهاً، مؤثراً للعدل يحب الغزو، وكان جميل الوجه، عزل عمال الحجاج، وأخرج من في سجون العراق، وأخذ بنصيحة عمر بن عبد العزيز، وأغزا مسلمة حتى بلغ القسطنطينية^(١).

ويذكر ابن خلّان أن ولادته كانت سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام، وكان الناس يتبركون به، ويسمونه مفتاح الخير، وذلك أنه أذهب عنهم سُنة الحجاج، وأطلق الأسرى وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز، فكان يقال: فتح بخير وختم بخير^(٢).

و حج سنة (٩٧هـ = ٧١٥م)، وقال لعمر بن عبد العزيز لما رأى الناس في الموسم: أما ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ولا يسع رزقهم غيره؟ فقال عمر: يا أمير المؤمنين: اليوم رعيتك وغداً خصماً لك، فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: بالله أستعين^(٣).

ولعل الحديث المهم في خلافة سليمان هو مهاجمة القسطنطينية عام ثمان وتسعين؛ حيث أن العام الذي سبقه كان بمثابة استعداد وتجهيز للحملة الكبيرة، لكن داود بن سليمان غزا الصافة أثناء الاستعداد، وتمكن من فتح حصن المرأة، وكذلك قبل الحملة الموسيعة غزا مسلمة أرض الروم، وفتح الحصن الذي فتحه الوضاح، وأغزا عمر بن هبيرة أرض الروم عبر البحر، وشتّى فيها^(٤).

وأثناء مدة الاستعدادات بين الجانبين توفي الخليفة الوليد، لكن المشروع الإسلامي لفتح القسطنطينية سار قدماً دون أي تغيير، إذ تناه أخوه سليمان،

(١) ابن قتيبة الدنوري: المعارف، ص ٢٠٣.

(٢) وفيات الأعيان، ج ٢ ، ص ٤٢٠.

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٢؛ محمد الكتبى: فوات الوفيات، ج ٢ ، ص ٦٨ ..

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٠٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١١٦ - ١١٧

؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ١ ، ص ٢١٦.

وتضارفت الجهود في مختلف أرجاء الدولة، من مصر والشام وشمال إفريقيا والمناطق الأخرى^(١).

وكانت المشاورات جارية على قدم وساق بشأن الحملة، حيث قدم موسى ابن نصير رأيه حيث كان يضم في دمشق بعد عودته من الأندلس مظفراً، وكان رأي موسى: "أن يسير مسلمة في أرض الروم، ولا يمر بحصن من حصونهم إلا سير إليه عشرة آلاف رجل، وهكذا يمضي حتى يبقي معه نصف جيشه، ويواصل المسير بالنصف المتبقى حتى يقدم القسطنطينية، فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين"، فدعا سليمان مسلمة وأخبره برأي موسى، فلما علم مسلمة بالمشورة كره ذلك، وكان لديه خطة خاصة به للوصول إلى العاصمة البيزنطية^(٢).

في الوقت الذي قدم فيه موسى من المغرب على سليمان، وأنباء الاستعداد لغزو القسطنطينية، إذ جاء الخبر أن الروم قد خرجمت على ساحل حمص، فسبت امرأة وجماجمة، فغضب سليمان وقال: والله لأغزونهم غزوة أفتح بها القسطنطينية أو أموت دون ذلك، فأغزى من أهل الشام والجزيرة والموصل في البر نحو مائة وعشرين ألفاً، وأغزى أهل مصر وإفريقيا في البحر في ألف مركب، وعلى الجميع مسلمة بن عبد الملك^(٣).

وما أحوج أمتنا اليوم إلى قيادة تملك هذه الإرادة القوية، والعزم الذي لا يلين لتحرير أرضها ومقدساتها المغتصبة، والانتصار لحرائر المسلمين الالاتي يُغتصبن على مرأى من العالم اليوم.

وفتح القسطنطينية كان يمثل واحداً من أهم الأهداف الكبرى للخلافة، وقد سعى خلفاء بني أمية للوصول إلى هذا الهدف في زمن معاوية رضي الله عنه، وما شجع الخلفاء والقادة على القيام بهذا العمل الحديث النبوي الشريف، الذي نقلته معظم كتب الحديث الذي يتحدث عن فضل فتح القسطنطينية، وفضل الجيش الذي يفتحها؛ لذلك كان يطمع الخلفاء والقادة في حيازة هذا الفخر والأجر العظيم،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٥ ؛ الكتبى: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٧٠.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة "منسوب" ج ٢ ، ص ٧١.

(٣) الكتبى: فوات الوفيات، ج ٢ ، ص ٧٠.

والحديث ذكره الذهبي^(١) وابن حجر العسقلاني^(٢) وجاء فيه. عن عبد الله بن بشر الغنوسي، عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". قال الراوي: فدعاني مسلمة بن عبد الملك، فسألني، فحدثه بهذا الحديث، فغزا القسطنطينية^(٣).

وذكر الشيباني^(٤) حديثاً نقله أبو بكر، عن يحيى بن إسحاق، عن يحيى بن أبيوب، عن أبي قبيل، عن عبد الله بن عمرو قال: "يُبَيِّنُنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تَفْتَحُ أَوْلَى؟ الْقَسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا بَلْ مَدِينَةُ هَرْقُلْ تَفْتَحُ أَوْلَى"^(٥).

والجدير باللحظة أن مسلمة كان يحرص أن يناله شرف هذا الحديث، فكان يستند إليه في غزوه القسطنطينية، ويأمل أن يتوج فتوحاته بهذا الشرف العظيم.

وينقل عبد المنعم ماجد عن كتاب العيون والحدائق، أن سليمان قد استعد لهذه الحملة استعداداً هائلاً، ولا سيما أنه كان قد حدثه جماعة من العلماء أن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي، ولم يكن في خلفاء بني أمية من اسمه اسم نبي غيره فطمع في ذلك.^(٦)

(١) تاريخ الإسلام، ص ٤٦٩.

(٢) الإصابة في تميز الصحابة، ج ١ ، ص ٣٠٨.

(٣) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج ٤، ص ٤٦٨؛ أحمد بن حنبل: مسنون أحمد، ج ٤، ص ٣٥؛ الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢ ، ص ٣٨.

(٤) الأول، ج ٩، ص ٩٠.

(٥) الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، ج ٤، ص ٤٦٨-٥٥٣-٥٩٨ ؛ الدارمي : سنن الدارمي ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢١٩؛ أحمد بن حنبل: مسنون أحمد، ج ٢، ص ١٧٦ ؛ الداني: السنن الوردة في الفتن، ج ٦ ص ١١٢٧؛ ابن حماد: الفتن، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٦) التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين ، ص ٢٠١.

أملاً في تحقيق هذه الطموحات تحرك الجيش بالفعل، بعد أن استكمل الإعداد، حيث صدرت الأوامر لمسلمة بالتحرك صوب القسطنطينية، وأمره الخليفة سليمان أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بنفسه^(١).

ويتحدث ابن كثير عن هذه الغزوة فيقول : "وجهز مائة وعشرين ألفاً من المقاتلة، وأخرج لهم الأعطيه، وأنفق الأموال الكثيرة، وأعلمهم بغزو القسطنطينية، ثم سار سليمان من بيت المقدس، فدخل دمشق، وقد اجتمعت له العساكر، فأمر عليهم مسلمة، ثم قال سيروا على بركة الله، وعليكم بتقوى الله والصبر والتلاصح والتلاطف، وبقي سليمان في دابق مرابطًا، واجتمع عليه الناس من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله، فاجتمع له جند لم يُر مثله"^(٢).

ويقول ابن الأثير: "وفي هذه السنة ٩٨هـ=٧١٦م" سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق وجهز جيشاً مع أخيه مسلمة، ليسير إلى القسطنطينية، ومات ملك الروم فأتاه أليون من أذربيجان، فأخبره فضمن له فتح الروم، فوجه مسلمة معه فسار إلى القسطنطينية^(٣).

فلما اقترب الجيش من عاصمة الروم أمر مسلمة، كل فارس أن يحمل معه مذبن من طعام على عجز فرسه، ففعلوا فلما وصل الجيش أمر بجمع الطعام فكان أمثال الجبال، وطلب من المسلمين أن لا يأكلوا منه شيئاً، وأن يغيروا في أرض الروم ويزرعوا فيها، وعمل بيوتاً من خشب فشتي بها وصفاف، وبقي الطعام كما هو، والناس يأكلون مما أصابوا من الغارات والزروع، وأقام مسلمة قاهراً للروم معه أعيان الناس، فأرسل الروم إلى مسلمة وعرضوا أن يعطوه عن كل رأس ديناراً فلم يقبل، وعندما قالوا "لأليون" إن صرفت عنا المسلمين ملناك، وأخذ عليهم العهود والمواثيق، ثم أتى مسلمة فقال له: إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩٩؛ الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٤٨.

(٢) البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٠٤.

القتال وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم، فأمر به فأحرق.^(١)

وأضاف ابن الأثير في رواية أخرى أن أليون طلب من مسلمة أن يدخل من الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه أن أمره وأمر مسلمة واحد وأنهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم، فأذن له وكان أليون قد أعد السفن والرجال فنقلوا الطعام ولم يتركوا إلا القليل منه، وأصبح أليون محارباً. وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت لإمرأة لعيبت بها.^(٢)

ويروي ابن كثير قصة أليون، فيقول: "لما رحل مسلمة بالجيوش أخذ معه أليون المرعشى ثم ساروا حتى نزلوا على القسطنطينية فحاصرها إلى أن عرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة، وطلبوه أن يرسل اليهم أليون ليشاوره فأرسله مسلمة إليهم، فقالوا له: رد هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا، فرجع إلى مسلمة وقال: قد أجابوا إلي فتحها غير أنهم لا يفتحونها حتى تتحى عنهم، فقال مسلمة: إني أخش غدرك فحلف له أن يدفع إليه مفاتيحها وما فيها فلما تتحى عنهم أخذوا في ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار وغدر أليون بال المسلمين".^(٣)

وذكر الطبرى: "أن أليون قال لمسلمة ابعث لي رجلاً فبعث عمر بن هبيرة الفزارى ، وقالت البطارقة لإليون أن صرفت عنا مسلمة، مل堪اك، فوثقوا له فأتى مسلمة فقال، قد علم القوم أنك لا تصدقهم القتال وأنك تطاولهم مadam الطعام عندك ولو أحرقت الطعام أعطوا ما بأيديهم فأحرقه".^(٤).

وقد انفرد الطبرى لوحده في موضوع حرق الطعام، بينما بقية المصادر ذكرت رواية أخرى يرى الباحث أنها أقرب إلى المتنق، حيث أن ابن الأثير ذكر، أن أليون طلب من مسلمة أن يدخل من الطعام إلى الروم ما يعيشون به ليلة

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤، ص ٣٠٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٥.

(٤) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٤٨.

واحدة؛ ليصدقاً أن أمره وأمر مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السبى والخروج من بلادهم، فأذن لهم، وكان أليون قد أعد السفن والرجال فنقلوا الطعام^(١).

أما ابن كثير فقال: "أمر أليون بنقل الطعام والعلوفات من الخارج فملأوا وشحنا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة؛ فعلم أنه كان غدر، فأقبل راجعاً، فادرأك شيئاً من الطعام، وأغلقوا الأبواب دونه"^(٢).

أما المقدسي فقال: "تحى مسلمة جانباً إلى بعض القرى القريبة، فقام أليون بنقل الطعام إلى داخل الأسوار"^(٣).

والجدير بالذكر أن الطبرى ذكر روايتين مختلفتين في موضوع الطعام، فقد ذكر في الأولى أن مسلمة أحرق الطعام، وفي الثانية أن أليون طلب من مسلمة "أن يأذن لهم في حمل الطعام، وقد هيا أليون السفن والرجال فأذن له بما بقى في تلك الحظائر ما لا يذكر، حمل في ليلة، وأصبح أليون محارباً"^(٤).

والمؤكد أن كل الروايات أجمعـت على أن مسلمة خـدعاً، وفقد معظم طعام جـنده، وأصبح في حال باسـ، ولـقى الجنـد ما لم يـلقـ جـيشـ، حتى أن الرـجل ليـخـافـ أن يـخـرـجـ من العـسـكـرـ وـحـدـهـ، وأـكـلـواـ الجـلـودـ وـأـصـوـلـ الشـجـرـ، وـالـورـقـ وـكـلـ شـيـءـ غير التـرابـ حـسـبـ الطـبـرـيـ^(٥)

ويؤكـدـ ابنـ الجـوزـيـ أنـ مـسـلـمـةـ كـانـ يـصـطـحـبـ معـهـ فـيـ كـلـ غـزـوـاتـ الرـجـالـ الصـالـحـينـ، وـكـذـلـكـ الـعـلـمـاءـ وـالـفـقـهـاءـ، وـيـقـولـ: "إـنـ اللهـ لـيـنـصـرـ بـهـمـ عـلـىـ الـأـعـدـاءـ"^(٦).

والجـديرـ ذـكـرـهـ أنـ الـجـيـشـ الـإـسـلـامـيـ الـبـرـيـ الضـخمـ تـمـكـنـ منـ فـرـضـ الـحـصـارـ عـلـىـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ، وـإـغـلـاقـ الـمـرـمـاتـ الـمـؤـدـيـةـ إـلـيـهـاـ، وـأـرـادـ مـسـلـمـةـ اـقـتـحـامـ الـمـدـيـنـةـ عـنـوـةـ، فـنـصـبـ عـلـيـهـاـ الـمـجـانـيقـ الـضـخـمـةـ، لـكـنـ مـنـاعـةـ الـأـسـوـارـ، مـنـعـتـهـ مـنـ التـقـدـمـ، لـكـنـ مـسـلـمـةـ لـمـ يـضـعـفـ أـمـامـ كـلـ هـذـهـ

(١) الكامل، ج ٤، ص ٣٠٤.

(٢) البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٥.

(٣) البدء والتاريخ، ج ٦، ص ٤٤؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ٤، ص ١٩٨٩.

(٤) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٤٨ - ٤٩.

(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٩.

(٦) المنظم، ج ٨، ص ١٦٧.

الصعب والتحديات، وواصل بعزمته التي لا تلين، فبني بيوتاً من الخشب، أمضى فيها فصل الشتاء مرابطًا حول المدينة^(١).

ولمدينه القسطنطينية ثلث نواحٍ، ناحيتان منها في البحر، مما يلي القبلة والمشرق والمغرب، والناحية الثالثة مما يلي البر، وفيه باب الذهب، وهي التي تلي الشمال، وطولها من الباب الشرقي إلى الباب الغربي ثمانية وعشرون ميلاً، ولها جدران من حجارة، وبينهما فضاء تسعون ذراعاً، وعرض السور الداخل اثنان عشرة ذراعاً، وسمكه اثنان وسبعون ذراعاً، وعرض السور الخارج ثمانية أذرع، وسمكه اثنان وأربعون ذراعاً، وما بين السورين نهر عمقه اثنان وأربعون ذراعاً، والمدينة لها من الأبواب نحو مئة باب، أكبرها باب الذهب، ولا يوجد منها في الكبر قطر إلا روما^(٢).

أما المقدسي فقد وصف المدينة بأنها في المساحة مثل "البصرة أو أصغر قليلاً، بناؤها حجر، وهي محصنة كسائر البلدان، منيعة، وأبوابها متقابلة وسط الميدان"^(٣).

وعلق حمدي حسين على عزم المسلمين بقوله: "أنهم أولوا بأس وعزم صادق في الجهاد، وأنهم حرريلون على رفع راية الإسلام في كل مكان"^(٤).

وبقيت الأوضاع على الجبهة حول العاصمة البيزنطية على حالها، لكن يميزها العزم والمضاء والتصميم والإرادة التي لا تلين، والثقة التي لا يتسرّب إليها شك في النصر، وعزز موقف مسلمة -بعض الشيء- قدومن أسطول بحري من مصر بقيادة أمير بحري يدعى سفيان، وقدوم أسطول آخر من الشام، ووصلت كذلك نجذات من مناطق أخرى^(٥).

ولما كان آخر أيام سليمان، كتب إلى مسلمة يتشوّقه ويعلمه أنه متوجه إلى نحوه لتجديد العهد به، و إمداده بما يزيد في قوته على حرب الروم، ويأمره بالتوجه نحوه، فلما تهيأ مسلمة لذلك، وسار مراحل متوجها نحو دافق، بلغه موت

(١) اليقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٢٩٩؛ الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٤٨

؛ ابن الجوزي: المنظم، ج ٨، ص ١٦٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٠٥.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٤٨٢-٤٨١.

(٣) أحسن التقاسيم، ج ١ ، ص ١٣٨.

(٤) تاريخ الدولة العربية، ص ٣٤٩.

(٥) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٤٩.

سلیمان بها، فخاف أن ينتقض ما أبرمه من حرب الروم، فعاد مسرعاً يؤم القسطنطينية؛ لينجز مهمته المأموله^(١).

ويقول ابن كثير: "كان سليمان رحمة الله حين خرج من دمشق إلى دابق، عزم على نفسه ألا يرجع إلى دمشق حتى تفتح القسطنطينية أو يموت فمات هناك، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله، فهو إن شاء الله من يرجي له ثوابه إلى يوم القيمة"^(٢).

واعتلی سدة الخلافة أبو حفص عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان في غاية العدل والخير، وكانت ولادته عامين وخمسة أشهر، وكان يسكن بخناصرة من أرض حمص، وقبره موجود فيها ومعروف^(٣).

وبعد تولي الخليفة عمر بن عبد العزيز، بدأت مرحلة جديدة في حياة الدولة الإسلامية في مختلف الجوانب، لا سيما على صعيد السياسة الخارجية، فقد أرسل مباشرة إلى مسلمة، ووجه له كتاباً وهو بأرض الروم يأمره بالقول منها وبمن معه من المسلمين، ووجه له خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحث الناس على معونتهم^(٤).

ومن حيث العلاقات الخارجية، فقد سلك عمر مسلكاً بدعاً لم يسبق إليه، ولم يُلحق فيه، ذلك أنه أغلق جميع الجيوش الإسلامية التي كانت وراء الحدود، أغلق مسلمة بن عبد الملك، وكان مرابطاً حول أسوار القسطنطينية، وأعانته على القول بأموالٍ بعث بها إليه، وكذلك أغلق الجيوش من الأقاليم الشرقية^(٥).

وقد تعددت آراء الكتاب حول غزو القسطنطينية، خاصة حول الغزوة الأخيرة في عهد سليمان، والتي قادها مسلمة، ويرى عبد العزيز عبد الدايم: أن الحملة رغم عدم تحقيق أهدافها إلا أنها تمكنت من إرهاق إمبراطورية الروم، وشن نشاطها الحربي المعادي للدولة الإسلامية،

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٦.

(٢) البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١٨٣ .

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٤) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٦١ ، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣١٥ .
؛ ابن الجوزى: المنظم ، ج ٧، ص ٤٥ .

(٥) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٦١ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٣١٥ .

حيث يحاول بعض الكتاب أن ينسبوا فشل هذه الحملة إلى مسلمة، فهو على حد قولهم، وإن كان شجاعاً إلا أنه كان عاجزاً، ولا رأي له في الحرب، بل لم يكن في أصحابه من له رأي^(١).

ويرى الباحث أن بعض الكتاب الذين وصفوا مسلمة بأنه عاجز ولا رأي له في الحرب، قد جانبهم الصواب مطلقاً، للأسباب الآتية:-

- ١- ليس هؤلاء الكتاب أعرف ب المسلم من والده عبد الملك الذي قال: "يا بنى أخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه، ومجنكم الذي تستجنون به، أصدروا عن رأيه"^(٢).
- ٢- كيف يكون مسلمة عاجزاً و لا رأي له في الحرب وقد وصفه ابن كثير بقوله: "كان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة معازيه، وكثرة فتوحه، وقوة عزيمته، وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه"^(٣).
- ٣- قال عنه الزبير بن بكار: "مسلمة من رجال بنى أمية، وله آثار كثيرة في الحروب، ونكالية في العدو"^(٤).
- ٤- خالف هذا الرأي الكثير من الكتاب المحدثين، منهم عبد الرحمن الباشا الذي قال: "مسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد كبار أمراء بنى أمية وعقلائهم وقادتهم جيوشهم"^(٥).
- ٥- حتى كارل بروكلمان قال في مسلمية: "أثبتت كفافته في معارك آسيا الصغرى"^(٦).
- ٦- أخيراً هل يعقل أن يستمر مسلمية ولمدة حكم أربعه من الخلفاء وهو يجاهد الروم وغيرهم، ولم يكتشف أحد من هؤلاء الخلفاء عجزه وضعف رأيه على مدى ربع قرن من الزمان!!!!!!

أما عبد المنعم ماجد، فيرفض أن يكون مسلمية السبب في الفشل، ويقول: "ولكننا نعتقد أن سبب فشل هذا الحصار هو أن الروم كانوا لا يزالون أقوىاء، وأن العرب

(١) تاريخ الدولة العربية، ص ١٤٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٢٤.

(٣) البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨، ص ٢٨.

(٥) صور من حياة التابعين، ج ١، ص ١٥٢.

(٦) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٥١.

ما كان يضيرهم هذا الانسحاب في شيء، كما حدث في المرة السابقة، إذ أنهم لم يلبثوا حتى عادوا إلى الغزو بنفس الرغبة في قتال الروم ودك حصونهم^(١).

أما سيد أمير علي، فقد أعزى فشل الحملة إلى الخليفة سليمان نفسه، واتهمه بعدم الكفاءة لمنصب الخلافة؛ لأنه لم يرسل نجادات لمسلمة لتعزيز موقفه ومساعدته في إخضاع القسطنطينية^(٢).

ويرى الباحث أن سيد أمير علي لم يكن محقاً في اتهامه لسليمان، ولم يكن كلامه دقيقاً ولا موضوعياً، وذلك لمخالفته للمصادر التاريخية التي أكدت عكس كلامه في الخليفة سليمان. وهي كالتالي:-

- ١ يقول الدينوري عن سليمان: "كان فصيحاً، مفوهاً، مؤثراً للعدل، يحب الغزو أغزى مسلمة حتى بلغ القسطنطينية"^(٣).
- ٢ يقول عنه ابن خلكان: "كان الناس يتبركون به، ويسمونه مفتاح الخير، أحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز، فكان يُقال: فتح بخير وختم بخير"^(٤).
- ٣ جهز أكبر حملة برية وبحرية لمهاجمة القسطنطينية، وأقسم أن يفتحها أو يموت دون ذلك^(٥).
- ٤ من أجل إنجاز هدف الأمة المنشود بقى سليمان: "في دابق مرابطاً، واجتمع عليه الناس من المتقطعة المحتسبين أجورهم على الله، جند لم يُر مثله"^(٦).
- ٥ ثناء ابن كثير عليه، وقوله أنه مات مرابطاً يجري أجره إلى يوم القيمة وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً^(٧).

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، ج ٢ ص ٢٤٩.

(٢) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ص ١٠٨.

(٣) المعارف، ص ٢٠٣.

(٤) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٢٠.

(٥) الكتبى: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٧٠.؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ١٨٣ .

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٥ .

(٧) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٨٣ .

٦ - تمت في عهد الخليفة سليمان فتوحات عظيمة منها جرجان، وطبرستان^(١).
أما من حيث زعم سيد أمير علي بعد إرسال سليمان إمدادات لمسلمة، فهو زعم
باطل لم تؤيده المصادر، والتي أثبتت أن مسلمة وصلته الإمدادات مرتين مرة في عهد
سليمان ومرة في بداية حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز إذ يقول الطبرى: "فأمد سليمان
بمساعدة أو عمر بن قيس في جمع، فمكرت بهم الصقالبة ثم هزمهم الله"^(٢). والمرة الثانية
وكانت في بداية خلافة عمر بن عبد العزيز، إذ يقول الطبرى: "ووجه إليه خيلاً عتاقاً
وطعاماً كثيراً، وحث الناس على معونتهم"^(٣).

وعلى أية حال، لم يجد الباحث فيما اطلع عليه أي رأي يوافقه على هذه القضية،
سواء من المؤرخين القدامى أو المحدثين.

أما سيد عبد العزيز سالم، فلم يتطرق إلى أسباب الفشل بل قال: "يعتبر فشل
ال المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية للمرة الثانية حدثاً من أهم أحداث العصور
الوسطى، وكتب للإمبراطورية البيزنطية البقاء بخروجها ظافرة من محنة الحصار،
وظلت تتحقق بها أمم دول الغرب الأوروبي فترة طويلة"^(٤).

وكانت محاولة مسلمة تلك هي الأخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء
الأمويين، لا سيما في مجال الأعمال الحربية البحرية، وقد أصيب فيها الأسطول
الإسلامي، ولم يتعافى إلا زمن الفاطميين^(٥).

أما طقوش فيرى أن عدم تمكن مسلمة من فتح القسطنطينية، كان بداية
لتغيير موازين القوى لفترة من الزمن في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، وأثر
هذا الفشل كذلك على "الإستراتيجية" العسكرية للMuslimين في مواجهة الإمبراطورية
البيزنطية، فتحولوا من أسلوب الهجوم إلى أسلوب الاشتباكات والمناوشات التي لم
تهدد كيان الدولة البيزنطية^(٦).

(١) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦١.

(٤) تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج ١، ص ٣٦.

(٥) الدقوقى: الجنديه في عهد الدولة الأموية، ص ٢٧٢.

(٦) تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٢.

وقد عزى بعض المؤرخين الفشل إلى استخدام الروم النار الإغريقية، والتي سببت لل المسلمين خسائر فادحة في السفن والأنفس، وهي النار التي مكنت الروم من تمزيق أسطول المسلمين^(١).

ويينقل عبد العزيز سالم عن كتاب "مواقف حاسمة" أسباب الفشل، حيث عزّاها إلى أسوار المدينة المنيعة، وقوة الدفاع البيزنطي، وفاعلية النار اليونانية، التي ردّت المسلمين عن اقتحام العاصمة البيزنطية، ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعذراً محاصرة المدينة، وشدد الضغط عليها، وحفر حول معسكره حفراً عميقاً، وانتسف المزارع القريبة، ومنع الأقوات من التسرب إلى داخلها^(٢).

والنار الإغريقية تقوم على تسخين النفط وقد نفث في ظل ضغط مرتفع من سيفونات خاصة مثبتة في مقدمات السفن، وتتميز النار المقذوفة بسرعة الالتصاق، وهي السر الذي حافظت عليه الإمبراطورية البيزنطية فترة طويلة من الزمن^(٣).

ولكن عبد المنعم الخفاجي يرى أن العوامل الطبيعية التي كانت سائدة، لعبت دوراً في عرقلة نشاط الأسطول الإسلامي، ومنعته من مساعدة قوات مسلمة البرية في حصار العاصمة، وحالت في نفس الوقت من التوجه شمالاً لغلق مضيق البسفور، حيث تغير اتجاه الرياح من جنوبية إلى شمالية، ومنعت من إحكام الحصار حول العاصمة من جهة الشمال، وبقي هذا المنفذ مصدر إمداد تمويني حقيقي للمحاصرين داخل العاصمة، وكان الروم يرتبون خططهم الدفاعية على أساسها، وتزامن مع هذا الظرف العصيب وفاة سليمان^(٤).

وهكذا تباينت أراء الكتاب حول الغزو الأخيرة للقدسية التي غزاها مسلمة، فالبعض عدّها فاشلة ولم تحقق أهدافها، فيما عدّها البعض الآخر أنها حققت الكثير من الأهداف، على الرغم من عدم إنجاز هدفها الكبير بإسقاط عاصمة بيزنطة. وقد عزا البعض هذا الفشل إلى الخدعة التي تعرض لها مسلمة في موضوع الطعام، لكن الباحث يرى أن الحملة لم تفشل وذلك للأسباب الآتية:-

(١) الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١٥.

(٢) تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج ٢، ص ٣٥.

(٣) فرج: بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي والإداري، ص ١٥١.

(٤) معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، ص ٦٨-٦٩.

أولاً: فيما يخص موضوع الطعام الذي ارتكزوا عليه في أقوالهم، فتؤكد المصادر على أن مسلمة تغلب على هذه المشكلة، حيث أنه ومنذ البداية طلب من جيشه ألا يأكلوا من الطعام الذي حملوه معهم شيئاً، وأمرهم أن يغدوا في أرض الروم، ويزرعوا وعمل بيوتاً من خشب، فشتى فيها، وزرع الناس، وأكلوا مما أصابوا من الغارات والزروع، وأقام مسلمة بجوار أسوار القسطنطينية قاهراً لأهلها ومعه وجوه أهل الشام^(١).

وبحسب روایات المصادر يكون مسلمة قد تمكّن من حل مشكلة التموين، بل أفعى سلاح التموين بما قام به من الاعتماد على تحصيل الطعام بما يزرعه في أرض العدو، أو بما يحصل عليه من الغارات داخل أرض العدو، وعليه لم يكن هذا سبباً مقبولاً في نظر الباحث.

ثانياً: رغم المشكلة التي حصلت في موضوع الطعام، وأشارت إليها المصادر، ورغم الشدة التي لحقت بالجيش إلا أنه واصل الحصار على القسطنطينية، وبقي بفنهائهم ثلاثة شهراً^(٢).

ثالثاً: بنى مسلمة مدينة رغمماً عن الروم، ملائقة لأسوار القسطنطينية، سماها مدينة القهر ومساحتها فرسخين، وأقام فيها مسلمة مرابطاً ومحاصرأً للقسطنطينية، وغرس فيها الأشجار والفاكهه، وأقام فيها إقامة قوم لا يفكرون بالرجوع إلى بلادهم مطلقاً^(٣).

رابعاً: أرغم مسلمة ملك الروم "أليون" على أن يبني مسجداً داخل أسوار القسطنطينية، وصفه ابن كثير بأنه: "شديد البناء محاماً، رحب الفناء، شاهقاً في السماء"^(٤).

(١) اليقobi: تاريخ اليقobi، ج ٢، ص ٢٩٩؛ الطبرi: تاريخ، ج ٤، ص ٤٨.

؛ ابن الجوزي: المنظم، ج ٧، ص ٢٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٠٤.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦، ص ٤٤؛ ابن الجوزي: المنظم، ج ٦، ص ٢٦.

(٣) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٢؛ القرمانى: أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، ج ٣، ص ١٩٤.

(٤) البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٧٤.

أما ابن بسام الشنتريني، فقد امتدح هذا المسجد الذي ابنته مسلمة قهراً للروم حيث يقول: "الراية المعلمة، والآية المحكمة، مسجد مسلمة الذي أرغم الروم على بنائه"^(١).

خامساً: قبل انسحاب مسلمة فرض شرطًا مذلة على "أليون" وأرغمه على توقيع اتفاقيات مذلة جداً بحق الروم، دفعوا خلالها الأموال الطائلة لمسلمة، من الذهب، والدرارهم، والدواب، والسنديس، والديجاج، وغيرها من الأموال المختلفة^(٢).

سادساً: لم يكن انسحاب مسلمة إلا طاعة لأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، وفي هذا يقول المرعشبي: "فلم يجد مسلمة بداً من إجابة داعيه، فسار في أرض الروم وفي قلبه ما فيه حتى ورد دمشق"^(٣).

وما أكد المدعشي ذهب إليه ابن أثيم من قبل، حيث يقول: "فلم يجد مسلمة بداً من الانصراف إلى أرض الشام"^(٤). وهنا يؤكّد الباحث أن قرار الخليفة عمر بن عبد العزيز بسحب الجيوش من كافة الجهات وتبنيه سياسة جديدة هي السبب الوحيد في عدم تمكين مسلمة من دخول القسطنطينية، ولعل قصة مسلمة مع "أليون" ملك الروم قبل انسحابه تثبت صحة ما ذهب إليه الباحث كما هو موضح لاحقاً.

ويرى الباحث أن حملة مسلمة حققت أهدافاً واسعة، برغم عجزها عن الاستيلاء على العاصمة البيزنطية أهمها أنها:-

١- جعلت أباطرة الروم يتخلون عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة في استعادة مصر والشام وغيرها من الأراضي التابعة لهم من قبل.

٢- جعلت الروم يدركون أن جيوش الإسلام باتت قوية و تستطيع أن تزلزل إمبراطوريتهم، ونسفها في أي وقت.

(١) الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، ج ٦، ص ٢٢٧.

(٢) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤، ص ٢٢٣ ؛ القرمانى: أخبار الدول، ج ٣، ص ١٩٤ .

(٣) غرر السير، ص ١٥٦ .

(٤) الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٢ .

٣- استطاعت أن تشن القوات البيزنطية وتقلم أظافرها؛ مما مكن بني أمية من تحقيق مشاريعهم الواسعة في بسط رقعة الدولة شرقاً وغرباً.

ويرى طارق منصور، أن حملة مسلمة لم تذهب سدى، وقد صرفت أحداث الحصار الأموي للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال أفريقيا، واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم، وهكذا جنى الأمويون ثمار جهدهم ضد القسطنطينية، حيث جعلوا من شمال أفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة القوية الأوّلاد^(١).

وبناء على ما سبق يرى الباحث أن انسحاب مسلمة -رغم كل الصعاب التي واجهته- كان عن قوة واقتدار، وقصة انسحابه أثناء خلافة عمر تُظهر ذلك وبكل وضوح، هذا من جانب ومن جانب آخر الجيش المنهزم عندما ينسحب يكون محطم المعنويات، أما جيش مسلمة فقد أبدى الجندي من دروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية، وظهر من الجندي عبد الله البطال قائد حرس مسلمة، الذي أُبلِي في هذا الحصار بلاء حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال، وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص، تناولت شجاعته باسم السيد غاري^(٢).

جهاد وفتح مسلمة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز:

بويع عمر بن عبد العزيز، بالخلافة في آخر صفر، سنة "٩٩هـ = ٧١٧م"، وكان والده قد ولَّ مصر، فساسها بالعدل، أما أمه فهي حفيدة عمر بن الخطاب، ويعده أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين، وكان من أبرز صفاتِه: النُّسُك، والتواضع، وحب العدل، والاستقامة، وكان فوق ذلك متقدساً في ملبيه، غير مترف في معيشته، ساوره القلق على أمور المسلمين، وعظمت عليه مسؤولية الخلافة، وكان أول ما بادر إليه بعد تولي الخليفة مباشرة، أن بعث إلى مسلمة ومن معه من المسلمين -وهم بأرض الروم محاصري القسطنطينية- يأمرهم

(١) بيزنطة والعالم الخارجي، ج ١، ص ١١٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٣٢، ٣٣٢.

بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم، وبعث إليهم ب الطعام كثير، وخيول كثيرة، ففرح الناس بذلك^(١).

ومن شدة حرص عمر على المسلمين - لما تولى الخلافة كتب إلى مسلمة بالرجوع هو ومن معه.

وقام بإصدار قرارات عدة سريعة ومستعجلة بعد توليه مباشرة، منها: كتاباً بعزل أسماء بن زيد التتوخي عن خراج مصر، وكان هذا ظلوماً غشوماً، يبالغ في العقوبات، فأمر عمر بحبسه، وكتاباً آخر بعزل يزيد بن أبي مسلم عن ولادة إفريقية، أما الكتاب الأول فكان استقدام مسلمة ومن معه من أرض الروم، فبادر إلى هذا الكتاب وهو عند قبر سليمان حتى قال فيه الناس: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله؟ هذا من حب السلطان، هذا الذي يكره ما دخل فيه؟!! ولم يكن ذلك من عمر إلا أنه حاسب نفسه، ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه، فكتب كتابه بإقالتهم^(٢).

ويرى الباحث أن عمر قام بهذه الإجراءات والقرارات لتحقيق عدة أهداف:-

- ١- الحفاظ على أملاك الدولة الواسعة وضبط الأمن فيها.
- ٢- التفرغ لصلاح المناطق التي فتحت وهو هدف لا يقل أهمية عن الفتح نفسه.
- ٣- محاولة لتغيير سياسة الدعوة من الجهاد والسيف إلى استخدام الحجة والمنطق.
- ٤- يبدو أن أوضاع الجيوش لا تحتمل الاستمرار في الفتوحات، والتي بدأت منذ عهد الوليد.
- ٥- معالجة الأوضاع الداخلية كثرت الخلافات والمعارضين، من شيعة وخارج أو طامعين في المنصب والسلطان.

(١) خليفة بن خياط: تاريخ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج ٤ ، ص ٣١٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ، ص ١٨٤ ؛ عبد الملك العاصمي: سبط النجوم العوالي، ج ٢، ص ٣١٢.

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

ويُعقب حمدي حسين على قرار استدعاء مسلمة بقوله: "لم يكن أمام مسلمة إلا الاستجابة لأوامر الخليفة"^(١).

أما المرعشى فيقول: "فلم يجد مسلمة بدأ من إجابة داعيه فسار في أرض الروم وفي قلبه ما فيه حتى ورد دمشق"^(٢).

ولعل قصة انسحاب مسلمة توضح بجلاء الموقف الذي كان عليه مسلمة وجنوده، والقصة يرويها ابن أعثم الكوفي في الفتوح، وكان سليمان في آخر عهده قد أرسل كتاباً لمسلمة يخبره بأمر يزيد بن المهلب، الذي أطلا من خراسان بفتنة جديدة، وعندما وصل الكتاب، كان مسلمة يقيم في مدينة القيصر التي أقامها رغمًا عن الروم^(٣).

ويصف القرماني مدينة القيصر التي بناها مسلمة، حيث استقدم العمال من الروم من المناطق التي سبق فتحها، وهذه المدينة فرسخين في فرسخين، فأقام فيها مسلمة مرابطًا ومحاصرًا للفلسطينية، وسمى المدينة القيصر؛ لأنَّه قهر الروم عليها، وغرس فيها الأشجار والفاكهه، وأقام فيها إقامة قوم لا يفكرون بالرجوع إلى بلادهم مطلقاً، وكانوا يخرجون من مدینتهم القيصر ويغزون كل يوم، وكان البطل معه مجموعة من الفرسان، يقتل كل يوم من الروم من الخمسين إلى المائة، حتى قتل منهم خلال فترة ستمائة رجل، ولما اشتد الحصار بهم، كتب ملك الروم إلى مسلمة يطلب منه الصلح^(٤).

وكتب ملك الروم "اليون" إلى مسلمة كتاباً جاء فيه: "أما بعد، أيها الأمير: فقد طال هذا الأمر بيننا جداً، ولم أظن أنَّ الأمر يكون لأحدنا، والآن فإنني قد عزمت على مصالحتك، على أن ترحل عن هذه الجزيرة وترجع، ونؤدي إليك في كل سنة ألف ألف درهم، وألف أوقية ذهب، وخمسة آلاف رأس من البقر والغنم

(١) حسين: تاريخ الدولة العربية، ص ٣٥٠.

(٢) المرعشى: غرر السير، ص ١٥٦.

(٣) ابن أعثم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٢.

(٤) القرماني: أخبار الدول وأثوار الأول في التاريخ، ج ٣، ص ١٩٤.

وألف رمكة^(١) بفحولها سوى ما يتبع ذلك من أنواع السندس، والديباج، وأشباه ذلك، وتسالمني وأسالمك، إلى أن ترى رأيك في ذلك والسلام"^(٢).

وكتب مسلمة ردًا على رسالة "أليون" السابقة، يقول: "أما بعد فقد ورد علي كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من الصلح، على أنك تعطيني ما سميتك، وأرحل عنك، غير أنني قد آتيت يمينا لا كفاره لها إنني لا أرحل عن هذه الجزيرة أبداً دون أن أدخل مدینتاك هذه، فإذا دخلتها نظرت بعد ذلك فيما ذكرت، وأنا إن لم أدخلها صبرت عليك أبداً حتى يفتح الله على يدي، فإن وصلت إلى ذلك فذاك الذي أريد، وإن تكون الأخرى وقتلت مت شهيداً مجاهداً، وكان المصير إلى ثواب الله عز وجل، الذي وعد عباده المجاهدين في سبيله، والسلام"^(٣).

في هذه الأثناء ورد كتاب عمر بن عبد العزيز، فلم يجد مسلمة بُداً من الانصراف إلى أرض الشام، ثم نادى مسلمة في الناس أن اركبوا فإني قد عزمت على مناجزة أهل القدسية، فركب الناس ورحفوا نحوها، وعلمت الروم، فخرجت إلى مسلمة في جيش لم يخرجوا بمثله من قبل، ودنا القوم بعضهم من بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من الفريقين جماعة، وولت الروم الأدبار، والسيف يعمل في أفقيتهم، حتى دخلوا مدینتهم، واعتصموا بها، وغنم المسلمون غنائم نقلوها إلى مدینتهم القهـر^(٤).

واستمر مسلمة وجيشه واقفين على باب المدينة سبعة أيام، لا يفتر أحد منهم، ولا يرجع رجلٌ منهم إلى مدینتهم، وهم يومئذ ستون ألف مقاتل، فلما نظر أليون إلى ذلك هاله^(٥).

وجمع أليون أشراف أهل مملكته وبطارقته، حتى أشرف على المسلمين، ثم قال: أيها الناس: أين أميركم مسلمة؟ فإني أريد كلامه مشافهة، فدنا مسلمة حتى

(١) رمكة: الفرس التي تتخذ للنسل وهو معرب والجمع رُمك؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ١٠، ص ٤٢٤.

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٣؛ القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج ٣، ص ١٩٤.

(٣) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) المصدر السابق، ج ٤ ، ص ٢٢٢.

(٥) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج ٣ ، ص ١٩٤.

وقف حذاءه ثم قال: أنا مسلمة، فما الذي تزيد؟ قال بلغني ما كان من يمينك التي حلفت بها أنك لا تقلع حتى تدخل مديني هذه، وقد رضيت ورضيت الروم^(١).

مسلمية قبل الانسحاب:

وهنا تبدأ قصة العزة التي يسجلها مسلمة، والتي يذكر أحداها ابن أعثم، وهي توضح الصورة بكل جلاء، قبل رحيل مسلمة ورجالاته بأمر الخليفة عمر. وعندما قال أليون: رضيت ورضيت الروم بذلك، على أنك لا تدخلها إلا وحدك، ولا يكون معك ثان، ولك الأمان حتى تخرج، قال مسلمة أيضاً: وأنا رضيت بذلك، أن أدخل وحدي على شرط، أنك لا تعلق الباب، وعلى أن يقف البَطَّال بن عمرو على باب المدينة في جميع أصحابي، فإن كان منكم الغدر اقتحم البطل مدينتك فقتل المقاتلة، وسبى النساء والذرية، وأخذ الأموال قال أليون قد رضينا بذلك، ثم أمر أليون بالباب الأعظم ففتح ثم أمر بصف الخيل والرجال، من باب المدينة إلى باب الكنيسة العظمى، مزينة بالرایات والأعلام، وترتبت البطارقة بأحسن ما يقدرون عليه من الزينة، ووقفوا صامتين على طريق مسلمة، ثم أذن أليون بالدخول إلى المدينة، فأقبل مسلمة على البَطَّال بن عمرو، فقال: إني داشر هذه المدينة، وقد علمت أنها دار النصرانية وقصبتها وعزها، وما أريد بدخولها إليها إلا عز الإسلام وإذلال الكفر، ولست أدرى ما يكون من الحدثان، فانظر إذا صلitem العصر ولم أخرج، فاقتحموا المدينة بخيلكم ورجالكم، فاقتلووا واحرقوا، والأمير من بعدي عمي: محمد بن مروان، فاسمعوا له وأطيعوا، ثم كبر مسلمة تكيرة عالية ودخل قسطنطينية وحده، وعليه درع وبيبة، ومن فوق الدرع عمامة بيضاء، وقد تقلد سيفين، وفي يده رمح، وعلى رأسه عنبة بيضاء، وقد رمقه الروم بأبصارها من كل ناحية متعجبين من شجاعته وإقدامه وشدة قلبه، ومسلمة يخترق المدينة كالسهم، لا ينظر إلى أحد، حتى صار إلى باب قصر أليون، فلما نظر أليون وثب قائماً، وقد كان قاعداً على باب قصره... فقام إلى مسلمة فقبل يده، ثم سار معه راجلاً إلى باب الكنيسة، ودخل مسلمة إليها راكباً، واشتد ذلك

(١) ابن أعثم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٣-٢٢٤.

على الروم وجزعوا لذلك جزاً شديداً، وهمّوا بمسلمة ومنعهم أليون من ذلك، ونظر مسلمة إلى صليبيهم الأعظم، والصلب من الذهب المرصع بالجواهر، وقد نصب على كرسي من ذهب فدنا مسلمة منه فاحتله عن الكرسي، ووضعه بين يديه فقال له أليون: أيها الأمير، إن الروم لا ترضي بهذا، وأخاف عليك من الشعب، فرد الصليب إلى موضعه ولأقيمت، فلحف مسلمة أن لا يخرج إلا والصلب معه، وضجت الروم لذلك، فقال لهم أليون: كفوا، إياكم الرجل، ذروه يأخذه، ولكم عليّ مثلك، فإني أخاف عليكم البطل بن عمرو أن يقتحم عليكم، فيقتل رجالكم، ويسبّي نساءكم وذريتكم وأموالكم، ويحرق مدینتكم، فسكت القوم، وخرج مسلمة من الكنيسة، والصلب معه، وملك الروم يسايره، حتى إذا توسط مسلمة المدينة، رفع الصليب منكساً على رأس رمحه، وال القوم سُكوت ما فيهم أحد ينطق بشيء خوفاً من البطل أن يهجم فيمن معه من المسلمين، وخرج مسلمة من المدينة في وقت العصر، والصلب على رأس رمحه، وقد هم البطل وأصحابه أن يقتحموا المدينة في ذلك الوقت، فلما نظروا إلى مسلمة كبروا بأجمعهم تكيبة واحدة، ارتجت لها الأرض، وسار مسلمة بجيشه حتى دخل مدينة القهر^(١).

بات مسلمة ليته بعد هذا المشهد المهيب المثير، فلما كان من الغد كتب مسلمة إلى "أليون"، أما بعد: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَظْفَرَنِي بِكَ، وَأَعْلَانَنِي عَلَيْكَ، وَجَعَلَ جَدَكَ الْأَسْفَلَ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى إِعْزَازِهِ أُولَئِكَهُ وَإِذْلَالِ أَعْدَائِهِ وَقَدْ عَزَّمْتُ عَلَى الرَّحِيلِ عَنْ بَلَادِكَ إِلَى الشَّامِ، فَابْعَثْتُ إِلَى مَا صَالَحتِي عَلَيْهِ، فَإِنِّي رَاحِلٌ عَنْ قَرِيبٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٢)".

وكتب أليون ردًا على رسالة مسلمة: "مِنْ أَلَيُونَ مَلِكِ الرُّومِ، أَمَا بَعْدُ: فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ عَشْرِينَ أَلْفَ دَرْهَمًا، وَخَمْسَةَ آلَافِ رَأْسٍ مِّنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَخَمْسَةَ آلَافِ أُوقِيَّةٍ مِّنَ الْذَّهَبِ، وَآلَافَ رَمَكَةٍ بِفَحْولَهَا، وَبِتَاجٍ مِّنَ الْذَّهَبِ مُرْصَعٍ بِالْجَوَاهِرِ".

(١) ابن أعثم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) المصدر السابق، ج ٤ ، ص ٢٢٥.

لك خاصة دون أصحابك، وأنا أسالك أيها الأمير أن تُفي بما ضمنت ، وترحل عن هذه الجزيرة، وتُقيم حيث شئت من أرض الروم، والسلام"^(١).

بدأ مسلمة تتنفيذ قرار الانسحاب استجابة وطاعة لأمر أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز، حيث كان يرابط أمام أسوار القسطنطينية، ونادى مسلمة بالرحيل صوب الشام، ثم قدمت المراكب لتحمل الجيش لعبور الخليج على البحر، وكتب مسلمة رسالة إلى أليون قبل أن يغادر، جاء فيها: "من مسلمة بن عبد الملك، إلى أليون صاحب الروم، أما بعد: فإني قد أحببت أن أحسن إليك؛ لأنني رأيتك محباً للعافية، وأنا راحل عنك، وقد تركت عندك مسجدي الأعظم، وهو ديني، فانظر لا تقلعن منه حراً، ولا تقص من سقفه خشبة، ولا تكسرن منه عوداً واحداً فما سواه، وإياك أن تعبر هذا الخليج في طببي، أترى إذا أنا عبرت من جزيرتك هذه، فإنك إن تعذيت ما أمرتني به رجعت إليك، ثم لا أُقلع عنك أبداً، أو يهلكك الله على يدي، فاقبل من ذلك ما شئت، أو دع ، والسلام على عباد الله الصالحين"^(٢).

ويرى الباحث أن هذه الرسالة كانت قمة الحرب النفسية والإذلال للروم، وقطعت كل أمل لديهم حتى لمجرد التفكير بـاللـاحـق أي أذى بـمـسلـمة وجـيشـهـ، وهـيـ السلاح الذي أمن عمـلـيةـ الانـسـحـابـ، وجـعلـتـ منـ مـلـكـ الروـمـ نـفـسـهـ وـصـيـاـ وـخـادـمـاـ للـمـسـجـدـ الـذـيـ تـرـكـهـ مـسـلـمـةـ عـنـدـهـ، وـلـعـلـ رـدـ أـلـيـونـ عـلـىـ رسـالـةـ مـسـلـمـةـ: "لـلـأـمـيـرـ مـسـلـمـةـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ مـنـ أـلـيـونـ صـاحـبـ الروـمـ، أـمـاـ بـعـدـ: فـقـدـ فـهـمـتـ كـتـابـكـ وـجـمـيـعـ مـاـ ذـكـرـتـ، وـأـنـاـ لـكـ أـيـهـاـ الـأـمـيـرـ عـلـىـ السـمـعـ وـالـطـاعـةـ، لـاـ أـخـرـجـ عـنـ الطـاعـةـ، وـلـاـ أـتـعـدـ عـنـ أـمـرـكـ، وـأـمـاـ مـسـجـدـكـ أـيـهـاـ الـأـمـيـرـ فإـنـيـ أـحـلـفـ لـكـ بـالـنـصـرـانـيـةـ وـالـإـنـجـيلـ وـالـمـعـوـدـيـةـ إـنـيـ آـمـرـ بـسـدـ بـابـهـ، فـلـاـ يـقـلـعـ مـنـهـ حـرـ، وـلـاـ يـكـسـرـ مـنـهـ عـودـ، وـلـاـ يـدـخـلـهـ أـحـدـ مـنـ الروـمـ أـبـداـ مـاـ دـمـتـ حـيـاـ" ، وأـرـسـلـ هـدـاـيـاـ خـاصـةـ لـمـسـلـمـةـ دـوـنـ أـصـحـابـهـ، فـلـمـاـ وـرـدـ

(١) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق: الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٦-٢٢٧.

الكتاب على مسلمة عمد إلى الهدايا فوزعها على المسلمين، ولم يفضل نفسه عليهم
لا بقليل ولا بكثير^(١).

دعا مسلمة البطل وقال له: مُر الناس بالعبور، فنادى البطل في الناس
بالرحيل، فرحل الناس في المراكب، وساروا في البحر، وتختلف مسلمة في
ثلاثمائة فارس من نجاء عسكره، وسار بهم حتى وقف على باب المدينة، وأرسل
إلى ألفين، ودعاه فأقبل مسرعاً إلى مسلمة، فلما نظر إليه نزل عن دابته، ثم دنا
فقبل يده وقال: أيها الأمير، أئذن لي في تشييعك، فأبى عليه مسلمة، وأمره
بالرجوع، ومضى مسلمة في هؤلاء الفرسان، حتى صار إلى الخليج، وركب في
مركباً أعد له، فعبر ومن معه حتى لحق بأصحابه^(٢).

وأقام مسلمة على شاطئ البحر ستة أيام، ثم رحل ورحل الناس عنه،
وأمر ألفين بخراب مدينة القهر فخرّبت عن آخرها إلا مسجدها فانه لم يمس،
وواصل مسلمة طريق العودة إلى الشام، ونزل مدينة المسيحية من أرض الروم،
وفيها وقع الوباء في المسلمين، فمات منهم خلق كثير من الرجال والنساء
والصبيان، وهم أهل المسيحية بالوثوب على المسلمين لما رأوا من ضعفهم، وبلغ
ذلك مسلمة، فنادى في أصحابه أن ضعوا فيهم السيف، فقتل جماعة من أهل
المسيحية، ثم أمر بخرابها فخرّبت عن آخرها، ووضع سورها بالأرض، ثم صار
مسلمة إلى مدينة أخرى، وادركه الشتاء، وأقام فيها ستة أشهر^(٣).

وبعدها وصل مسلمة انسحابه حتى صار إلى عمورية، فأقام بها أياماً
حتى عزل عماله عن جميع بلاد الروم، ثم سار عن عمورية يقطع البلاد حتى
وصل إلى طرسوس، ثم رحل عنها إلى دمشق في ثلاثين ألفاً من الناس، و كان قد
دخل بلاد الروم في ثمانين ألفاً ولم يدخل دمشق إلا بأمر من عمر بن عبدالعزيز،
وأقبل مسلمة وجشه حتى وقف على باب عمر، ثم استأذن فلم يأذن له، فانصرف
إلى منزله، ثم ركب إليه من الغد فلم يأذن له، وركب إليه في الغد التالي وحده

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

وخلفه غلام له فاستأذن فأذن له، فلما دخل عليه وسلم، وأذن له بالجلوس، قال : يا أمير المؤمنين، أحب أن تخبرني ما ذنبي، إن كنت أذنبت ذنباً فقد أذنب غيري، وإن كنت أخطأ فالخطأ يكون منبني آدم، و الكمال لا يكون إلا الله عز وجل^(١).

فقال له عمر : يا مسلمة إنك ضربت بالناس براً وبحراً، وسهلاً وج بلاً، وقتلت الناس، وبلغت موضعًا لم تؤمر به، وأردت أن يقال غزا مسلمة، وفعل مسلمة، وفتح مسلمة، وأغار مسلمة، فطلبت بذلك الاسم والذكر، فالوليل لمن عمل في الدنيا رباء الناس، وقد قيل، فإن كنت فعلت الله تبارك وتعالى، لا تزيد به الحمد والذكر من الناس، فطوباك، وإن فعلت ما فعلت رباء الناس فقد صار عملك هباء منتبراً، فغفر الله لنا ولنا أبا سعيد، وتجاوز عننا وعنك، فإنه كريم متجاوز^(٢) .

ثم قال عمر : حدثي يا مسلمة عن القسطنطينية، فقال يا أمير المؤمنين : أما بناؤها فقد كنت أرآه بالحجارة والجص خلا كنيستها العظمي، وقصر ملكها أليون، فإنهما جميا من الرخام الأبيض، وأما أسوارها فلهما سبعة أسوار مختلفات الأبواب، وهي أكثر بلاد الله خيراً، وليس لها من خليج البحر إلا طريق واحد. بهذه صفتها يا أمير المؤمنين، ثم قام مسلمة، وانصرف إلى بيته، وجعل يغدو كل يوم إلى عمر يسامره ويحدثه، ثم ينصرف إلى منزله^(٣) .

وبعد أن قام عمر وسحب قواته من أمام أسوار القسطنطينية، ومن المناطق الأخرى، اتبَّع سياسة جديدة في علاقته الخارجية، فقد سلك مسلكاً لم يسبق إليه، ولم يُلْحِق فيه، ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الإسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود، حيث مسلمة في الشمال، وكذلك بقية الجيوش في الأقاليم الشرقية^(٤) وإن كان سليمان يمثل مرحلة الامتداد للفتوحات، غير أن عمر بن عبد العزيز يمثل مرحلة الاستقرار في الفتوحات الإسلامية، وهي أمور اقتضتها

(١) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤، ص ٢٣٠

(٢) ابن أثيم : الفتوح، ج ٤، ص ٢٣٠-٢٣١ ؛ المرعشبي : غرر السير، ص ١٥٧ .

(٣) ابن أثيم : الفتوح، ج ٤، ص ٢٣١ .

(٤) العبادي : صور و بحوث من التاريخ الإسلامي، ص ١٣٨ .

الظروف والأحوال في الدولة، فقد أصبحت الدولة تمتد من حدود الصين شرقاً إلى بلاد الأندلس غرباً، وبحر أرال شمالاً إلى شلالات النيل السفلى جنوباً، وغدت بحاجة إلى شيء من التنظيم، وتأمين الرقعة المفتوحة، والتراث قليلاً في مشاريع الفتح والغزو^(١).

وهذا النشاط العسكري الإسلامي لمدة، لأن الخليفة عمر تفرغ للإصلاحات الداخلية، إذ أنه تبنى سياسة حذرة أقل هجوماً، وجعل التحرّكات التي تجري على الحدود مجرد مناورات محلية، فهو يريد أن تكون تحصيناته على الحدود أقل تعرضاً لضربات الأعداء، مع كونها قوية ومنيعة، ومجمل القول أنه كان يريد أن الحدود لا ينبغي أن تهدد العدو، بقدر ما تمنعه من الوصول إلى الأراضي الإسلامية، وقام بإخلاء المدن الأمامية المواجهة للروم، بداعي المساومة، كما حرص على ترميم وتعمير بعض الحصون مثل : الالاذقية، وقد كان حريصاً على سياسة التسامح، خاصة من له استجابة لذلك^(٢).

ووجه عمر بعض الصوائف مثل : صائفة قيس، الذي أمد مسلمة بالطعام والكساء، وكذلك صائفة عبدالعزيز الباهلي التي أوقعت بالترك، وأسرت خمسين منهم حسب اليعقوبي، ولم يكن لهذه الصوائف أثر يذكر^(٣).

ولم يكن عمر كأسلافه، فعمد إلى إيقاف الحصار، واستدعاء مسلمة وقواته إلى دمشق وترك هذه المهمة لمن يأتي بعده. ففي عهده انكفت حركة الفتح وأصابها الجمود، ولم تكن دوافع ذلك زُهداً في هذا الاتجاه بقدر ما كانت تصحيحاً لابد منه لحماية هذه المكاسب، والدفاع عنها من الأخطار الداخلية والخارجية، وكانت نظرة الخليفة مبنية على قناعات ثابتة بضرورة التوقف، وتسخير طاقات الشعوب المغلوبة في خدمة الدولة^(٤).

(١) الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، نقل عن العدوى، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٥٤٠ ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ١٤٢ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩١ .

(٤) بيضون: تكوين الاتجاهات السياسية في الإسلام من دولة عمر إلى عبد الملك، ص ٢٩٢-٢٩٣ .

ومن أهم القضايا التي شغلت الخليفة عمر قضية الأسرى، حيث أن غزوات مسلمة المتواصلة نتج عنها وجود أسرى بين الطرفين، وهي نتيجة طبيعية لجبهة مفتوحة وحرب متواصلة، وكان مسلمة عندما نزل أرض العدو، شرط على ملك الروم بناء دار بإزاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه من الأشراف من المسلمين إذا أُسروا ليكونوا تحت إشراف ملك الروم مباشرة، فقبل ما طلب منه مسلمة، وبنى دار البلاط^(١).

وفي الروض المعطار أن ملك الروم نفسه يدخل الكنيسة، ويُعرض عليه جميع الأسرى من المسلمين، ويطلب منهم الدعاء للملك، ثم يذهبون إلى سجنهم^(٢).
وجعل عمر فداء الأسرى من أهم الأولويات، لا سيما بعد رحيل مسلمة وجيشة عن القسطنطينية، وذكر الأصفهاني رسالة كتبها عمر بن عبد العزيز إلى الأسرى بقسطنطينية جاء فيها " أما بعد: فإنكم تعودون أنفسكم أسرى ولستم أسرى، معاذ الله، أنتم الحُسَاء في سبيل الله، واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصمت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه، وقد بعثت لكم خمسة دنانير، ولو لا أنني خشيت إن زدتم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتم، وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذركم وإناثكم، حركم ومملوکكم، فأبشروا، ثم أبشروا"^(٣).

والجدير ملاحظته أن قضية الأسرى كانت قضية الدولة بأكملها، فهي المسئولة عن فدائهم بكل السبل، وتبقى رسالة عمر للأسرى تمثل أنموذجًا يحتذى لكل جماعة عاملة مجاهدة؛ لتبقى راية الجهاد مصانة، وأسر المجاهدين غير مهانة.

ويرى عبد المنعم ماجد، أن مسألة الأسرى أظهرت طبيعة عمر الإنسانية، ودللت على امتلاء قلبه بحب البشرية، ودفعته إلى الدخول في مفاوضات مع

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ج ١، ص ١٣٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٨٢.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٩، ص ٣٠٤.

البيزنطيين لفداء الأسرى المسلمين، الذين وقعوا في الحملات التي وجهت لبلاد الروم طوال حكم الخلفاء السابقين^(١).

أما رضا السيد: فيرى أن الدولة البيزنطية راعت مبادئ التعاليم الإسلامية في معاملتها للأسرى المسلمين، ولعل هذه المعاملة التي حظى بها الأسرى تعود إلى ما تمنت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال، وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين^(٢).

ومن جانب آخر، فإن معاملة الأسرى لدى الروم كانت تتأثر سلباً وايجاباً بحسب أحوال الدولة الإسلامية، فإذا كانت الدولة عزيزة عز الأسرى، وإذا كانت ضعيفة ذلوا وساقت أوضاعهم^(٣).

وتحدث ابن كثير، عن موضوع الأسرى بين المسلمين والروم، وكيف كان يتم فدائهم، فيقول: "كانت المُفادة تتم عند نهر قرب طرسوس، ينصب عليه جسران، واحد يؤدي إلى المسلمين، والآخر إلى الروم، فإذا أرسل الروم مسلماً أو مسلمة في جسرهم وانتهى إلى المسلمين كبر وكبار المسلمين، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسدهم فإذا انتهى إليهم؛ تكلم بكلام يشبه التكبر، وقد تستمر عملية التبادل للأسرى أربعة أيام"^(٤).

وهكذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز أهم المنعطفات في التاريخ الأموي، لما تمثله من محاولة رائدة في استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي أفرزتها الفتوحات والعلاقة المتدهورة بين الخلافة وخصومها، ولكنها محاولة رغم أهميتها، لم يُفتح لها الوقت الكافي لإعطاء نتائجها على المدى البعيد^(٥).

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، ج ٢ ، ص ٢٦٨.

(٢) المعارك والأسر بين العرب والروم، ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٤) البداية والنهاية، ج ١٠ ، ص ٣٠٧.

(٥) بيضون: تكوين الاتجاهات السياسية في الإسلام من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص ٢٩٤.

المبحث الثالث

**جهاده في عهد الخليفة يزيد
جهاده في عهد الخليفة هشام**

فتاح مسلمة وجهاده في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك:

توفي الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز سنة (١٠١ هـ = ٧١٩ م)، بدير سمعان، من أرض حمص، وصلى عليه يزيد بن عبد الملك^(١).

وفي اليوم نفسه تولى يزيد الخلافة، بأمر من سليمان بن عبد الملك، حيث كتب سليمان لعمر بن عبد العزيز: "إني قد وليتكم الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطاعوا واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع فيكم"^(٢).

وقد تعرض هذا الخليفة للكثير من النقد حسب بعض المؤرخين^(٣)، وربما كانت هذه الانتقادات في غير موضعها، أو تمت المبالغة فيها، إذ أثبتت عليه ابن كثير، فقال: "إن يزيد كان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخليفة، فلما ولّ عزم على أن يتأنس بعمر بن عبد العزيز، وقد اتهمه بعضهم في الدين وليس بصحيح، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد، أما يزيد نفسه فما كان به بأس"^(٤).

وقد اكتوت خلافة يزيد بن عبد الملك بفتنة من أشد الفتن التي تعرضت لها الدولة الأموية، وهي فتنة يزيد بن المهلب، حيث توقفت الفتوح على أثرها في أرض الروم، واستنفر لها الجندي الشامي، وكلف القائد مسلمة بإخمادها، وكان يزيد بن المهلب قد فر من سجن عمر قبل وفاته، كلف الخليفة الجديد عدي بن أرطأة والي البصرة بالاستعداد والتصدي لزيد بن المهلب، وأن يأخذ من في البصرة من آل المهلب ويضعهم في السجن، لإضعاف نار الفتنة^(٥).

وبعد انتهاء الفتنة، شهدت بلاد الروم غزواً مستمراً في البر والبحر، صيفاً وشتاءً، وظهر مجموعة من القادة في هذا الميدان أشهرهم: مسلمة بن عبد الملك، وعثمان بن حيان المربي، وعبد الرحمن بن سليمان الكلبي، وعبد الله البطال وغيرهم، وفي البحر برز من القادة: عمر بن هبيرة الفزاري، والحكم بن قيس بن

(١) الخليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ج ١، ص ٣٢٢.

(٢) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٥٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢١٢.

(٣) النيسابورى: مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٣٢.

(٥) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٧٥؛ اليافعى: مرآة الجنان، ج ١، ص ١٢.

مخرمة الذي قاد الأسطولين المصري والشامي، وكان الغزو يجري من جهة التغور الجزرية والشامية وضواحي الروم، من جهة البر، وتعرضت بعض حصون الروم للجيوش الإسلامية بلا انقطاع^(١).

وقام الخليفة يزيد بتولية مسلمة إمرة العراقيين، وأمره بمحاربة يزيد بن المهلب الذي خرج واستقل بالدعوة لنفسه، حتى قتله مسلمة^(٢).

وانتدب الخلفاء مسلمة للمهامات الصعبة، حيث أن الوليد كان قد عزل عمه مروان عن أرمينية وأذربيجان، وطلب من ينوب عنه في هذه المنطقة بالغة الصعوبة، فلم يقدم عليه أحد إلا مسلمة بن عبد الملك، الذي قام فيها بكل جدارة، وأثبتت كفاءته في الحروب والإمارة^(٣)، فأحسن القيام بتأمين الجبهة الشرقية لدولة بني أمية، وغزا عامله على خراسان الترك والصَّاغِدْ، ثم عزله عن ولاية العراق، بعدها تصرف في الأموال لاستباب الأمان^(٤).

وبعدما تولى يزيد الخلافة أجرى بعض التعديلات على جهازه الإداري، وعزل أبا بكر بن حزم عن المدينة، وولاحت الضحاك بن قيس الفهري، أما اليمين فأقرّ عليها عروة بن محمد، والبصرة خلع عنها يزيد بن المهلب، أما الكوفة فبقى عليها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، وسجستان ولها القعقاع بن سويد، أما البحرين واليمامنة فردّ عليها إبراهيم بن عربي، وكذلك أرمينية ولها معلق بن صفار، وجاء من بعده الجراح بن عبد الله الحكمي، وكذلك قام يزيد بتعديل جُل الولاة في مصر وأفريقيا^(٥).

ولعل أهم الأحداث في خلافة يزيد؛ ما قام به مسلمة من إخماد فتنة ابن المهلب، وهو ما سيقوم الباحث بتوضيحه في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢١.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٣٢ ؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ١، ص ٢١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٤٣.

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٣٤ ؛ الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٣، ص ٢٧٥.

(٥) خليفة: تاريخ ، ج ١، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

لكن من أهم الأعمال في عهد يزيد، ما قام به الجراح الحكمي، حيث التقى الترك في رمضان عام (١٠٥هـ=٧٢٣م)، ودامت الحرب أياماً ثم نصر الله دينه، وهزم الترك شرّ هزيمة وكان التلاقي بناحية أرمينية، بعد أن كسرت شوكة الترك^(١).

وبعد الغزوة التي قام بها الجراح الحكمي لبلاد الترك، توفي الخليفة يزيد لخمس بقين من شعبان، بأرض البلقاء يوم الجمعة، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين^(٢).

ويرى المحامي أن أهم ما حصل أيام يزيد بن عبد الملك قمعه تمرد يزيد بن المهلب، والذي حاول الاستقلال بملك خراسان^(٣).

جهاد وفتح مسلمة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك:

عندما توفي يزيد، لم يكن هشام موجوداً في دمشق، إنما كان بالرصافة مقيناً، واستخلف في أواخر شهر شعبان (١٠٥هـ=٧٢٣م)، وكان يوم استخلف عمره أربع وثلاثين سنة وأشهرًا، وكان مولده عام اثنين وسبعين، عام قتل مصعب بن الزبير، وأمه عائشة، التي تعود بنسبها إلىبني مخزوم، ويُكنى هشاماً أباً الوليد جاءه البريد بالعصا والخاتم، وسلم عليه بالخلافة، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق^(٤).

وقام بإصلاحات إدارية عدة، حيث غير مجموعة من الولاة في مختلف أرجاء الدولة، وشملت هذه التغييرات أرض الحجاز ومصر والشام وغيرها^(٥).

وواصل سياسة الفتح حيث انطلقت الصوائف والشوافعي تجوب البلاد في حركة شبه مستمرة، وعاد مسلمة ليستلم موقعه المتقدم في هذه الفتوحات المظفرة،

(١) خليفة ، ج ١ ، ص ٣٢٩ - ٣٣١؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٧١

؛ الذهبي: العبر ، ج ١ ، ص ١٢٨؛ الحنبلي: شذرات الذهب ، ج ١ ، ص ١٢٨.

(٢) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ١٠٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢٣١.

(٣) المحامي: تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٦.

(٤) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢٣٣.

(٥) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٤.

ويؤكد اليعقوبي أنَّ هشاماً بعد ولادته استأنف الفتوحات مباشرة، حيث أغزا معاوية بن هشام، فأحرق الزرع والقرى للروم، وكان الروم قد أحرقوا مراعي المسلمين وكذلك أغزا الصائفة اليسرى سعيد بن عبد الملك، وأغزا الجراح بن عبد الله الحكمي اللان^(١).

وفي عملية تخدم سياسة الفتح قام هشام بعزل الجراح بن عبد الله الحكمي عن أذربيجان وأرمينية، وولى أخيه مسلمة بدلاً منه، حيث قام مسلمة في رمضان، وأغزا قيسارية الروم وافتتحها عنوة^(٢).

ويرى الباحث أن تولية مسلمة لمنطقة أذربيجان وأرمينية تأتي في سياق المحافظة على هذه الأقاليم من الأخطار الخارجية أو من أي ثمرد داخلي ربما يحدث، وبالإجمال كانت الولاية لمسلمة تمثل هدفاً منشوداً لحماية هذه التغور العسكرية المهمة.

وفي الوقت الذي كان فيه مسلمة يفتح قيسارية الروم عنوة، كان إبراهيم ابن هشام يفتح حصوناً أخرى من بلاد الروم، مساعدة لعمه مسلمة على الجبهة نفسها^(٤).

وتوجه مسلمة في صائفة جديدة على الجبهة اليمنى، وكان يرافقه عاصم بن يزيد على الجهة اليسرى، وأغزا معاوية بن هشام ومعه البطل على مقدمته، فافتتح خنجرة^(٥)، ثم توجه مسلمة صوب الترك، وكانت له معهم وقعة عظيمة^(٦)، حيث خرج مسلمة إلى بلادهم، وخرج له خاقانهم الأعظم، فزحف إليه مسلمة في جموع عظيمة، وبقيت المعركة نحوً من شهر، وهزم الله خاقان، وكانت في الشتاء، ورجع مسلمة سالماً غانماً، وسلك في رجوعه إلى الشام طريق ذي القرنين، وتسمى هذه الغزوة غزوة الطين، وذلك أنهم سلكوا على مفارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة،

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٢٨.

(٢) بلاد اللان هي آخر حدود أرميني؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٠٦.

(٣) الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ١٣٤.

(٤) ابن الجوزي: المنظم، ج ٧، ص ١٢١.

(٥) خنجرة ناحية من بلاد الروم فيها مياه وفيها في منطقة نملى؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٩٢.

(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٢٩.

وتولّ فيها خلق كثير، فما نجوا حتى قاسوا شدائٍ وأهواً صعباً، وبعد هذه الغزوة، دعا أشرس بن عبدالله السلمي نائب خراسان أهل الذمة بسم رقند إلى الدخول في الإسلام، مقابل أن يضع عنهم الجزية، فأجابوه إلى ذلك، وأسلم غالبيهم^(١).

واشتدت المعارك بين المسلمين والترك، وأخذت منحني تصعيدياً، بعد أن غزا معاوية بن هشام الصائفة، وافتتح عدداً من الحصون من ناحية ملطية، وزاد الأمر سخونة بين الطرفين، عندما غزا الجراح الحكمي ومن معه من أهل الشام أذربيجان، واقتتلوا قبل أن يتكامل جيش الجراح، واستشهد رحمه الله وجماعة معه بمرج أربيل^(٢)، واستولى الترك على أربيل، فلما بلغت هشام هذه الأخبار بعث على الفور سعيد بن عمرو الحرشي بجيش، وأمره بالإسراع إليهم، فلحق الترك وهم يسيرون بأسرى المسلمين نحو ملكهم خاقان، فاستنقذ منهم الأسرى، ومن كان معهم من نساء المسلمين ومن أهل الذمة أيضاً، وقتل من الترك مقتلة عظيمة جداً وأسر منهم خلقاً كثيراً، وأدرك المسلمون ثأرهم، وشفى الله صدورهم^(٣).

ولم يكتف الخليفة هشام بذلك، بل أرسل أخاه مسلمة في أثر الترك، فسار إليهم في برد شديد وشدة عظيم، فوصل إلى باب الأبواب، واستخلف مكانه أميراً، وسار هو ومن معه في طلب الترك وملتهم، ونهض في الوقت نفسه أمير خراسان للعرض نفسه في جيش كثيف، فوصل إلى نهر بلخ، ووجه إليهم سرية من ثمانية عشر ألفاً، وأخرى من عشرة آلاف، وحشدت الترك وجيشها، فكتب أمير سمرقند أنه لا يستطيع صون المدينة، وطلب الغوث، فسار إليه الجنيد مسرعاً في جيش كثيف، حتى وصل إلى شعب بسم رقند، ونهض المسلمين إلى سلاحهم، ودارت معركة حامية الوطيس، قتل من الطرفين فيها خلق كثير^(٤).

وقد بُرِزَ بعض شجعان المسلمين لجماعة من فرسان الترك وقتلوهم، وتداولت الأبطال والفرسان من كل مكان، وصبروا وصابروا وحملوا على الترك حملة رجل

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٥٩؛ الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) أربيل: هي إحدى مدن أذربيجان وكانت قبل الإسلام تعد قصبة الناحية، ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٩، ص ٣٠٣.

(٤) المصدر نفسه : ج ٩، ص ٣٠٣.

واحد، وهزم الله الترك شر هزيمة، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، ثم عطفت الترك على المسلمين وقتلوا منهم أيضاً خلقاً كثيراً، واستشهد في هذه المعركة بعض قادة المسلمين، وعرفت هذه الواقعة بوقعة الشعب^(١).

وبعد هذه الانتصارات العظيمة التي حققها سعيد الحرشي على الترك والخزر، كتب إليه هشام يشكّره، وطلب منه يأمره بالمسير إليه، واستعمل هشام أخيه مسلمة على أرمينية وأذربيجان للمرة الثانية، فنهض إلى قتال الترك في شتاء شديد، حتى جاز البلاد في تعقب آثارهم^(٢).

والجدير ملاحظته أنه بعد كل أزمة تمر فيها الدولة، في أي بقعة من بقاعها الشرقية خاصة، تقوم بتولية مسلمة على ذلك المكان حتى يستقر الأمن، فعندما ظهر ابن المهلب قام يزيد بتولية مسلمة العراق، وعندما ظهر خطر الأترار قام هشام بتوليه مسلمة المرة الأولى، وبعد المعارك الضارية التي قادها سعيد الحرشي مع الأترار؛ قام هشام بتوليه مسلمة على أذربيجان وأرمينية المرة الثانية، ويبدو للباحث أن مسلمة كان يُمثل صمام الأمان والأمان للدولة، ولربما كانت الخلافة تستعمله مستفيدة من سمعته وبلاهه الشديد في العدو، وفي أثناء ولايته لم يجرؤ أحد حتى بمجرد التفكير في الخروج على سلطة الدولة الشرعية.

ولعل الوليد بن يزيد أدرك ذلك، وعبر عنه عندما توفي عمّه مسلمة بقوله: "أفقر الصيد بعد مسلمة لمن رمى"^(٣).

وهذا ما أكدّه الأصفهاني بأن التغّر قد اخْتل بعد موت مسلمة البطل الكَرَّار^(٤). وهذه الروايات تفسّر بكل وضوح السبب الذي كان يدفع الخلفاء إلى إسناد بعض الولايات لمسلمة في أوقات مختلفة.

ويعلق الخضري على ذلك بقوله: "كانت حماية التغور مما يهتم به الخلفاء جدًّا الاهتمام، ويولون أمرها كبار القواد"^(٥).

وبناء على ذلك تولى مسلمة، ثم أعدَّ حملة كبيرة، فالتحقى خاقان الترك، واقتتلاوا قتالاً عظيماً حتى هَزَمَ الله خاقان، وغزا المسلمون وهم ثمانية آلاف، وعليهم مالك بن شبيب الباهلي، فتوغل بهم في أرض الروم، فخشدا لهم، وهُزم المسلمون، واستشهد

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٤٠٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٩٥.

(٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر، ج ٣، ص ٤٦٤.

(٤) الأصفهاني: الأغاني، ج ٧ ص ١٢؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥٨، ص ٤٤.

(٥) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية-الدولة الأموية، ج ١، ص ٣٨٧.

أميرهم مالك بن شبيب، وجماعة معهم، منهم: عبد الوهاب بن بخت، وعبد الله الأنطاكي، أحد شجعان المسلمين وفرسانهم، وكان يعمل في طليعة جيش مسلمة^(١).

منهم عبد الوهاب مولى آل مروان، سكن الشام، ثم تحول إلى المدينة، روى عن ابن عمرو وانس وأبي هريرة، وجماعة من التابعين، وقال الإمام مالك عن عبد الوهاب: "كان كثير الحج والعمرة والغزو، حتى استشهد ولم يكن أحق بما في رحلته من رفائه، وكان سمحاً جواداً"^(٢).

وفي المعركة التي خاضها مسلمة ألقى عبد الوهاب بن بخت بيضته عن رأسه، وصاح بأعلى صوته، أنا عبد الوهاب بن بخت، أَمِنَ الْجَنَّةَ تَقْرُونَ، ثم تقدم في نحر العدو وقاتل حتى قتل^(٣).

وواصل مسلمة فتوحه في بلاد الترك، وفرق الجيوش في بلاد خاقان، ففتحت مدائن وحصون، وأسر وسبى، فحرق خلق كثير من الترك أنفسهم بالنار حتى لا يكونوا أسرى، ودان لمسلمة من في جبال بلنجر^(٤)، وقتل ابن خاقان الترك^(٥).

ومن جانب آخر غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وإخوة سليمان الصائفة اليمنى، والتقي بالبطال وقسطنطين في جمع فهزهم، وأسر قسطنطين، وتغلب سليمان ابن هشام حتى جوف أرض الروم، وفي الوقت نفسه قفل مسلمة بعدما هزم خاقان وبني مدينة الباب، فأحكم البلد هناك، وقام هشام بتولية مروان أرمينية وأذربيجان بدلاً من مسلمة، الذي فيما يبدو - انتهت مهمته على جبهة الترك^(٦).

وبظاهر سمرقند وقعت وقعة مشهورة بين مسلمة والترك، استشهد فيها القائد ، سورة الدارمي، ثم التقاهم جنيد المري، فهزهم بعد شدة، وكان لقاءً مشهوداً للمسلمين^(٧).

(١) الحنبلـي: شذرات الذهب، ج ١، ص ١٤٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٠٤.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ١٤٩.

(٤) بلنجر: مدينة في بلاد الروم شهد فتحها مجموعة من الصحابة منهم زهير البطي، البكري: معجم ما استعجم، ج ١، ص ٢٧٦.

(٥) الطبرـي: تاريخ، ج ٤، ص ١٤٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٠٤.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ١٥٩؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ١٦٧.

(٧) الذهبي: دول الإسلام، ج ١، ص ٧٤.

وبعدما تولى مروان بن محمد بدلاً من مسلمة، طلب من هشام أن يمده بمائة وعشرين ألف مقاتل؛ ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤذبهم بها، فأجابه هشام إلى ذلك، وسَيَّرَ الجنود إليه، فدخل مروان بلاد الخزر، وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها، وملَكَ الخزر ينفض أمامه ذليلاً، فأقام مروان في تلك البلاد أياماً، ودخل بلاد السرير، فأوقع بأهلها، وفتح قلاعاً وحصوناً، وخفَّ الترك خوفاً شديداً، ودانت له جميع البلاد على شاطئ بحر الخزر^(١).

ويعلق وديع عبدالله على ذلك بقوله: "لم يكن الأمويون ليس تطعوا أن يتغلووا هذه المسافة كلها دون تقويض حركة الخزر وتهديدهم، وقد قام بهذا العمل مروان بن محمد الذي وصل عاصمتهم البيضاء، وهكذا تفرغ المسلمون تماماً للجبهة البيزنطية"^(٢).

وكان رد الفعل البيزنطي لمواجهة هذا النشاط المتزايد محدوداً ومع هذا لم ينقطع النشاط العسكري في مناطق الحدود بين الدولتين المتصارعتين، ويُذكر لل الخليفة هشام استمراره في هذا النشاط، ومحاولة إحياء أعمال الجهاد، وانتظام الحملات رغم الأحوال الداخلية للخلافة^(٣).

وبعد مدة تغييرت الأحوال على الجبهة مع الترك، حيث خرج خاقان فاستباح أرمينية، ولما عَلِمَ هشام بذلك ضرب مصرباً وحلف ألا يظل سقف بيته، وأن لا يغسل من جنابه حتى يمن الله عليه بالفتح، وبعث إلى سعيد بن عمرو الحرشي فأنفذه، وجعل لكل جندي علمًا في رمحه، فوصلوا ومع خاقان ثمانية عشر ألفاً من المسلمين أسرى، فكثير المسلمين تكبيرة واحدة، ورأى الأسرى الأعلام فعلموا أنها لل المسلمين، وتناول الأسرى خشباً كان الكفار قد جمعوه وقاتلوا

(١) خليفة: تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ؛ اليعقوبي: تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .
؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٠٦-٤٠٧ ؛ الذهبي: العبر ، ج ١ ، ص ١٤١ .
؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي ، ص ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٣ - ١١٤ .

به حتى أدركتهم خيل المسلمين، وقتل ابن خاقان، واستباح المسلمون عسركهم، وقتل من الترك مقتلة عظيمة^(١).

والجدير ذكره أن مسلمة غزا في السنة التي توفي فيها، حيث افتتح مطامير^(٢)، وكذلك غزا مروان بن محمد بلاد صاحب السرير، ففتح قلاعه، وخرب أرضه، وألزمها جزية يؤديها كل سنة، ستة آلاف رأس^(٣).

ويذكر خليفة أن مسلمة غزا في السنة التي مات فيها على الصائفة، حتى بلغ ملطية^(٤)، ولم يكن بإفريقية وقتها غزو^(٥).

وقد حدثت -أثناء غزو المسلمين للترك- بطولات سطّرها التاريخ، يجدر بالباحث أن يذكر بعضًا منها:

أ- الغزوة التي قادها سعيد الحرشي، عندما اعتدى خاقان ملك الترك على أرمينية، وقتل الجراح الحكمي عامل هشام عليها، وغضبت نكايته في المسلمين، فأبعث هشام إليه سعيد الحرشي، وكان مسلمة صاحب الجيش، فأوقع سعيد بخاقان الترك نفسه، واجتر رأسه، وبعث به إلى هشام، فعظم أثره في قلوب المسلمين، وفخم أمره حتى ضرب به المثل كأنه جاء "برأس خاقان"^(٦).

ب- أثناء فتح بلنجر، عندما تعسر الفتح عليهم، خرج رجل من المسلمين فقال: من يشرى الله نفسه، فأجابته جماعة بلغت عدتهم حوالي ثلاثين رجلاً، فكسروا جفون سيوفهم، وشدّوا على عسكر العدو، فأجلوه عن موقعه، وكان العدو يربط حول معسكره ثلاثمائة عجلة موصولة بعضها ببعض، حماية للعسكر، وأنباء هجوم المسلمين، انحدرت جميعها إلى معسكر المسلمين، وتمكن هؤلاء

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ١٩٣.

(٢) مطامير: بلد تتبع للشغور الشامية، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٨.

(٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠٧.

(٤) ملطية: بلدة من بلاد الروم تتاخم بلاد الشام، ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٩٢.
الإصطخري: المسالك والممالك ، ص ٥٣.

(٥) تاريخ خليفة: ج ١، ص ٢٢٨.

(٦) النيسابوري: مجمع الأمثال، ج ١، ص ١١٦.

مسلمٌ قد فعلنا ذلك بك، فغاب بعد ذلك فلم يُرُّ، وكان مسلمةً بعد ذلك يقول في دُبر كل صلاتِه: اللهم اجعلني مع صاحب النقب^(١).

ونقل الجنابي عن كتاب تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول أن هشام كان شديد الثقة ب المسلم شأن بقية الخلفاء الذين سبقوه، وكان لا يقبل في حرسه الخاص إلا من حفظ القرآن، ولم يكن يسمح لغير أخيه مسلمٍ بالسير في موكبه الذي يحف به أربعينَ مائةً من رجال الحرس^(٢).

وهكذا سطَر مسلمٌ أنصع الصفحات زمان أخيه هشام، الذي استأنف حربه ضد الروم بمجرد توليِّه الخلافة، إذ لم تقطع الصوائف والشوأني طوال مدة حكمه الذي استمر نحو عشرين عاماً من بلاد الروم، خط خلالها مسلمٌ أنصع صفحات الفتح في عهد الدولة الأموية. وقد قضاها صابراً محتسباً أجره على الله.

(١) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣ ، ص ٢٦٤ .

(٢) تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص ١٤١ .

الفصل الثالث

الفتن التي شارك مسلمة بن عبد الملك في إخمادها

- * المبحث الأول: دور مسلمة في إخماد الجراجمة.
- * المبحث الثاني: دور مسلمة في إخماد فتنة "شوذب" الخارجي
- * المبحث الثالث: دور مسلمة في إخماد فتنة يزيد بن المهلب

المبحث الأول:

دور مسلمة في إخماد الجرائم

دور مسلمة في إخماد فتنة الجراجمة:

بعد الحديث في الفصل الثاني عن فتوح مسلمة وجهاده في عهد مجموعة من الخلفاء، يجدر بالباحث أن يتناول دوره في إخماد بعض الفتن والمشاكل التي واجهت الدولة الأموية، في الوقت الذي ظهر فيه مسلمة كأحد أبرز وأهم قادة الدولة، ومن هذه المشاكل مشكلة الجراجمة.

والجراجمة ينتسبون إلى مدينة تُعرف بالجرجومة، تقع على جبل اللِّكَام، بالشَّغْر الشَّامي قريباً من أنطاكيا، وقد ظهر أمر الجراجمة منذ الفتح الإسلامي، وخاف الجراجمة على أنفسهم بعد هزيمة الروم، وكلَّف أبو عبيدة حبيب بن مسلمة الفهري، فغزا الجرجومة، وصالحه أهلها على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، ومسالح في جبل اللِّكَام^(١)، المشهور في الشام^(٢).

وهو ينقسم إلى قسمين، أحدهما بيت لاهَا الشَّرقي، والآخر بيت لاهَا الغربي، ومعناه بالسريانية بيت الله، وجميعها من جبل سمعان^(٣).

يصفه ابن العديم فيقول: هو "جبل عالٍ مشرف، يظهر عن مسيرة أربعة أيام، ولا يزال به الثلوج في الشتاء والصيف، وهو مسكن العباد والزَّهاد، وفيه من الفواكه المباحة ما يقتاتون به، وهو يفصل بين الشعور الشامية والجزرية، والجبل من شدة ارتفاعه يُتخذ دليلاً للقبلة، وهو جبل ممدود، ابتدأه من مكة والمدينة، ويسمى هنالك العرج، ويمتد طولاً حتى يتصل بالشام، ويسير من جبال حمص فيسمى هنالك لبنان، وينتهي من دمشق، ثم يمضي حتى يقترب من جبال ملطية، ثم يمتد طولاً إلى منطقة الخزر، ويسمى هنالك القَبَق^(٤)".

ويذكر الإدريسي أنه: "ليس بمعمر الأرض أطول منه، حيث يبتداً من بحر القلزم ويمتد إلى نواحي الشام، ويسمى هنالك لبنان، وينتهي إلى حمص ويجاورها،

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) البكري: معجم ما استجم، ج ٤ ، ص ١١٦٢ ، الرازى: مختار الصحاح، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(٣) بغية الطلب، ج ١ ، ص ٤٢٠ .

(٤) المصدر السابق: ج ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

ثم إلى اللاذقية، ويسمى هناك **اللُّكَام**، ويمتد حتى مرعش والهارونية^(١)، ويسمى هناك السلسلة، ثم ينقسم، فتمر منه شعبة مع المشرق إلى حصن منصور، ويمتد حتى منطقة الأبواب^(٢).

"ويختلف اسم **اللُّكَام** من منطقة إلى أخرى، لكنها سلسلة متصلة، وتمتد من منطقة في الأبواب شرقاً إلى حدود أرمينية، ويسمى في تلك المنطقة بالقبق، وذكر ابن الفقيه أن فيه اثنين وسبعين لساناً، ولا يعرف كل إنسان لغة صاحبه إلا بترجمان، ويقال إن طوله خمسة فرسخ^(٣)، وهو متصل ببلاد الروم إلى حد الخزر، ويتصل بجبل العرج الواقع بين مكة والمدينة، ويمتد إلى الشام حتى يتصل بلبنان من أرض حمص، ويمضي إلى جبال أنطاكيا، ويسمى هناك **اللُّكَام**، ثم يمتد إلى ملطية"^(٤).

لكن المنطقة المقصودة باللُّكَام تمتد نحو ثلاثين فرسخاً، وعرضها نحو ثلاثة فراسخ، وفيه حصون وقرى واسعة^(٥).

وأول من قطع **اللُّكَام**، وسار إلى المصيصة مالك بن الحارث الأشتر النخعي، من قبل أبي عبيدة بن الجراح، والمنطقة بها حصن صغير، بناه عبدالله بن عبد الملك.^(٦)

(١) الهارونية: مدينة صغيرة قرب مرعش بالشغور الشامية استحدثها هارون الرشيد فيما بعد، ياقوت: معجم البلدان، ج ٥ ، ص ٣٣٨ ؛ الإصطخري: المسالك والممالك ، ص ٤٧.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١ ، ص ٣٥٣.

(٣) الفرسخ، مسافة من الأرض تعدل ثلاثة أميال؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١١ ، ص ٦٣٩.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٣٠٦.

(٥) المصدر السابق: ج ١ ، ص ٢٣٩.

(٦) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ١٥٦.

ونذكر ابن خلدون أن اللُّكَام منطقة حصينة من بلاد الشام، وفيها حصون للإسماعيلية^(١)، وهي قبلة أنططروس، ويمتد إلى الشمال من حمص^(٢).

والجدير ذكره أن منطقة اللُّكَام حصينة جداً، وهي المنطقة التي تم التعرض فيها لرسول هشام بن عبد الملك عند العقبة البيضاء، فقام بعمل مسلحة المسلمين فيها، ورتب الجند، وجعل جماعة من الجراجمة تساندهم^(٣).

وقد شكل الجراجمة قلماً للدولة الإسلامية منذ زمن مبكر فعندما قدم أبو عبيدة إلى أنطاكيا وفتحها لزموا مدينتهم وهموا للحاق بالروم، ثم أن أهل أنطاكيا نقضوا عهدهم وغدروا، فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، فولها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري، فغزا الجرجومة فلم يقاتلها أهلها، ولكنهم بادروا لطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللُّكَام، وألا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم^(٤).

ولما كانت الحرب بين ابن الزبير ومرwan بن الحكم، وكذلك عندما وقعت الحرب بين عبد الملك ومصعب بن الزبير، خرجت خيل للروم إلى جبل اللُّكَام، وعليها قائد من قوادهم، ثم توجهت إلى لبنان، وقامت جماعة كبيرة من الجراجمة والعبيد والأنباط بالانضمام إليهم ومحاجمة المسلمين والتخريب عليهم^(٥).

فاضطر عبد الملك إلى مصالحتهم على ألف دينار يؤديها إليهم كل جمعة، وكذلك قام بمصالحة ملك الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته، وتخوفه

(١) الإسماعيلية، جماعة باطنية تسكن مجموعة حصون من أرض الشام وتحد العراق، ويعرفون بالفدوية ولا يدخل مناطقهم أحد، وكان الحكام والسلطانين يستخدمونهم للتخلص من أعدائهم.

؛ أبو شامة: الروضتين في إخبار الدولتين، ج٤ ، ص٢٩٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الظاهرة، ج٦ ، ص٢٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ج١ ، ص٦٨.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ، ص٢٢١؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج١ ، ص٢٢٨.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب، ج١ ، ص٢٣١.

(٥) المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٣٢.

أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه، واقتدى عبد الملك في صلحه لهم بمعاوية حين شُغل بحرب أهل العراق، فإنه صالحهم على أن يؤدي لهم مالاً^(١).

ويرى الباحث أن الجراجمة أصبحوا يشكلون خطراً على الدولة في بداية عهد عبد الملك، وأضافوا طعنة جديدة إلى خاصرة الدولة الأموية لا سيما اثناء الفتنة، حتى لم يكن بدأً لعبد الملك من مصالحتهم، ودفع الأموال إليهم، وكان هؤلاء الجراجمة -أو المردة- يدينون بالنصرانية، ويقومون على خدمة مصالح الدولة البيزنطية، كانوا يمدون الروم من معاقلهم في جبال طوروس واللّكam بالرجال والجنود غير النظاميين، وبذلك أصبح هؤلاء الجراجمة شوكة في جنب العرب، إذ كانوا يساندون الروم ضدهم، كما كانوا يثيرون الفتنة الداخلية في بلاد الشام.

وعندما اشتد أذى الجراجمة في بلاد الشام؛ وجه عبد الملك إليهم "سحيم" بن المهاجر في عملية عسكرية نوعية تشبه عمل الوحدات الخاصة في الجيوش والتي يُنطّ بها المهام الصعبة، فخرج "سحيم" ومجموعة من أشد رجالاته بأساً، وتتكرّر بملابسهم وهيئتهم حتى كأنه واحد منهم، وتلطف بقائد الجراجمة وأظهر له الولاء، وتقرب إليه بذم عبد الملك وشتمه وتوهين أمره، حتى صدّقه واغتر به، إلى أن تمكن سحيم ورجالاته من قتل قائد الجراجمة و التخلص منه^(٢).

أما ابن العديم فيروي تفاصيل العملية الخاصة التي نفذها سحيم بن المهاجر ضد قائد الجراجمة "فقط"، ويدرك أن سحيم تتكرّر بملابسهم على هيئه شخص يعرفونه عندهم، وصنع ما يصنعه النصارى عند دخول كنائسهم، ثم جلس إلى قائد الجراجمة، فقال له: من أنت؟ فانتهى إلى الرجل الذي يتشبه به، فصدقه وقال له: إنما جئتكم لما بلغني من جهاز سحيم، وما أجمع به من الخروج إليك لأخبرك به، وأكفيك أمره إن أتاك، ثم تناول من طعامهم، ثم قال لقائدهم "فقط" وأصحابه: إنكم لم تأتوا هنا للطعام والشراب، ثم قال "فقط": أبعث معك عشرة من هؤلاء من أهل النجدة والباس، حتى نحرسك الليلة، فإني لست آمناً أن يأتيك ليلاً، فبعث معه

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٦٥ .

عشرة، وأمرهم بطاعته، وخرج بهم إلى أقصى القرية، وقام بهم على الطريق الذي يتخوفون أن يدخل منه سحيم - وهم لا يعلمون أن الذي يقودهم سحيم نفسه - فأقام حارساً منهم، وأمر أصحابه فناموا، وأمر الحارس إذا هو أراد النوم أن يواظب حارساً منهم وبينما هو، وحرس الأول ثم أقام الثاني، ثم قام سحيم الثالث فقال أنا أحرس لكم فناموا، فلما استقل نومهم قتلهم بذبابة سيفه رجلاً رجلاً، ثم خرج إلى أصحابه العشرين ف جاء بهم، ووضعوا سيفهم فيمن بقي من الحراس، وخرجوا حتى أتوا إلى سفن كانت تنتظرهم بوجه البحر فركبوها، ولحقوا بأرض الروم تضليلاً للجراجمة^(١).

ويرى الباحث أن ما قام به سحيم بن المهاجر ووحدته الخاصة يبقى درساً أمنياً وعسكرياً يستلهم عبر التاريخ الإسلامي، حيث تمكنت مجموعة صغيرة من توجيهه ضربة قوية للجراجمة، أضعفتهم ردحاً طويلاً من الزمن.

ومن المؤكد أن الجراجمة - أو المردة - كانوا - في بداياتهم - على الفطرة، لا يعرفون من ألوان الحياة إلا الغزو وال الحرب، وما خلف ذلك من مال وغائم، الأمر الذي حمل بعض مؤرخي النصرانية على انتقادهم والنقد عليهم، لتأييدهم الإسلام أحياناً في حروبهم ضد الإمبراطورية البيزنطية، ولم يخلص الجراجمة للمسلمين كل الإخلاص، وقد كانوا يساعدونهم حيناً، وينقضون عليهم حيناً آخر، متساوين مع بيزنطة في سياستها الملتوية المضطربة^(٢).

وقد وصف فروخ الجراجمة بالسور النحاسي الذي استخدمه الروم لفصل حدودهم عن حدود خصومهم من العرب والمسلمين^(٣).

وقد أحدث الجراجمة قلقاً للدولة الأموية، حيث كانوا يقطعون طريق الصوائف على المتأخرین من الجيش، حتى قامت الدولة بعمل مسالح على الطريق، وأخرجت جيشاً خاصاً ليصد الجراجمة، فسموا الروادف^(٤).

(١) بغية الطلب، ج ٩ ، ص ٤١٨٩ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٩٠-٨٩.

(٢) خفاجي، شرف: معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٦.

(٣) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص ١٤٧.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

و استخدم ملك الروم الجراجمة عندما لم يتمكن من مهاجمة مدن الساحل، فكاتب الجراجمة والأبطاط بجبل اللُّكام، فخرجوا وعسكروا بالجبل، وكان المسلمين بالساحل لا يقدر الواحد منهم الخروج إلا بالسلاح، وقد غالب الجراجمة على الجبال كلها، من لبنان وجبل الثلوج وجبل الجولان، وجعلوا لهم مسالح وحصون تهدد تحرك المسلمين في المنطقة^(١).

وهكذا كان الجراجمة يستقيمون للولاية مرة ويعودون أخرى، فيكتبون الروم ويمدونهم^(٢).

ونذكر ابن الأثير أن الجراجمة كانوا يقاتلون كمرتزقة هدفهم الحصول على الأموال والطعام، وقد أمر عبد الملك المنادي فنادى في الجراجمة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت اسمه في الديوان، فانضم إليه الكثير منهم، ثم قتل المخالفين. ونادى بالأمان للموالين فيمن بقي منهم، وتفرقوا في قراهم^(٣).

وهكذا لم يكن للجراجمة وجهة محددة إلا مصلحتهم، ومن جانب آخر - استعان المسلمون بالجراجمة في مواطن كثيرة في أيامبني أمية وبني العباس، فيما بعد، وأجرى المسلمون عليهم الأموال، وعرفوا منهم المناصحة أحياناً^(٤).

ومن أمثلة ذلك: ميمون الجرماني، وهو رجل شجاع، كان على رأس مجموعة من الجنд بأنطاكيا، فغزا مع مسلمة بن عبد الملك على الطوانة، وهو على ألف من أهل أنطاكيا، فاستشهد بعد بلاء حسن و موقف مشهود، فأغزا بنو أمية الروم جيشاً عظيماً طلباً بثاره^(٥).

ويرى الدكتور خفاجي، أن بيزنطة أحسن استخدام الجراجمة، وذلك عندما هاجم المسلمون القسطنطينية براً وبحراً، فقد ألبت بيزنطة الجراجمة على العرب،

(١) ابن العديم: بغية الطلب، ج ٩ ، ص ٤١٨٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ، ص ٢٣١.

(٣) الكامل، ج ٤ ، ص ٩٠ - ٩١.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ١٢٣.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ، ص ١٦٥؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ١ ، ص ٢٣٢.

ودفعتهم إلى غزو الحدود الإسلامية، بحيث تشغل العرب ولو قليلاً عنها، وتتمكن من تعزيز سلاحها، وترتيب أمورها، وقد تمكن الإمبراطور البيزنطي من كسب عطف الجراجمة، فاستمالهم إليه بشتى الوعود، كما أدمهم بعض الفرق البيزنطية، وأمرهم بمهاجمة السواحل الإسلامية، فصدعوا بالأمر، وتمكنوا من الوصول إلى جبال لبنان، بعد أن اقتحموا أكثر سواحل سوريا من جبال طوروس حتى فلسطين^(١).

وحلّة عدم الاستقرار هذه دفعت بالوليد -عندما تولى الخلافة- إلى أن يكون له موقف حاسم تجاه الجراجمة، ينهي به حالة الفوضى والإخلال بالأمن، والتي استمرت عشرات السنين.

يذكر البلاذري أن الوليد قام في عام (٦٦٨هـ=٧٤٩م) بإعداد حملة كبيرة يقودها أخيه مسلمة، و كان الجراجمة قد اجتمعوا في مدينتهم، وحالفهم الروم، وتوجه إليهم مسلمة في خلق كثير فأناخ عليهم، وهاجم عاصمتهم "الجرجومة" فافتتحها بالقوة^(٢).

وقام مسلمة بتخريب مدينتهم "الجرجومة"، وفرقهم وأنزلتهم مواضع مختلفة، وسار بعضهم إلى حمص، ونزل بطريق "الجرجومة" في جماعة معه بأنطاكيا، ثم هرب إلى بلاد الروم، وألزم الجراجمة بدفع الجزية على رؤوسهم، وبقي ذلك سارياً عليهم إلى عهد الخليفة الواقف العابسي^(٣).

ومن بقي من الجراجمة نزل حيث أحب من الشام، وأجرت الدولة على كل أمرئ منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالهم القوت من القمح والزيت، واشترطوا إلا يُكره أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية، وعلى أن يلبسو لباس المسلمين، وعلى أن يغزوا مع المسلمين، وينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة، والتزم تجارهم وموسروهم أن يؤخذ من أموالهم ما يؤخذ من أموال المسلمين^(٤).

(١) خاجي، شرف: معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٦٥؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٤) المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٦٥ .

ويعلق الدكتور الخفاجي على ما قام به مسلمة ضد الجراجمة قائلاً: "استطاع الوليد بن عبد الملك أن يقضي نهائياً على خطر المردة، إذ هاجم مسلمة ابن عبد الملك الجراجمة في عقر دارهم، ودمر عاصمتهم جرجومة، فمات بعضهم، وهاجر البعض الآخر إلى الأناضول، وانضمت جماعة منهم إلى جيش الشام، وقاتلوا تحت لواء الإسلام، وساهموا في عهد يزيد بن عبد الملك في إخضاع الفتنة التي نشبت في العراق"^(١).

وقد وافقت الدكتورة كاشف الخفاجي رأيه على أن الوليد صاحب الفضل في التخلص نهائياً من الجراجمة بالحملة التي قادها أخوه مسلمة ضدهم^(٢).

أما الدكتور محمد الأسود فيقول: "كان الفضل -أخيراً- في تشتت شملهم وبعثرتهم لمسلمية، الذي هاجمهم في عقر دارهم، ودمر عاصمتهم جرجومة، وفرّ من فرّ منهم بين قتيل أو مهاجر إلى بلاد الأناضول، أو منضم إلى الجيش الإسلامي يقاتل تحت لواءه، ويساهم في المهام التي تسند إليه"^(٣).

وبهذا العمل الذي قام به مسلمة؛ تخلصت الدولة من مشكلة كبيرة، وأصبحت تخرج الصوائف تغزو وتتعود آمنة، لا يقطع الجراجمة الطريق على المختلف واللاحق أو من قدروا عليه في أواخر العصر، ولم تعد الدولة بحاجة إلى الروادف كما كانت تفعل سابقاً^(٤).

ومن خلال ما سبق يرى الباحث أن الجراجمة لم يكونوا يشكلون خطراً مركزياً على كيان الدولة، بقدر ما كانوا هاجساً وقلقاً مستمراً، ومثاراً للفتن بشكل شبه دائم، فكان من الواجب على الدولة أن تضمد هذا الجرح النازف، فسجل التاريخ لمسلمية هذا الفضل، وخلص الدولة من هذا العباء الذي طالما شكل قلقاً مستمراً منذ بداية الفتوح.

(١) معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٨.

(٢) أعلام العرب، الوليد بن عبد الملك، ص ١٦٨.

(٣) شوامخ وأعلام الإسلام، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٦٦.

المبحث الثاني

دور مسلمة في إخماد فتنة "شونذب" الخارجي:

دور مسلمة في إخماد فتنة "شوب" الخارجي:

لقد عانت الدولة الأموية الأمرّين من الخوارج منذ نشأتها، وهي الجماعة التي كانت نسيجاً وحدها، من حيث نشأتها الغريبة العجيبة، وتاريخها الملحمي المثير، هؤلاء الناس الذين لم يترددوا في الجهر بالقول: "حن الإسلام، والإسلام نحن"، وامتشقوا السيف طوال عصربني أمية وهم يهتفون: "لا حكم إلا لله"^(١).

والحديث عن الخوارج يستوجب العودة إلى عهود الإسلام التي سبقت، ورافقت الصراع السياسي والعسكري بين علي ومعاوية رضي الله عنهم، وذلك سعياً وراء الكشف عن العوامل المحيطة الفاعلة التي مهدت لظهورهم القوى المفاجئ، وأعانت عليه؛ لأنّه لا يعقل أن تنشأ فرقـة بهذا الحجم الكبير، دون أن يسبق ذلك تنظيم دقيق وتنظيم محكم، كما لابد لهؤلاء الناس من مبادئ يلتـقـونـ حولـهاـ، أوـ مصالـحـ مشـترـكةـ يـضـحـونـ منـ أـجـلـهـاـ، استـهـوتـهـمـ فـيـ بـادـئـ الـأـمـرـ، فـجـمـعـتـهـمـ عـلـىـ صـعـيدـ وـاحـدـ لـتـحـقـيقـهـاـ، ولـمـ تـبـاـيـنـتـ أـهـدـافـ قـادـتـهـمـ، وـتـشـعـبـتـ اـجـتـهـادـاتـ زـعـمـائـهـمـ، أـخـذـواـ يـنـقـسـمـونـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ، وـيـكـفـرـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاـ لـأـنـهـ الأـسـبـابـ^(٢).

ولقد تضافرت العـدـيدـ منـ العـوـاـمـلـ فيـ ظـهـورـ هـذـهـ الفـرـقـةـ منهاـ: العـصـبـيةـ القـبـلـيـةـ وـأـثـرـهـاـ فيـ نـشـأـةـ الـخـوـارـجـ التـيـ لاـ يـمـكـنـ تـجـاهـلـ أـثـرـهـاـ فيـ الـكـثـيرـ مـاـ جـرـىـ فـيـ تـلـكـ الـحـقـبةـ الـحـاسـمـةـ مـنـ تـارـيـخـ الـمـسـلـمـينـ، وـلـاـ شـكـ أـنـ الـصـرـاعـ الـقـبـلـيـ لـعـبـ دورـاـ بـارـزاـ فيـ حـيـاةـ النـاسـ، وـأـثـرـ فيـ مـجـرـيـاتـ الـأـمـرـ، وـفـيـ تـحـدـيدـ الـمـوـفـ فيـ كـثـيرـ مـنـ الـقـضـائـاـ السـيـاسـيـةـ الـمـصـيـرـيـةـ، وـالـعـربـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ كـانـتـ تـسـودـهـمـ حـيـاةـ الـعـصـبـةـ وـالـعـصـبـيـةـ، إـذـ كـانـ لـكـلـ قـبـيلـةـ أـوـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـقـبـائـلـ كـيـانـ خـاصـ بـهـاـ، فـيـ إـطـارـهـ يـعـيشـونـ، وـعـنـ حـمـاءـ يـذـوـدونـ^(٣).

(١) اليقobi: تاريخ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ؛ الطبرi: تاريخ، ج ٣ ، ص ١١٣ .
المقدسي: البدء والتاريخ، ج ٥ ، ص ١٣٩ ؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ، ص ١٢٤ .
؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ، ص ٢١٢ ؛ الذهبي: العبر ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٢) نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ، ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠ .

وما يهم الباحث هنا ليس الخوارج كحركة، وإنما أحد شخصيات الخوارج في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وهذا الشخص هو بسطام بن مريّ اليشكري، ولقبه شوذب^(١).

وذكر المدائني أن بسطام بن مري شوذب - خرج أيام عمر بن عبد العزيز، فقال لأصحابه: يا أخلاقائي، إنكم قد بابنتم قومكم في ولاية هذا الرجل، وهو يأمر بالعدل ويظهره، ويعمل به، فاعذروا فيما بينكم وبينه، وادعوه إلى أمركم، فكتبوا إليه فعظموا طاعة الله وأمره، وعايبوا الظلم وأهله، وبرئوا من أهل الكبائر، ودعوا عمر إلى رأيهم، وإلى البراءة من عثمان وعلي، ورد أحكام عثمان، وما حكم به علي بعد الحكمين^(٢)، وبيدو من خلال النص السابق أن الخوارج لم يتجلوا الحكم على عمر بن عبد العزيز لما بلغهم عدله وصلاحه ومناقبه وسيرته الحسنة، واجتمع الخوارج وقالوا: "ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل"^(٣).

ولعل ما غير موقف الخوارج من عمر؛ ما انتشر عنه من قصص تعبّر عن ورعيه و زهده و تقواه، حيث قال مالك بن دينار : "لما ولّي عمر بن عبد العزيز ؛ قالت رعاء الشاء في رؤوس الجبال: من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس؟ فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟ قالوا: إنه إذا قام خليفة صالح كفت الذئاب والأسد عن شأننا"^(٤).

ولما كتب الخوارج لعمر و عظموه أمره، و طلبوا من يناظره ويحاججه، كتب عمر إليهم: "إلى العصابة الذين خرجوها بزعمهم التماس الحق، أما بعد: فإن الله لم يُلْبِسْ على العباد أمورهم، ولم يتركهم سدى، ولم يجعلهم عمياً، فبعث إليهم النذر، وأنزل عليهم الكتب، فبعث محمد رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً حفيظاً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ

(١) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٣٩٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٣٩٧.

(٣) الرقبي: أحسن المحسن، ص ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٧.

حَكِيمٌ حَمِيدٌ^(١) فِيهِ عِلْمٌ مَا يَأْتُونَ وَمَا يَتَقَوَّنُ، فَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَىِ اللَّهِ، وَ شَكْرِ نِعْمَتِهِ، وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ ، وَالْتَّوْكِلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ 《وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ هُجْرَةً》^(٢)، وَقَدْ بَلَغْنِي كِتَابُكُمْ وَمَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ، 《وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ》^(٣) وَقَدْ خَابَ مَنْ دُعِيَ إِلَى الْحَقِّ وَلَمْ يَجِدْ، وَذَكَرْتُمْ مَا اعْتَدَ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ، وَأَمْرَهُمْ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ 《فَلَلَّهِ الْحُجَّةُ الْبِلَاغُتُ》^(٤) وَسَأْلَتُمُونِي أَنْ أَحْكِمَ بِالْعَدْلِ، وَأَقْوَمَ بِالْقَسْطِ، وَالْحَقِّ فَوْزُ وَنِجَاهَ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ 《لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقْرِرٍ》^(٥) فَلَكُمُ الْذِي سَأْلَتُمْ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، وَسَأْلَتُمُونِي رَدًّا مَا حَكَمَ بِهِ مَنْ كَانَ فِي صُدُورِهِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ حَكْمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُلَيٍّ قَبْلَ الْحَكَمَيْنِ، وَهُمْ وَمَنْ كَانَ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ؛ كَانُوا أَقْرَبُ عَهْدًا لِرَسُولِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ، وَاللَّهُ يَشَهِّدُ عَلَى أَحْكَامِهِمْ وَيَعْلَمُهُمْ، وَسَأْلَتُمُونِي إِلَيْنِكُمْ فِي قَدْوَمِ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ عَلَيِّ، فَمَنْ أَحَبَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلِيَقْدِمْ آمِنًا وَلَا أَحْبَبْهُ، وَلَا أَبْسِطُ إِلَيْهِ يَدًا، وَأَذْكُرْكُمْ اللَّهُ؛ وَإِنْ تَخَالَفُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنْنَةَ نَبِيِّهِ فَقَدْ بَيَّنَ لَكُمُ الْهَدَى وَأَرَاكُمُ الْبَيِّنَاتِ؛ فَاقْبِلُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَإِيَّاكُمُ الْبَدْعُ وَالْغُلوُ فِي الدِّينِ، وَالسُّؤَالُ عَمَّا قَدْ كَفِيتُمُوهُ، فَقَدْ سَبَقَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ مِنْ قَوْلِهِ: 《يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِمَانُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْوِيْكُمْ》^(٦)، قُلْ هَذِهِ

(١) سورة فصلت: آية ٢٤.

(٢) سورة الطلاق: آية ٢.

(٣) سورة الصاف: آية ٧.

(٤) سورة الأنعام: آية ٤٩.

(٥) سورة الأنعام: آية ٦٧.

(٦) سورة المائدة: آية ١٠١.

سَبِيلٍ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴿١﴾، فَانْتَقَلُوا يَقْبَلُ اللَّهَ مِنْكُمْ، وَإِنْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ أَمَامُكُمْ وَمَنْ وَرَاءَكُمْ، فَمَنْ ذَا يَعْجِزُ اللَّهَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الْأَصْمُمُ الْبُكْمُ ﴿٢﴾، وَقَالَتْ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ، وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ ﴿٣﴾.

وبعث بكتابه إليهم مع عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، ومحمد بن الزبير الحنظلي، وقال لهم: إن هؤلاء القوم قد خرجوا علينا بأسيافهم، فإذا قدمتم عليهم فادعوههم إلى الحق والجماعة، فإن دعوانا من كتاب الله - إلى ما لم أعمل به فاضمنا عني العمل به، وإن دعوانا من كتاب الله - إلى ما قد علمناه وجهلوه، فجاجوهم به حتى يرجعوا إليه ﴿٤﴾.

فقدم رسولاً عمر، فقال عون بن عتبة: أيتها العصابة، إنا قد أقمنا من كتاب الله ما قد حفظنا وعلمنا، فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا، أم أمنتم على أنفسكم ما خفتم على قومكم، أم رجوتם شيئاً لأنفسكم، يئستم منه لقومكم، أم تقولون: ذنوب قومكم شرك، وذنوبكم ذنب؟ ﴿٥﴾.

قالوا: نترك الذنوب كفراً، لقول الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٦﴾. قال لهم رسولاً عمر: أخطأتم التأويل، و من لم يحكم بما أنزل الله جادلاً له فهو كافر؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَقَالَ

(١) سورة يوسف: آية ١٠٨.

(٢) سورة الأنفال: آية ٢٢.

(٣) سورة المائدة: آية ٥٠.

(٤) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٣٩٧ - ٣٣٩٩ .

(٥) المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٣٩٩ ؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٦) سورة المائدة: آية ٤٤ .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانَ وَأَلْعَوْا فِيهِ^(١) وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبَعْثُرُوا^(٢)﴾، هؤلاء يؤمنون بالبعث، وأمير المؤمنين مجتهد لنفسه في الحكم بالعدل، وإحياء ما قد أミت منه، فاتقوا الله واظروا لأنفسكم^(٣). قال أصحاب شونب لرسول عمر: إن عمال صاحبك يظلمون، قال: فتولوا أعماله، قالوا: لا نعمل له، قال: فكونوا أمناء على عماله، فأي عامل منهم عمل بغير الحق فاعزلوه، قالوا ولا هذا، وقرؤوا كتاب عمر فقالوا: نوجه رجلين يكلمانه، فإن أحابنا فذاك، وإن أبى كان الله من ورائه^(٤)، فبعثوا رجلين منهم، أحدهم من بنى شيبان، والآخر فيه حشية، أي سواد في وجهه، وهو أحدهما لساناً، فقدموا على عمر وهو بخاصرة^(٥).

ويرى الباحث أن لجوء عمر إلى محااجة الخوارج من أصحاب شونب؛ لم يكن لعدم معرفة عمر لحقيقةهم، فتاريخهم لم يكن ليجهله مثل عمر، وإنما جاءت هذه المحاجة في سياق إقامة الحجة عليهم، وترك أي مجال للظلم، وتحقيقاً للعدل، وإثارة للسلامة، وحقناً للدماء، لا سيما أن هذه الجماعة ولغت في دماء المسلمين منذ نشأتها الأولى، على أية حال، فقد تمت المناورة بين عمر والرجلين من أصحاب شونب، وبعد المناورة مضى الرجلان وسرح عمر معهما رجلاً يعلم خبر القوم، وأخبر اليشكري أصحابه بما جرى بينه وبين عمر، فأقاموا و قالوا: كفوا عنه ما تركتم، فقال لهم رسول عمر، فهو يكف عنكم ما لم تفسدوا، فرجع إلى عمر، ونزل بسطام وأصحابه في مكان من أرض الموصل^(٦).

(١) سورة فصلت: آية ٢٦.

(٢) سورة التغابن: آية ٧.

(٣) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٠٠.

(٤) المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٤٠٠.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ج ٣ ، ص ٢٣٣؛ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة "منسوب"، ج ٢ ، ص ٩٦.

(٦) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٠٣.

والجدير ملاحظته أن عمر رغم عدله وصلاحه، وقد شهد له بذلك القاصي والداني، ولم يختلف عليه أحد من علماء الأمة لا السابقين ولا اللاحقين، برغم هذا كله، وجدت له معارضة، فكيف اليوم بمن هم دونه، فخوارج هذا العصر أشد كفراً وتتكيلاً بال المسلمين، أما خوارج العهد السابق، فقد كان خروجهم نصرة للدين حسب ما يعتقدون، أما خوارج اليوم فخروجهم عن الدين أصلاً، وقد كف عمر عن كف يده عن المسلمين منهم، فكيف يكفي المسلمون عنهم اليوم وقد ولعوا في دمائهم ووالوا أعداءهم؟؟.

المهم أن المناظرة رغم الحجة البالغة، والأدلة القاطعة، والاستدلال البين، إلا أنها فشلت في تغيير موقف شوذب وأصحابه، حيث كتب عمر إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بما كان بينه وبين الخوارج من القول والكتاب، ويلمه أن يكف عنهم ما كفوا، وأن يجاهدهم إن قاتلوه^(١).

ويبدو أن كل المحاولات لتجنب الصدام قد باعثت بالفشل، وأصبحت الأمور تتوجه نحو المواجهة العسكرية لجسم الخلاف مع الخوارج، وذكر الطبرى أن عمر بن عبد العزيز أوصى عبد الحميد، وشدد عليه الأمر ألا يبادرهم بقتل حتى يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فعل خلٌّ بينهم، وانظر رجلاً صلباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً، وأوصى بما أمرتك به^(٢).

وكان عمر يحرص كل الحرث ألا يصب دماً، أو يكون سبباً في مظلمة، ويعلق الخضري على هذا الموقف من عمر فيقول: "لما خرجت خارجة العراق؛ طلب من عامله ألا يحركهم حتى يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، وهو ما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها"^(٣).

ولما لم ينفع هذا كله، بعث عبد الحميد إليهم محمد بن جرير بن عبد الله الجلي في ألفين، وبعث كذلك عمر هلال بن أحوز في ألف، وكان الخارجي "بسطام" في ثلاثة، ويقال: في ستمائة، فكان ابن جرير وهلال بإذائهم لم يقاتلوا حتى مات عمر^(٤).

(١) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٠٤.

(٢) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٦٢ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١٨٧.

(٣) الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ؛ الدولة الأموية، ج ١ ، ص ٣٧٤.

(٤) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٠٤.

الجسم العسكري:

ويبدو أن عمر استطاع أن يحافظ على ضبط النفس، حتى آخر لحظة، رغم أن كل المؤشرات من جانب الخوارج كانت تشير إلى المواجهة، على أية حال فقد شاء القدر أن يموت عمر ويتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك، وانصرف هلال وأصحابه بعد موت عمر، وتوجه بسطام إلى الموصل فقتل عاملها، فقاتلته محمد ابن جرير، فهزمه بسطام، وهرب أصحاب محمد بن جرير، ولم تكن لهم ناهية دون الكوفة^(١).

ويؤكد ابن سعد أن عمر لم يقاتل الخوارج إلا إذا أخذوا الأموال، وقطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، "فقاتلواهم فإنهم رجس"، هذا ما كتب به إلى عامله^(٢). ثم أضاف عمر في وصيته إلى عامله - حسب رواية ابن سعد - قوله: "إِن أَظْفَرَكُ اللَّهُ بِهِمْ، وَأَدَالَكُ عَلَيْهِمْ فَرْدًا مَا أَصْبَتَ مِنْ مَتَاعِهِمْ إِلَى أَهْلِهِمْ، وَمَنْ أَخْذَتْ مِنْ أَسْارِيِ الْخَوَارِجِ فَلَاحِبْسَهُ حَتَّى يَحْدُثَ خَيْرًا".

وينقل نايف معروف عن "فان فلوتن" تعليقاً له على ظهور الخوارج في عهد عمر بن عبد العزيز حيث يقول: "فقد وجدت الخوارج منذ عهد عمر متৎساً لاستعادة نشاطها الفكري، وبسط آرائها، فجعلوا من أنفسهم حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على ذوي السلطان من المستبدin، ولعلهم أرادوا بذلك أن يقودوا حركة المعارضة حين ذاك، وذلك بهدف تكتيل الناس حولهم استعداداً لجولات قادمة مع الأمويين".^(٤)

ويعلق عبدالشافي عبداللطيف على حركة شوذب بقوله: "العجب أن حركته الجديدة هذه جاءت في عهد رجل اشتهر بالعدل والصلاح".^(٥)

(١) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٠٤ ؛ ابن الجوزي: المنظم، ج ٧ ، ص ٦٦.

(٢) الطبقات، ج ٥ ، ص ٣٥٨.

(٣) المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٣٥٨.

(٤) الخوارج في العصر الأموي ، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) العالم الإسلامي في العصر الأموي: ص ٤٦٥

وعندما تولى يزيد الخلافة، أرسل للخوارج رسولًا، وأخبرهم أنه لا يفارقهم على ما فارقهم عليه عمر، فلعنوه ولعنوا غيره، وقاتلوه وهزموا أصحابه، فوجه إليهم بعد هزيمة محمد بن جرير، نجدة بن الحكم الأزدي، في جمع فقتلوه أيضًا وأصحابه^(١). وأنباء هذه الأحداث، ظهر يزيد بن المهلب بفتنته الجديدة، وأرسل يزيد بن المهلب إلى بسطام حبيب بن خدراً يدعوه إلى نصرته، ورفض بسطام هذا الطلب، وضرب رسول يزيد عشرين سوطاً، وقال له: لو لا مكانك من الدين لقتلتك^(٢).

ثم إن بسطام بعدما تمكن من هزيمة نجدة الأزدي، مضى يريد الجزيرة، فانتدب له تعيم بن الحباب السلمي، وعقد له عامل الجزيرة على ثلاثة آلاف، فواقع بسطاماً، فقتل تميمًا ومالك بن عمير السلمي ومن معهما^(٣)، وكانت هذه المعركة بتamarاء^(٤). وهذا تمكن بسطام - رغم قلة جماعته - من إلحاق ثلات هزائم بثلاثة من عمال الدولة، لدرجة أن شعراً الخوارج تفاخروا بهذه الانتصارات، فقال قائلهم :

ترَكَنَا تَمِيمَ بْنَ الْحُبَابِ مُلْحِبًا^(٥)
تَبْكِيُّ عَلَيْهِ عُرْسَةً وَ قَرَائِبَهُ
وَأَقْلَبَ مِنْ حَرَانَ يَحْمِلُ رَأْيَهُ
يُغَالِبُ أَمْرَ اللَّهِ وَاللهُ غَالِبٌ

وقال آخر :

تَرَكَنَا تَمِيمَ بْنَ الْحُبَابِ مُجَدَّلًا
بِغِيَضِهِ تَامِرَاءَ قَلْبِلَا عَوَانَدُهُ
يُنَادِي سَلِيمًا وَ هِيَ صُمُّ سُمُّوْعُهَا
وَقَدْ أَسْلَمَتْهُ إِذْ دَعَاهَا حَوَاشِدُهُ^(٦)

وعلى العش على هذه الأحداث التي قام بها شونذ ضد الدولة الأموية بقوله: "لقي عمال بنى أمية الأمراء من شونذ الخارجي"^(٧).

وبعد أن تعززت مكانة بسطام، قرر النزول إلى منطقة جوخي^(٨) من أرض السواد، وفيما يبدو أن هذه المنطقة حصينة، وتتمكنه من مواصلة عمله ضد الدولة^(٩).

(١) الأزدي: تاريخ الموصل، ص ٧ ، ابن الجوزي: المنظم ، ج ٧ ، ص ٦٦ .

(٢) البلاذري : انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٠٤ .

(٣) المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٤٠٥ .

(٤) تامراء: مكان من سواد بغداد على نهر واسع تحمل فيه السفن؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٧.

(٥) مُلْحِبًا: أي مقطع اللحم طولاً ولحبه ضربه بالسيف؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١ ، ص ٧٣٦ .

(٦) البلاذري: انساب ، ج ٨ ٣٤٠٥ ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ .

(٧) العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهنت لها ابتداءً من فتنة عثمان ص ٢٨٢ .

(٨) جوخي: مكان قرب النهروان بالعراق؛ ياقوت: معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ .

(٩) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٠٥ .

وأمام هذه التطورات المتلاحقة في العراق لم يكن أمام الخلافة إلا أن ترسل قائلها مسلمة ليتدارك الموقف؛ قبل أن تتفاقم الأزمة أكثر، ويعظم أمر شونب وأصحابه. ويذكر ابن الجوزي هذا الموقف فيقول "فأنفذ يزيد مسلمة بن عبد الملك ، فنزل الكوفة"^(١).

ولما وصل مسلمة إلى الكوفة، شكا إليه أهلها ما كان يصنعه شونب وأصحابه من قتل وتخريب وانتهاك للمحارم^(٢).

وعلى الفور وجه مسلمة سعيد بن عمرو الحرشي من الكوفة، وعقد له في عشرة آلاف فارس، توجها صوب شونب وأصحابه^(٣).

فوصل سعيد وشونب لم ييرح مكانه، فلما رأى هو وأصحابه ما لا قبل لهم به، قال شونب لأصحابه: "من كان يريد الله - عز وجل - فقد جاءته الشهادة، ومن كان قد خرج للدنيا فقد ذهبت الدنيا منه"^(٤).

فكسروا أغماد سيوفهم، وحملوا على سعيد وأصحابه حملة رجل واحد ؛ حتى كشفوا سعیداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة ، ووبخ أصحابه وقال: "أمن هذه الشرذمة تفرون ؟! لا أبا لكم، يا أهل الشام يوماً ك أيامكم" ، فحملوا عليهم فطحونهم طحناً، وقتل بسطام ومن معه^(٥).

وقد وصف البلاذري هول وشدة المعركة مع بسطام بقوله: "فأقيمه بسطام بجودي فانهزم سعيد، ثم كرّ قتله بسطام وأصحابه، وانهزم من بقي، وقتل أكثر أصحاب سعيد"^(٦).

وهكذا تمكن مسلمة بفضل الله وتوفيقه من إلحاق هزيمة ساحقة ماحقة لمجموعة من الخوارج لطالما أحقت الكثير من الأذى بالناس، فقتلت وروعت وأفسدت وانتهكت المحارم.

(١) المننظم، ج ٧ ، ص ٦٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ؛ ج ٤ ، ص ٣٣٣ .

(٣) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٠٥ .

(٤) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٧٤ ، ابن الجوزي : المنظم ، ج ٧ ص ٦٦ .
؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ .

(٥) ابن الجوزي: المنظم، ج ٧ ، ص ٦٧ ؛ ابن الأثير: الكامل ن ج ٤ ، ص ٣٣٣ .

(٦) البلاذري : انساب: ج ٨ ، ص ٣٤٠٥ .

المهم أن التاريخ سجل لمسلمة الفضل في القضاء على بسطام ورجالاته، مثل الريان بن عبدالله اليشكري^(١).

وكذلك ابن عم بسطام هدية اليشكري وكان عابداً، وقتل كذلك أبو شيبان، مقاتل ابن عبدالله اليشكري^(٢). وكان رجلاً فاضلاً عندهم^(٣).

وبعد هذه الفاجعة التي لحقت بهم، قام بعض شعرائهم برثي قتلامهم، فقام شمر بن عبدالله برثي أخيه فقال:

وَلَقَدْ فُجِعْتُ بِسَادَةٍ وَفَوَارِسٍ لِلْحَرْبِ مِنْ بَنِي شَيْبَانِ
أَعْتَاقُهُمْ رَبِّ الزَّمَانِ فَغَالَهُمْ وَ تَرَكْتُ فَرْدًا غَيْرَ ذِي إِخْوَانِ
كَمَدَا تَجَلَّجَ فِي فُؤُادِي حَسْرَةً كَالنَّارِ مِنْ وَجْهٍ عَلَى الرَّيَانِ
وَ فَوَارِسٌ بَاعُوا إِلَهَ نُفُوسِهِمْ مِنْ يَشْكُرُ عِنْدَ الْوَغْيِ فُرْسَانِ

وقام آخر من شعراء الخوارج فقال:

يَا عَيْنَ أَذْرِي دُمُوعًا مِنْكِ تِسْجَاماً
فَلَمْ تَرَيْ أَبْدَا مَا عِشْتَ مِثْهُمْ
بِسَيِّقِهِمْ قَدْ تَأْسُوا عِنْدَ شِدَّتِهِمْ
حَتَّى مَضَوْا لِلَّذِي كَانُوا لَهُ خَرَجُوا
إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنْ قَدْ أُنْزِلُوا غَرَفًا
أَسْقَى إِلَهٌ بِلَادًا كَانَ مَصْرَعُهُمْ

وابكي صحابة بسطام وبسطاماً
أتقى و أكمل في الأحلام أحلاماً
ولم يربدوا عن الأعداء إنجاماً
فأورثونا مnarات وأعلاماً
من الجنان و نالوا ثم خداماً
فيها سحاباً من الوسمى سجاماً^(٤)

ويسوق الباحث هذه الأبيات؛ لأنها تعكس ظلال ما لحق بهم على يد مسلمية؛ الذي تمكّن من القضاء على فتّتهم، وإخماد أنفاسهم بعدها رحرا طويلاً من الزمن .

(١) الأزدي: تاريخ الموصل ، ص ٧

(٢) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٠٥

(٣) الأزدي: تاريخ الموصل ، ص ٧

(٤) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٠٥ ؛ الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٧٥

المبحث الثالث

دور مسلمة في إخماد فتنة يزيد بن المهلب

دور مسلمة في إخماد فتنة يزيد بن المهلب:

لقد كانت فتنة يزيد من أشد الفتن التي تعرضت لها خلافة بنى أمية، حيث أنها شكلت خطراً حقيقياً على كيان الدولة وبقائها واستقرارها، و هي بذلك فاقت خطر الجرائم والخوارج أيام شونب؛ حيث إنها أخذت طابعاً عاماً أثر على مجريات الدولة في مناطق واسعة، وغيرها أخذ طابعاً خاصاً محدوداً بالزمان والمكان.

أما يزيد فهو أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، تولى بعد والده سنة (٨٢هـ=٧٠١م) وهو ابن ثلاثين سنة، وعزله عبد الملك بن مروان برأي الحاج بن يوسف التقي (٨٥هـ=٧٠٤م)، وولي مكانه في خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي^(١).

وكان الحاج زوج أخته، هند بنت المهلب، وكان الحاج يكره يزيد لما فيه من النجابة، و يحسده ويخشى أن يصبح مكانه^(٢).

وذكر ابن الأثير أن الحاج طلب من يزيد بن المهلب القيام بعدة أعمال منها القدوم عليه إلى العراق، وغزو خوارزم فرفض يزيد ذلك ثم طلب يزيد من الحاج غزو خوارزم فرفض الحاج ذلك، وقام يزيد وغزاها مخالفًا أمره، فكتب إليه الحاج بالقدوم مرة ثانية، فقدم إليه وحبسه^(٣).

وتطور هذا الخلاف بين يزيد والجاج إلى عداء نزل بسببه يزيد و إخوته سجن الحاج، حتى تمكن يزيد بعد فترة من الهرب من سجنه مع أخيه المفضل وعبد الملك، ولحقوا بسلامان بن عبد الملك، مستجيرين به من الحاج^(٤).

فكرة يزيد بالفرار من سجنه فتنكر بزي الطباخ، ووضع على لحيته لحية بيضاء، المهم أنه تمكن من الإفلات من حرس الحاج، وحملته سفينه كانت قد أعدت له سلفاً، وعندما علم الحاج بذلك، بعث إلى قتيبة بن مسلم يحذر قدوتهم،

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق، ج ٦ ، ص ٢٧٨

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢ ، ص ٢٩٥

وسلك يزيد طريقه إلى الشام، ونزل بجوار وهيب بن عبد الرحمن الأزدي، وكان مقترباً من سليمان الذي أمنهم وأدخلهم إلى جواره، وتکفل بحمايتهم و عدم المساس بهم ^(١).

وكتب الحاج إلى الوليد: إن آل المهلب خانوا مال الله عز وجل وهرروا مني، ولحقوا بسليمان، وكان الوليد قد أمر الناس بالتهيؤ إلى خراسان ظناً منه أن يزيد قد توجه إليهما، ولما عرف الوليد الأمر هان عليه، وكتب سليمان إلى الوليد: إنما على يزيد ثلاثة آلاف ألف، وبقي ثلاثة آلاف ألف فهي على ^(٢).

وكان يزيد بن المهلب كريماً، ويتعتر ويفاخر بكرمه، حيث إنه لما هرب من الحاج قاصداً سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ بالرملة، فاجتاز في طريقه إلى الشام على بادية، فقال لغلامه: استسقنا هؤلاء لبناً، فأتاهم بلبن فشربه فقال: أعطهم ألف درهم، فقال الغلام: إن هؤلاء لا يعرفونك، قال: لكنني أعرف نفسي، أعطهم ألف درهم، فأعطاهم ^(٣).

وكان يزيد يقول: "والله للحياة أحب من الموت، ولثناء حسن أحب إلى من الحياة، ولو أني أعطيت ما لم يُعْطِه أحد؛ لأحبيت أن يكون لي أذن أسمع غداً ما يقال عنني؛ إذا أنا مت كريماً" ^(٤).

وأجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب، كما أنه لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة ^(٥).

وليزيyd موافق مشهورة ومشهودة في الشجاعة، وحكي أنه وقعت عليه حية فلم يدفعها عن نفسه، فقال له أبوه: ضيّعت العقل من حيث حفظت الشجاعة ^(٦).

وكان يزيد يقول: "ما يسرني أن أكُفَّيْ أمور دنياي كلها ولِي الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا، فقيل له: ولم ذاك؟ فقال: لأنني أكره عادة العجز" ^(٧).

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٩٦-٢٩٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٢٩٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٢٨٠.

(٤) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٨٢.

(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٣.

(٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٤-٣٢٨.

(٧) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٩٤..

وقال له بعض جلسايه يوماً: لِمَ لا تتخذ لك داراً؟ فقال: وما أصنع بها ولني دار حاصلة مجهزة على الدوام؟ فقيل له وأين هي؟ قال: إن كنت متولياً فدار الإمارة، وإن كنت معزولاً فالسجن^(١)

بداية الخلاف مع يزيد بن المهلب

وبالرغم من هذه الصفات والمناقب والسجايا الحسنة، إلا أن يزيد وقع في خلاف عميق مع الدولة، أخذ يتطور تدريجياً حتى انتهى بالصدام المسلح بين الطرفين، و كان قد بدأ يتعقد هذا الخلاف في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فعندما تولى عمر كتب إلى يزيد بن المهلب، أما بعد: "فإن سليمان كان عبداً من عباد الله أنعم الله عليه ثم قبضه، واستخلفني، ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان، وإن الذي ولاني الله في ذلك، والذي قدر لي ليس على بهين، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج أو جمع أموال؛ لأن الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد، وأنا أخاف في ما ابتليت به حساباً شديداً، ومساءلة غليظة؛ إلا ما عفا الله ورحم وقد بايع من قبلنا من قبلك". فلما قرأ يزيد الكتاب قال: لست من عماله، لأن كلامه ليس كلام من مضى من أهله^(٢).

وكان عمر من خلال كتابه إلى يزيد يحب أن يطلعه على سياساته في الخلافة، والتي تختلف عن أسلافه تماماً، وكان قد وقع في يد عمر الكتاب، الذي كان قد أرسله يزيد بالأموال إلى سليمان بعد أن فتح جرجان، وذكر أنه قد حصل عنده من الخمس ستمائة ألف ألف، حتى أن كاتبه نصحه بعدم تسمية الأموال، لئلا تبقى مخلدة في دواوينهم، فإن ولـي بعده والـ أخذـكـ بهاـ، ولكن يزيد لم يقبل نصيحة كاتبه، وأمضى الكتاب إلى سليمان^(٣).

والحقيقة أن المصادر التاريخية اختلفت في حجم هذه الأموال التي كان يزيد قد تحصل عليها بعد فتوحاته المختلفة، حيث ذكر ابن أثيم عن يزيد قوله:

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ .

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٥٦ ؛ ابن أثيم : الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .

؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣١٠ .

"وقد صار في يدي- مما أفاء الله على المسلمين، بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنية" عشرون ألف درهم، وأنا باعث بهذه الأموال التي أفاء الله بها إلى أمير المؤمنين، إن شاء الله، والسلام"^(١).

في حين أن ابن الجوزي ذكر غير هذا الرقم، حيث بين في روايته أن يزيد قال: في كتابه إلى سليمان: "وقد صار عندي- من خمس ما أفاء الله عز وجل على المسلمين، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه من الغنية والفيء-سبعة آلاف- وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله"^(٢). أما الطبرى فقد ذكر أن الكتاب كان فيه أربعة آلاف فقط^(٣).

وعلى أية حال، لو أخذنا بأية رواية من هذه الروايات فإن حجم الأموال كبير جداً؛ لذلك لما قرأ سليمان بن عبد الملك كتاب يزيد سره سروراً شديداً، وجعل يزيد يضم الأموال بعضها إلى بعض، ويمد يده إلى أموال خراسان حتى أخذ منهم أموالاً جليلة ظلماً وعدواناً^(٤). حتى أن أهل خراسان اعترضوا على يزيد بن الهلب.

وكتب قوم إلى سليمان، بأن يزيد يريد أن يتغلب على خراسان، وأنه قد عزم على الخلع والعصيان كما فعل قتيبة بن مسلم، فلما قرأ سليمان كتاب أهل خراسان اغتم لذلك، وضاق صدره، وتحير في أمره، ولم يدر ما يصنع ثم استشار خاصته وأهل بيته، وقال له بعض وزرائه: يا أمير المؤمنين، إن الأموال التي قد صارت إلى يزيد بن المهلب، ليست بقليلة، ومن كان معه مثل هذه الأموال أمكنه أن يتغلب على البلاد، والرأي أن يوجه إليه أمير المؤمنين برجل يأخذ ما عنده من الأموال، فإذا فعل ذلك يكون قد قص جناحه، فإن رام العصيان لم يقدر على ذلك، فقال سليمان: هذا هو الرأي بعينه^(٥).

وقد عاب بعض الكتاب على يزيد بن المهلب حرصه على جمع الأموال، ومنهم الدكتور محمد حلمي الذي يرى: "أن حروب يزيد أصبحت وسيلة للإرتزاق

(١) ابن أثيم : الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٢١.

(٢) المنظم ، ج ٧ ، ص ٢٩.

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٥٦.

(٤) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٢١.

(٥) المصدر السابق، ج ٤ ، ص ٢٢٢-٢٢١.

والإثراء، لذلك فيما يبدو كان قرار عمر بعزل يزيد عن إقليم خراسان، حتى لا تصبح الحرب مهنة له كما فعل أبوه من قبل الذي تخصص في حرب الخوارج، مقابل أن يأخذ جميع الغنائم له ولجيشه^(١).

ويضيف الدكتور محمد حلمي قائلاً: "أن الحرب أصبحت مهنة المهلب بن أبي صفرة وتولى من بعده ابنه يزيد على نفس الأسس التي تقررت لأبيه سابقاً^(٢). وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة؛ عزل يزيد بن المهلب عن خراسان، وطالبه بالأموال التي أصابها من جرمان، وكان يقول: لا أحب آل المهلب لأنهم جبابرة، ويزيد بن المهلب كان يقول: إني لأظنه مرائياً^(٣).

هكذا كانت أجواء العلاقة بين الرجلين، وطلب عمر بن عبد العزيز من يزيد بن المهلب القدوم عليه، فولى يزيد مكانه، وقدم على عمر، ولما وافى يزيد عمر قال له: أهذا كتابك وهذا خاتمك؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، كتبته استعطافاً لسليمان عليّ، وعلمت أنه لا يأخذني - مع رأيه فيّ بالمال، قال فنحن آخذوك بإقرارك^(٤).

وفيما يبدو فإن الحجة التي ساقها يزيد لم تكن لتقنع عمر الذي كان كل ما يخشاه أن يسأله الله عن هذه الأموال التي هي ملك للمسلمين، وفي رواية ابن أثيم أن عمر قال له: "يا ابن المهلب، دع عنك هذا، فإبني ما أجد بداً من أخذك بتلك الأموال حتى تؤديها، وإلا حبستك فانتق الله يا ابن المهلب، وأدّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين، ولن يسعني تركها عليك" فأبى يزيد بن المهلب أن يقر له بشيء، فأمر به عمر، فوضع الحديد في يده، وأمر بحبسه^(٥).

وحاول مخلد أن يتوسط لوالده ويخوجه من سجن عمر، لكنه لم يفلح، وقال يا أمير المؤمنين : إنما أراد استعطاف سليمان بما كتب إليه به، وهو يخلف، ثم

(١) الخلافة والدولة في العصر الأموي ، ص ٢٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

(٣) المقدسي : البدء والتاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٦-٤٧ .

(٤) البلاذري : انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٨٠ .

(٥) الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

أئى إيه فقال: أتحلف على ما قلت وما ادعى؟ قال: لا والله لا تتحدث العرب بأني قد حلفت يميني على مال أبداً، ولم يزل محبوساً في السجن حتى مرض عمر^(١).

ولما حبس يزيد في سجن عمر، أقبل ابنه مخلد من خراسان، ودخل على الخليفة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن الله يا أمير المؤمنين - صنع لهذه الأمة بولايتك عليها خيراً ، فلا نكن أشقي الناس بولايتك، علام تحبس هذا الشيخ؟ أنا أتحمل ما عليه، فصالحي على ما إيه تسأل، فقال عمر: لا، إلا أن تحمل جميع ما نسأل إيه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كانت لك بيضة فخذ بها، وإن لم تكون بيضة فصدق مقالة يزيد وإلا فاستحلفه، فإن لم يفعل فصالحه، فقال عمر: ما أجد إلا أن آخذه بجميع المال"^(٢).

والجدير ذكره أن يزيد رفض منذ البداية إنتهاء المشكلة بإرجاع الأموال، وعندما دخل يزيد على عدي بن أرطأة، سلم عليه وهنأ بولادة العراق، فقال له عدي: يا أبا خالد، إن أمير المؤمنين عمر أمرني أن أقبض منك الأموال، التي جبيتها من بلاد خراسان وجرجان وطبرستان، فقال يزيد: أيها الأمير، إنه كان ذلك، غير أنني فرقته في أجناد خراسان، وقويتهم به في جهاد عدوهم، ولم آخذ من تلك الأموال شيئاً، فقال له عدي : دع عنك هذا يا ابن المهلب، أخرج من هذه الأموال؛ وإلا حملتك إلى أمير المؤمنين، فيرى فيك رأيه، ولما امتنع ورفض؛ لم يكن أمام عدي إلا حبسه ونقله إلى عمر بالشام^(٣).

وعندما ترك يزيد خراسان متوجهاً صوب الخليفة؛ تقدم بعض وجوه خراسان بشكواهم إلى الوالي الجديد بالعراق عدي بن أرطأة ضد يزيد بن المهلب، وتقدم في البداية وكيع بن أسود التميمي قائلاً: "إن يزيد بن المهلب انتهك المحارم، واستحل العظام، يأخذ هذه الأموال من غير حلها، ويضعها في غير موضعها وحقها والسلام" وتقدم بالشكوى كذلك هريم بن أبي طحمة التميمي قائلاً: "قد كانت من يزيد ابن

(١) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٨١.

(٢) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٢٠.

(٣) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٣٣.

المهلب إلينا سيرة استحل بها حرمنا، واستطال بها علينا، فأنصفنا منه أيها الأمير، وأعنا عليه، وإلا ركبْتُ فيه إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز والسلام، وتقديم كذلك عمر بن يزيد قائلاً: "قد فز عنا إلى يزيد في أمور ملمة مقطعة مهمة، أتها إلينا يزيد بن المهلب، واجتر بها لدينا، لم يفعل ذلك بعزم عشيرته، ولا بشرف إمرته، ولكن بقسوة قلبه وجرأته على ربه، فأنصفنا منه أيها الأمير ، وأعنا عليه"^(١).

ورغم ذلك كله، لم يقر يزيد بأية أموال لديه، ولم يجد معه طلب والي العراق، ولا طلب الخليفة نفسه .

ويرى الباحث أن تحفظ يزيد على هذه الأموال كان بسبب طموحات يسعى لتحقيقها، أسفرت عنها الأحداث اللاحقة.

المهم أن يزيد بقي في سجن عمر، فلما علم بمرض عمر؛ أخذ يحتال للفرار من سجنه، مخافة أن يلي يزيد بن عبد الملك الأمر، وكان قد حدث بينهم خلاف قديم^(٢). وتمكن يزيد من الفرار من السجن، حيث تواعد مع غلامان له يلقونه بالخيل في بعض الأماكن، ثم نزل من محبسه ومعه جماعة فيهم زوجته عاتكة بنت الفرات العامرية، فلما جاء غلامانه، ركب رواحله وانطلق صوب العراق^(٣).

فلما جاز ومضى، كتب إلى عمر بن عبد العزيز، إني والله لو علمت أنك تبقى؛ ما خرجت من محبسي، ولكن لم آمن يزيد بن عبد الملك، فلما قرأ عمر الكتاب قال: "اللهم إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شرًا فاكفهم شره واردد كيده في نحره"^(٤). وبقيت الأوضاع على حالها مع يزيد بن المهلب، والمرض يتزايد مع عمر، حتى توفي وهو بخناصرة من دير سمعان، بين حماة وحلب، لخمس بقين من رجب^(٥) سنة (١٠١ هـ = ٧١٩ م).

(١) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) المصدر السابق: ج ٤ ، ص ٢٣٩.

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٦٧ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١٩١ .
؛ ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٤٠.

(٤) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٦٧ ؛ ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٤٠ .
؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١٩٢ .

تطور الخلاف بين يزيد بن المهلب وال الخليفة يزيد بن عبد الملك:

مع تطور الأحداث بدأت تظهر النوايا الحقيقية ليزيد بن المهلب، وبدأت حقيقة الطمع في الخلافة تسفر عن وجهها، وبدأ يتغير مفهوم الخلافة من خلاف مالي إلى خلاف على السلطان، ومنازعة الحق أهله، وهنا تطور الخلاف بتطور الأحداث، التي بدأت تسير وتيرتها بسرعة، وكل يوم يكشف عن نوايا جديدة، كان يخفيها يزيد بن المهلب، وهي سر الخلاف الحقيقي، وهذا ما سيظهره الباحث لاحقاً بعون الله .

وفيما يبدو أن يزيد كان يطمع في الخلافة منذ وقت مبكر، فلما بلغه موته سليمان كأنه اغتنم لذلك، وجعل يقول لمن عنده من أصحابه، إن معاوية بن أبي سفيان إنما كان له ولد واحد فملك الخلافة، وابنه بضع وعشرون سنة، وملك سليمان سنوات ، فمتى يخرج هذا الملك منهم ؟ لا يخرج إلى يوم القيمة، ولنباين الأطفال من ولد سليمان ، وكان يظن أنه سيتولى الخلافة أحد أبناء سليمان من بعده^(١).

ويرى الباحث أن هذه بداية التلویح بطلب الخلافة، وإن لم يذكر يزيد ذلك صراحة، ويرى ابن أعثم أن مشادة كلامية حدثت بين الرجلين، يرى أنها كانت بداية الخلاف.

ونذكر أن يزيد بن المهلب خرج أيام سليمان وعليه حلقة يمانية؛ وفي رجله نعل، يصر صريراً شديداً وقد تضمخ بالغالية^(٢) فقال يزيد بن عبد الملك وهو جالس إلى جنب عمر بن عبد العزيز: قبح الله الدنيا وما فيها، لو ددت أن متقال غالية بآلف دينار، فلا ينالها إلا كل شريف، فسمع ذلك يزيد بن المهلب، فالتقت إلى يزيد بن عبد الملك فقال: يا مؤنث ، أيقال هذا إلى وأنا ابن المهلب، إنما كان يجب عليك أن تقول: وددت أن غالية لا توجد إلا في جبهة الأسد، فلا ينالها إلا مثلي، فقال عمر: مهلاً أبا خالد، وكل هذا عهد، ومع اليوم غد، فاللتقت يزيد بن

(١) ابن أعثم : الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

(٢) الغالية: نوع من أنواع الطيب مثل المسك والكافور والعنبر ونحوها، ابن منظور: لسان العرب ج ٢ ، ص ١١٤ .

عبد الملك فقال: والله يا بن المهلب، لئن وليت هذا الأمر لأقطعن خير طابق من يديك، فرد عليه يزيد بن المهلب: والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حي، لأضر بن وجهك بخمسين ألف سيف^(١).

وقد كان غرور يزيد بن المهلب واضحاً، حتى إن سليمان بن عبد الملك قال له يوماً: "أكره منك ثلاثة، خفك أبيض مثل ثوبك، وطيبك يُرى، وطيب الرجل يُوارى، وأنك تكثر مس لحيتك.."^(٢)

وأكد ابن الأثير وكذلك ابن كثير أن يزيد بن عبد الملك كان يقول: "لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفه، وكان يزيد بن المهلب يرد عليه: لأرميتك بمائة ألف سيف"^(٣).

ويرى الباحث من خلال هذه الروايات أن حقيقة الخلاف كانت موجودة بينهما، لكن هذا لا يبرر ليزيد بن المهلب الخروج على شرعية الخلافة، مستنداً إلى مبررات واهية لتحقيق طموح بقي يضميه حيناً من الزمن.

ولما أفضلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك؛ لم يكن همه إلا طلب يزيد بن المهلب ، وكتب إلى عامله على العراق - عدي بن أرطأة الفزاري - يأمره أن يأخذ كل من قدر عليه بالبصرة من آل المهلب وشيعتهم، وقام عدي بحبس عدد كبير منهم^(٤).

ووجه الخليفة يزيد في طلب ابن المهلب، الكوثر بن زفر بن الحارث، أو الهديل بن زفر، ومعهم جماعة، فلم يتمكنوا من اللحاق بهم، ولم يعثروا عليه على أثر، وكتب يزيد إلى عامل البصرة والковفة يخبرهما بموت عمر، وبهرب يزيد، ويأمرهما بطلبه^(٥).

(١) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٤٤ .

(٢) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٢٩٦ .

(٣) الكامل، ج ٤ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ، ص ١٩١ .
؛ الأزدي : تاريخ الموصل ، ص ٣ .

(٤) ابن أثيم:الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٥) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٨٤ ؛ الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

المهم أن عاماً الكوفة والبصرة فشلاً في القبض على يزيد، وواصل يزيد سيره في البر حتى دخل البصرة، وكان ذلك ليلة البدر من رمضان، ومر يزيد بالحرس الخاص بعدي، ولما عرفاً أنه يزيد سمحوا له بالدخول إلى البصرة ورحبوا به وقالوا: قدمتم خيراً مقدم، ادخلوا بسلام^(١).

ويعلق طقوش على دخول يزيد بن المهلب البصرة بقوله: "عمل على تجیر الوضع الداخلي ضد السلطة والنظام، معتمداً على أنصاره فيها"^(٢). وتطور الخلاف بين عدي بن أرطأة، ويزيد بن المهلب عندما طلب يزيد من عدي أن يعطي سبيل إخوته، رفض عدي هذا الطلب، فأخذ الخلاف يتقاوم^(٣). وتکاثر أهل البصرة في الخروج إلى يزيد، وكثير عددهم حتى وصل إلى حوالي ثلاثة آلاف، وتناقص عدد من يناصر عدي بن أرطأة، وبذلت الأمور تتجه نحو الصدام^(٤).

وحشدت الأزد أحلافها مناصرة لابن المهلب، وانحاز إليه أهله وخاصة، وعظم أمره، واشتدت شوكته^(٥).

وفيما يبدو أن يزيد كان يحشد حوله " مليشيا" من السوقه والرعام والعبيد، حتى أن عمر عندما حبسه وأراد أن ينفيه إلى دهلك^(٦) قيل له: يا أمير المؤمنين: إن ليزيد عشرة آلاف مولى، وهم يفدون قراب نعله بأنفسهم، فمتى يرضون بنفيه؟ وما أن يخرج من خناصره حتى ينتزعوه من أيدي الموكلين به، فيثرون فتنة ساكنة، فأقره عمر في حبسه^(٧).

ومما لا شك فيه أن يزيد كان يستغل الأموال التي تحفظ عليها؛ لينفق على أتباعه، ويشتري ذممهم؛ ليضمن ولاؤهم لتحقيق ما يصبوا إليه، وتتكرر مثل هذه

(١) البلاذري: ج ٨ ، ص ٣٤٨٤ ، ٣٤٨٥ ؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

(٢) تاريخ الدولة الأموية ، ص ١٤٧ .

(٣) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٨٦ .

(٤) ابن أعلم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٥) المسعودي: مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ .

(٦) دهلك: هي جزيرة ضيقة حرجة حارة في بحر اليمن، كانبني أمية إذا سخطوا على أحد نفوذه إليها، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

(٧) المرعشى: غرر السير ، ص ١٦٠ .

الظاهرة في كل حين، إذا وجد المتنفذون مالاً سهل عليهم شراء الرعاع من العبيد والأتباع، ويقدمونهم قرباناً في سبيل إشباع نزواتهم؛ وتحقيق طموحاتهم ورغباتهم. خلاصة القول: إن يزيداً بدأ الاستعداد جدياً للمعركة مع عدي، حيث أمر العرفاء الذين معه أن يفرضوا للناس الأموال؛ من الذهب والفضة يقطعها بينهم، وأرسل يزيد إلى الأسواق، فحول أكثرها إلى الأزد، واشترى السلاح، واستعد للمواجهة، ونزل مقبرة بنى يشكر^(١).

والسؤال الكبير: من أين ليزيد هذه الأموال؛ التي يغدقها على الناس، ويشتري بها السلاح؟؟؟ في الوقت الذي لم يكن يستطيع عدي أن ينفق على أنصاره أكثر من درهمين فقط.

كان يزيد يوزع عليهم الذهب والفضة، حتى أن الفرزدق قال في ذلك شرعاً:

أَنْ رِجَالُ الدِّرْهَمَيْنِ تَقْوُدُهُمْ إِلَى الْمَوْتِ آجَالُ لَهُمْ وَمَصَارِعٌ^(٢)

وقد استعد عدي بكل ما يملك؛ ليمنع يزيد من دخول البصرة، ولكن عندما أقبل يزيد؛ كان لا يمر من ناحية إلا تحووا جانباً وفتحوا له الطريق، وقام جيش يزيد بإحراء السوق، وهدم الحوانيت، وانهزم أصحاب عدي، وتمكن يزيد من الوصول إلى المحبس، فأطلق سراح إخوته، ونادى الناس آمنون إلا عدياً، وأعلن عن خلع الخليفة يزيد بن عبد الملك^(٣).

وكان هذا أول إعلان صريح بالتمرد على الخلافة، ومرحلة جديدة من مراحل الصراع التي يسعى من خلالها لتحقيق طموحه بالسلطة.

والجدير ذكره أن عدي هُزم وأُسر ونقل إلى ابن المهلب، ومعه جماعة من خاصته، ولما ظهر يزيد على عدي؛ أقام يومه ذاك في دار بحير المسجد الجامع، ولما أصبح أمر، فنودي في الناس إلى المسجد، وحشدوا، فخطبهم وقال: "أيها

(١) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٤٨٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٤٩٤ ؛ الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٤٩٤ ؛ ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ .

الناس، إنا غضبنا لكم، فانظروا لأنفسكم رجلاً يحكم فيكم بالعدل، ويقسم فيكم بالسوية، ويقيم فيكم الكتاب والسنة، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين^(١).

وهكذا أخذ الخلاف يتفاهم، حيث تم القبض على والي العراق الشرعي، وأدخل إلى السجن، وبائع الناس يزيد بن المهلب على كتاب الله وسنة رسوله، وتحول إلى دار الإماراة، ووُجِدَ في بيت المال عشرة آلاف درهم، ففرقها في الناس، وخندق على البصرة، واستعمل على شرطته عثمان بن أبي الحكم من الأزد واستعمل محمد بن المهلب على فارس، وهلال بن عياض على الأهواز، وزياد بن المهلب على عمان، وأرسل عاملًا على البحرين، وولى مدرك بن المهلب خراسان، وولى وادع ابن حميد من الأزد قنديبل^(٢)، وقد امتد إلى مناطق أخرى^(٣).

والملاحظ أن جميع هذه المناطق كانت تابعة لولاية العراق، وبهذا يكون يزيد قد اقطع أجزاء كبيرة من جناح الخلافة الشرقي، تدفعه إلى مواصلة طيشه سعيًا لإنجاز طموحه الذي بدأ يتجسد على الأرض بالفعل، وبعد هذه التطورات الخطيرة، نادى في الناس، فجمعهم في المسجد الجامع، فلما تكاملوا؛ صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، إني رجل منكم، أعني ما تعنون به، وأحامي عمّا تحامون عليه، ولست أقول بأني خليفة، وإنني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى جهاد أهل الشام، محرقى البيت الحرام، فإن جهادهم أفضل من جهاد الترك والدليل، لا فاسمعوا وأطيعوا رحmkm الله"^(٤).

ويرى الباحث أن نوايا يزيد أصبحت تتكشف شيئاً فشيئاً، ولم يكن في البداية يُحرض ضد أهل الشام، لكنه الآن يرى أن جهادهم أفضل من جهاد الترك والدليل، وكأنه يؤهل الناس لمعركة قادمة مع أهل الشام، وهو ما حدث بالفعل، ولما كان يوم عيد الفطر؛ خرج يزيد بن المهلب إلى المصلى، وذكر عبدالحميد بن عبد الرحمن فقال: "وهذه الضبعة العرجاء، مضطجعاً بالكوفة". وأصاب الناس

(١) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٩٥ - ٣٤٩٦.

(٢) قنديبل: مدينة بالسند كانت فيها وقعة هلال المازني مع آل المهلب، ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٠٢.

(٣) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٩٨ ؛ ابن أعثم : الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٤٦.

(٤) ابن أعثم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٤٦ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٣ ، ص ٩٨ ..

يومئذ مطر شديد، فانصرفوا، وانصرف يزيد عن المصلى إلى الأزد، وصحبه أئس قليل، أطعهم وكساهم وأعطاهم مالاً قسمه بينهم، ثم رجع إلى دار الإمارة^(١). ولم يتورع يزيد حتى في محالفه الخوارج، في سبيل حشد الأنصار لمواجهة الخلافة، حيث وجه رسولاً إلى بسطام يدعوه إلى نصرته ضد يزيد بن عبد الملك؛ لكن بسطام رفض الدعوة، وضرب رسول يزيد عشرين سوطاً^(٢). وكذلك تحالف يزيد بن المهلب مع "صول" الجرجاني، أحد كبار قادة جرجان وأعلن إسلامه ولكنه وقف مع يزيد ضد الخلافة وقتل معه يوم العقر^(٣).

ويرى الدكتور محمد حلمي أن آل المهلب لم يعملوا إلا لمصلحتهم الخاصة، وينكر عليهم ذلك ويقول: "يكفي أن نذكر منهم المهلب؛ الذي خدم بسيفه مصعب ابن الزبير؛ في ثورته باسم أخيه عبد الله ضد الأمويين، ثم لم يلبث أن باع سيفه لهؤلاء الأمويين؛ الذين رحبوا بهذه الصفقة، فسمحوا للبائع ولأسرته وقومه أن يكونوا من أبرز المنتفعين بالحرب، المتكتسبين بها"^(٤).

وهو يستهجن موقف يزيد من محاولته التحالف مع الخوارج؛ في حين أن والده المهلب نفسه كان متخصصاً في حرب الخوارج، خدمة للدولة الأموية^(٥). وبعد هذه الأحداث، طلب يزيد بن المهلب الأمان من الخليفة يزيد بن عبد الملك، ربما ليختبر ويفحص جدية الموقف عند الخلافة تجاه تحركه السابق، المهم أن أمير المؤمنين يزيد استشار أصحابه ومعاونيه، ثم كتب إلى يزيد بن المهلب بالأمان، وطلب منه أن يقيم في بلده، وتقدم خالد بن يزيد إلى أبيه بالبشرة، لكن يزيد لم يهتم بهذا الأمان^(٦).

(١) البلاذري: انساب، ج ٨ ، ص ٣٤٩٨.

(٢) المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٤٩٩.

(٣) الجرجاني : تاريخ جرجان، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٤) الخلافة والدولة في العصر الأموي، ص ٢١١ .

(٥) المرجع السابق، ص ٢٠٣ .

(٦) البلاذري: انساب، ج ٨ ، ص ٣٥١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٤).

وكان يحمل كتاب الأمان كل من: خالد القسري، وعمرو بن يزيد الحكمي، وقد أقبل بأمان يزيد، وكل شيء أراده^(١).

لكن يزيد كان يريد شيئاً آخر غير الذي يحمله كتاب الأمان، وقد أوضح عنه عندما خلع يزيد بن عبد الملك، حيث قال: "إني لأرجو أن أهدم مدينة دمشق حمراً حمراً"^(٢). هذا ما كان يريده يزيد بالفعل؛ لذلك نجده يرفض كتاب الأمان، أملاً في تحقيق طموحه، وإشباع رغبته من السلطان، حتى إن بروكلمان أشار إلى أن الخليفة "يزيد"، لم يكن يسعى إلى الصدام مع ابن المهلب، ويقول: "ولقد حاول الخليفة بادئ ذي بدء الاتصال بابن المهلب، ولكنه ما لبث أن سير على التأثيرين مسلمة بن عبد الملك"^(٣).

وعلى "فروخ" معللاً الخلاف بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلب، بقوله: "أما يزيد بن عبد الملك، فكان قيسى الهوى، وكان قد تزوج فتاة قريبة للحجاج بن يوسف، من أجل ذلك كان كارهاً ليزيد بن المهلب، الذي كان يمنيًّا وعدواً للحجاج"^(٤).

ويرى الباحث أن "فروخ" أخطأ في تشخيص طبيعة الخلاف بين الرجلين، وكلامه لا يصف الحقيقة، ويتجاهل حقيقة كبيرة وهي أن يزيد بن المهلب كان يطمع في الخلافة، وقد شق عصا الطاعة؛ حيث بايع له ناس بالخلافة، وتتجاهل أي وساطة للإصلاح، فهذا هو الخلاف الحقيقي مع يزيد بن عبد الملك، وليس الميل القبلي؛ الذي لم يكن له أثر يذكر في مسألة الخلاف بين الرجلين، بينما تكمن حقيقة الخلاف، أن يزيد بن المهلب خلعبني مروان، ودعا إلى نفسه، وأطاعه أهل البصرة والأهواز وفارس وواسط، وخرج في مائة وعشرين ألفاً، يريد قتال أهل الشام^(٥).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٤ ، ص ٣٣٥.

(٢) البلاذري: انساب، ج ٨ ، ص ٣٥٠٣.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٥٠.

(٤) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص ١٧٣ .

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ١٣٦ .

الخلافة تكلف مسلمة بـإنتهاء تمرد يزيد بن المهلب :

بعد هذه التطورات الخطيرة؛ لم يكن أمم الدولة إلا أن تقف موقفاً حاسماً تنهي به هذا التمرد، و تستأصل جذور يزيد ومن معه من الخارجين على السلطة الشرعية، لذا بادرت الخلافة بإرسال مسلمة على رأس جنود أهل الشام والجزيرة، ويعاونه ابن أخيه العباس بن الوليد، في جيش مبلغه ثمانون ألفاً^(١).

ونزل مسلمة والعباس من منطقة النخلية بالكوفة، فقال مسلمة: "ليت هذا المزوني لا يكلفنا اتباعه في هذا البرد، فقال حسان النبطي: أنا أضمن لك أنَّ يزيد لا يبرح العرصة، ولما بلغ يزيد بن المهلب إقبال مسلمة والعباس في جند أهل الشام والجزيرة كتب إلى محمد بن المهلب في القدوم من فارس؛ فقدم عليه، وعرض على يزيد أن يعسكر بفارس، وقال له: إن بها قلاعاً منيعة، فرفض يزيد وقال: أمع الوعول بفارس؟ فقال محمد: أقم بأهل مصرك، فقال حبيب: لا تخدعن، فإن أهل مصرك غير مقاتلين معك^(٢). "والرأي عندي أن تخرج من البصرة بجميع من معك إلى فارس، و تستولي على حصونها و قلاعها، فتكون في يدك، ويكون أهل الجبال معك، و خراسان قريبة منك، فإن سار القوم إليك؛رأيت رأيك في الأخذ بالشعاب والعقارب والمطاولة، أو في إبراز صفة المناizza والمناجزة، فقال يزيد: يا أخي أتجعلني طائراً على قمة جبل؟ والله ما الرأي عندي إلا مصادمة القوم، كانت لي أم على"^(٣).

ثم استخلف يزيد أخاه مروان على البصرة، و نادى في أصحابه، و خرج حتى نزل نهر معقل، و معه الأموال والأسلحة والآلات، و عسكر هناك^(٤).

ووقف العلماء المخلصون يشرحون للناس أبعاد الفتنة، و يظهرون الحقيقة، فكان للحسن البصري موقفاً واضحاً من تمرد يزيد حيث قال: "يا عجباً من يزيد، إنه بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين اتبعوه تقرباً إلىبني مروان، حتى إذا

(١) البلاذري : انساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٠٣ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٣٦.

(٢) البلاذري : انساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٠٥

(٣) المرعشي: غرر السير، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٣.

منعوه شيئاً من دنياهم، وأخذوه بحق الله عليه غضب؛ فعقد خرقاً على قصب، ثم نعق بأعلام فاتبعوه، وقال: إني خالفت هؤلاء فخالفوهم ثم دعاهم إلى كتاب الله وسيرة الخلفاء الراشدين، ألا وإن من سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد، ويرد إلى محبس عمر^(١).

وكذلك وقف قتادة بن دعامة الدوسي^(٢) الفقيه موقفاً واضحاً من ابن المهلب، حيث كان قتادة ينقص يزيد بن المهلب وينال منه، فبلغ ذلك يزيداً، فأرسل يزيد إليه وهو في الأزد، فلما دخل عليه شتمه، فأغاظ له قتادة، وتعرض قتادة للأذى بسبب موقفه من يزيد وجرح في عنقه، وبعث به إلى الأهواز فحبس فيها، ولم يزل محبوساً حتى قتل يزيد^(٣).

وكان مروان بن المهلب يحرض الناس على الخروج إلى يزيد، والحسن البصري يثبطهم ويقول: "أيها الناس، الزموا منازلكم، وكفوا أيديكم، وانقوا الله ربكم، لا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة، ليست لأهلها بباقة، واعلموا أنه لم تكن فتنة قط إلا وأكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء"^(٤).

وقال الحسن البصري -أيضاً- عن يزيد بن المهلب: "عدوا الله ابن المهلب، فاسق، قاتل الناس مع هؤلاء على غير هدى، ثم غضب غضبة، فعقد خرقاً على قصب، ثم نعق بأعلام وطعام فاتبعوه، فهو يزعم أنه يدعوه إلى كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين"^(٥).

وقال عمر بن يزيد، سمعت الحسن أيام ابن المهلب يقول: "والله لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا، لم يلبثوا أن يفرج الله عنهم، ولكنهم

(١) البلاذري: انساب، ج ٨ ، ص ٣٣٩٦-٣٣٩٧.

(٢) قتادة: هو ابن سليمان بن دعامة الدوسي من أهل البصرة كان معاصرًا للحسن، وهو أطلق لقب المعترضة على واصل بن عطاء ومن معه، توفي بواسط عام ١١٧هـ=٧٣٥م. ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٨.

(٣) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٩٩.

(٤) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٤٩ ؛ المرعشي: غرر السير، ص ١٧٣.

(٥) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٩٧.

يفرعون إلى السيف فيكلهم الله إليه، فو الله ما جاء الجازع إلى السيف بب يوم خير
قط^(١).

ثم أخذت الأمور تتجه نحو المواجهة، بعدهما سار يزيد ومن معه إلى واسط، فأقام بها حتى تكامل عسكره، واستخلف عليها ابنه معاوية، وأودعه الأموال والخزائن والأسارى الذين أخذهم بالبصرة، ثم سار حتى وصل فم النهر، إلى موقع يقال له العقر، من أرض بابل، فعسكر هنالك، وبلغ مسلمة نزوله العقر، فأمر بالسفن فجمعت له، ثم أمر فعقد له على جسر الفرات، وأمر الناس فعبروا، وأقبل العباس بن الوليد من الحيرة، فنزل مع مسلمة، وهما في خمسين ألفاً^(٢).

وببدأ الحشد الإعلامي، وببدأ التعبئة استعداداً للمعركة المنتظرة، حيث قام يزيد في جيشه خطيباً فقال: "قد أتاكما مسلمة والعباس في برابرة وأقباط وجرامقة وأنباط وجراجمة، وأخلاق مغاربة وصقالبة، وأوباش وأحباش، فلا يهولنكم أمرهم، فوالله ما لقوا مثل حدمكم، ولا مثل جدمكم، فأعيروني سواعدكم ساعة تصفون بها هامهم وخراطيمهم، فإنما هي غدوة أو روحه حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين"^(٣).

وكذلك صعد الحسن البصري حملته على يزيد بن المهلب، وقال الحكم بن عطيه، سمعت الحسن قد سئل عن قول الله: ﴿خُرُفَ الْقَوْلِ عُرُورًا﴾ فقال: "لم تروا إلى عدو الله ابن المهلب ، يدعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه، وقد نبذهما وراء ظهره"^(٤).

وقال أبو بكر الهمذاني، كنا عند الحسن، فذكر يزيد فقال: "عجبأ لهذا الحمار النهاق، يزعم أنه يدعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه، وقد نبذهما وراء ظهره، اللهم

(١) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٤٩٧ .

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٥٠ ؛ المرعشلي: غرر السير، ص ١٧٣ .

(٣) المرعشلي: غرر السير، ص ١٧٣-١٧٤ ؛ البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥٦ .

؛ ابن عبد ربہ: العقد الفريد، ج ٤ ، ص ٢١٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ٣٣٦-٣٣٧ .

(٤) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥٢٠ .

اصرع ابن المهلب صرعة تجعله بها نكالاً لما بين يديه وما خلفه وموعظة للمتقين^(١).

وقال هدية بن المبارك بن فضالة، سمعت الحسن يقول: واعجب من يزيد، اتخذ سيفه مخرقاً في طاعةبني أمية؛ حتى إذا منع لماضية من عيش؛ نصب خرقاً على قصب وقال: إني غضبت فاغضبوا، فاتبعه فراش نار، وذئبان طمع، يدعوه إلى سنة العمررين، يا فاسق، إن من سنتهما أن تُرد إلى محبس عمر^(٢).

وكان رجاء بين حيوة الرجل الصالح يلعن يزيد بن المهلب حين أتاه خبر تمرده على الخلافة^(٣).

وقد أثّرت حملة الحسن الإعلامية على يزيد، وفي الوقت نفسه؛ كان مروان ابن المهلب يدعو الناس إلى حرب أهل الشام، ويسرحهم إلى يزيد، وكان الحسن يثبط الناس عنه، وكان يطلب من الناس أن يلزموا رحالهم ويكتفوا أيديهم^(٤).

ثم وقف الحسن البصري في الناس خطيباً، وقال: "أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة، وطعم فيها يسير، ليس لأهلها بباب، وليس الله عنهم في ما اكتسبوا براضٍ، أنه لم تكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء، وأهل التيه والخبلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي، والمعروف التقى، فمن كان منكم خفياً فليلزم الحق، وليرحب نفسه بما يتزاوج الناس فيه من الدنيا، فكفاه والله - بمعرفة الله - إيه بالخير شرفاً، وكفى له به من الدنيا خلفاً، ومن كان منكم معروفاً شريفاً، فترك ما يتنافس فيه نظراً وله من الدنيا، أراد الله بذلك، فواهاً ما أسعده وأرشده، وأعظم أجره وأهدى سبيله، فهذا غداً القرير عيناً، الكريم عند الله مئاباً"^(٥).

(١) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٢٠.

(٢) المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٥٣٠.

(٣) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٥٣٥.

(٤) صفوتو: جمهرة خطب العرب ، ج ٢ ، ص ٣٥٤.

(٥) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٤ ؛ ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب؛ قام خطيباً، كما يقوم الناس، فأمر بالجذ والاحتشد ثم قال: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي - ولم يسمه - يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة؛ لظل يرعب أنفه علينا وعلى أهل مصرنا، ينكر علينا أن نطلب خيراً، وأن نذكر مظلمتنا، أما والله ليكفن عن ذكرنا وعن جمعه إلينا سقط الأبلة^(١)، وعلوج فرات البصرة، وإن لأنحين عليه مبرداً خشناً^(٢)!

فلما بلغ ذلك الحسن البصري قال: والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه، فقال له ناس من أصحابه: لو أرادك ثم شئت لمنعناك، فقال لهم: قد خالفتكم إلى ما نهيتكم عنه^(٣).

ويرى الباحث أن يزيد لم يتعرض للحسن البصري بالأذى رغم موقف الحسن المخالف له يرجع إلى قوة أنصار الحسن البصري من جانب ومن جانب آخر عدم رغبة يزيد في فتح جبهة جديدة مع أهل البصرة إذا أقدم على قتل الحسن، تضعف موقفه أمام خصومه الأمويين.

وفي هذه الأجواء، كانت ساعات الجسم تقترب رويداً رويداً، وكان كل واحد يعيي جشه استعداداً للمعركة الفاصلة، حيث استمرت هذه التعبئة ثمانية أيام، وعاباً مسلمة جنود الشام، ثم ازدلف بهم نحو يزيد، وجعل العباس وسيف بن هانئ الهمданى على ميمنته ، وعلى ميسرتها سويد بن القعاع التميمي، ومسلمة على الناس جميعاً، وكذلك عباً يزيد جنوده، وقد جعل على ميمنته حبيب بن المهلب، وعلى ميسرتها المفضل بن المهلب، وكان معه أهل الكوفة، وتساعده خيل لريعة، حسنة العدد، وكان أمامه العباس بن الوليد^(٤).

وحاول مسلمة تجنب الصدام العسكري؛ حتى الساعات الأخيرة، حيث كتب إلى يزيد بن المهلب ليرده عن طريقه، فقال مسلمة مخاطباً يزيد: إنك والله ما أنت

(١) الأُبْلَة: مدينة إلى جنوب البصرة، ابن منظور ، لسان العرب ج ١١ ، ص ٨.

(٢) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٤ ؛ ابن الجوزى: المنظم ، ج ٧ ، ص ٧٩.

(٣) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥ ؛ ابن الجوزى: المننظم ، ج ٧ ، ص ٨٠.

بصاحب هذا الأمر، صاحب هذا الأمر مغمور وموتور، وأنت مشهور غير موتور، فلما قرأ يزيد الكتاب، قال له رجل من الأزد، وهو عثمان بن المفضل، قدّم ابنك مخدلاً، حتى يقتل، فتصير موتوراً^(١).

ويؤكد البلاذري على أن مسلمة كان يحرص على الصلح؛ حتى اللحظات الأخيرة قبل المعركة، حيث توسط سعيد بن عمرو الحرشي، وقال لمسلمي: إن محمداً كان لي ودأ، فلو أذنت لي فلقتيه فأعطيته أماناً؛ لعله يصرف يزيد عن رأيه، قال: فسر إليهم، فأعطهم جميعاً الأمان، فدنا سعيد بن عمرو من عسكرهم، ونوه بمحمد فأتاها فقال: يا أبا حرب، أعن رأي ملأكم كان هذا، قال: إن يزيد خاف على نفسه فعل، ما ترى فأنمه، فأبى يزيد قبول الأمان^(٢).

ويعلق ابن أثيم على ذلك فيقول: "أقام القوم ثلاثة أيام، جيش مسلمة، وجيش يزيد، وكل يوم يبعث فيه مسلمة إلى يزيد بن المهلب يسأله أن يحقن الدماء، ويرجع عما هو عليه، على أن يوليه ويولى إخوته أي بلد شاء وأحب، ويزيد يأبى ذلك"^(٣)

ويرى الباحث أن مسلمة أقام الحجة، وبذل كل ما يستطيع في سبيل ألا تزلق الأمور باتجاه المواجهة العسكرية، لكن القدر أراد شيئاً آخر، "ليقضى الله أمراً كان مفعولاً" من أجل أن يصبح يزيد وحركته درساً تاريخياً بلانياً تتعظ به الأجيال.

وعليه الفرق واضح بين التصورين، حيث أن يزيد يفكر في توسيع ملكه، وتحقيق طموحاته التي أخفاها حيناً من الزمن، في الوقت الذي كان مسلمة يحرض على وحدة الدولة أرضاً وشعباً، ويبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس، من نفس وجهه ومال. وكان مسلمة يحرض كل الحرص على أن ألا يقاتل يزيد، حتى يعرض عليه الأمان، لدرجة أن العباس بن الوليد اعترض على سياسة عمه و قال: لا تؤمنه، فلا يبقى أحد إلا خلع وأفسد وسفك الدماء ثم ركن إلى الأمان، فأبى مسلمة وآمنه، فلم يقبل يزيد أمانه^(٤).

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ، ص ٣٣٢ ؛ الآبي : نثر الدر ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ .

(٢) البلاذري : انساب ، ج ٨ ، ص ٣٥١٣ .

(٣) الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .

(٤) البلاذري: انساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٣٦ .

وهكذا أقفل يزيد كل أمل، وباتت المعركة تُرى رأي العين، ولم يكن أمام مسلمة إلا السيف حَكْماً في فض التمرد، وبات يزيد يجهز الهجوم على مسلمة وجيشه؛ حيث انتخب ثمانية آلاف فارس، وضمهم إلى أخيه محمد، وأمره أن يكبس عسكر مسلمة ليلاً، ويضع فيه السيف، وكانت هذه مقدمة الهجوم الأول الذي خطط له يزيد^(١).

و كانت الخطة تقضي أن يواصل هجومه في الصباح الباكر، حيث قال: فإن كان ما أحب فذاك، وإن لا ناجزتهم غداً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله، فإني أرجو أن ينصرني الله عليهم، فقال له رجل من أصحابه يدعى السميدع: أيها الأمير، إن القوم يذكرون أنهم يدعونا إلى كتاب الله، وسنة نبيه محمد صلي الله عليه وسلم، فكيف ندر بهم وبناسهم، فتبسم يزيد وقال: ويحك يا سميدع أو تصدق أنبني أمية يعملون بالكتاب والسنّة؟! ولا يهولنكم مسلمة والعباس، فهو الله لوددت أنهم وجميع بنـي أمـية؛ وأنا وإخـوتـي فـي حـظـيرـة وـاحـدةـ، فـلا يـبـقـيـ مـنـ إـلـاـ مـنـ غـلـبـ بـسـيفـهـ، وـالـلـهـ لو كـانـواـ مـلـءـ الـأـرـضـ جـمـيـعاـ، وـأـنـاـ وـحـديـ، وـلـيـسـ مـعـيـ أـحـدـ مـنـ النـاسـ، لـمـ بـرـحـتـ هذهـ العـرـصـةـ أـبـدـاـ كـانـ لـيـ أـمـ عـلـيـ^(٢).

وكانت بداية المعركة أن خرج رجل من أهل الشام، ودعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد في البداية، ثم خرج له محمد بن المهلب، فحمل عليه وضربه على كفه فقطعت يده، وهزم الشامي، وكانت هذه المبارزة مقدمة للمعركة العامة^(٣).

وكان مسلمة قد أعدَّ مواجهة ليزيد وجنوده؛ حيث أمر مسلمة بإحراق الجسر الذي على النهر، وألهب فيه النار، فسطع دخانه، وقد اقتل الناس، ونشبت الحرب، ولما رأى الناس أن الجسر قد أحرق، هزم أصحاب يزيد واضطربوا، وسأل يزيد: مما هُزم الناس؟ فقالوا له: أحرق الجسر، فقال: و هل وقع قتال ينهزم منه الناس؟

(١) ابن أثيم: الفتوح ج ٤ ، ص ٢٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٤١ .

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

وعلم هو ومجموعة من أصحابه بضرب وجوه من انهزم، ولكنه لم يستطيع أن يسيطر على الموقف، وفر جيشه في كل ناحية^(١)

وقف يزيد أمام هذا المشهد، وقال عند انهزام ورار جيشه: "أني لأرجوا ألا يجعوني الله وإياهم في مكان واحد أبداً، دعوهم - يرحمهم الله - غنم عدا في نواحيها الذئب"^(٢).

وقد أدرك يزيد أنه يسعى خلف سراب، وأن طموحاته تتذرع أمام لحظة الحقيقة لكن يزيد كان يرفض الفرار، وقد امتنى له برذوناً^(٣) أشهب، فأقبل نحو مسلمة لا يريد غيره، ولما اقترب منه دعا يزيد بفرسه ليركبها، فعطفت عليه خيول أهل الشام وعلى أصحابه، وكان رجل من بني كلب يقال له القحل بن عياش، فلما نظر إلى يزيد قال: يا أهل الشام، هذا والله يزيد بن المهلب، والله لأقتلنـه أو يقتلنـي، إن دونـه ناسـاً فمن يحمل معـي ليـكفيـني أصحابـه حتى أصلـ إـلـيـه؟ قالـ نـاسـ: نـحنـ نـحملـ مـعـكـ، فـحملـوـاـ بـأـجـمـعـهـمـ، فـاضـطـرـبـوـاـ سـاعـةـ، وـسـطـعـ الغـبارـ، وـانـفـرـجـ الـفـرـيقـانـ عنـ يـزـيدـ قـتـيـلاـ، وـعـنـ القـحلـ بنـ عـيـاشـ بـآـخـرـ رـمـقـ، وـأـشـارـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ يـرـيـهـمـ مـكـانـ يـزـيدـ^(٤).

وبقي المفضل بن المهلب يقاتل أهل الشام، ولا يدرى عن قتل يزيد، وانكشفت خيل ربيعة، فاستقبل المفضل ربيعة بالسيف يناديهـمـ، يا مـعـشـرـ رـبـيـعـةـ الكـرـ الكـرـ، وـالـلـهـ ماـ كـنـتـ بـكـشـفـ وـلـاـ لـثـامـ، وـلـاـ هـذـهـ لـكـمـ بـغـدـرـ لـاـ، فـلـاـ يـؤـتـيـنـ أـهـلـ العـرـاقـ الـيـوـمـ مـنـ قـبـلـكـمـ، فـدـكـمـ نـفـسـيـ، اـصـبـرـوـاـ سـاعـةـ مـنـ نـهـارـ، فـاجـتمـعـوـاـ إـلـيـهـ يـرـيـدـ الـكـرـ عـلـيـهـمـ فـقـيـلـ لـهـ: أـنـ حـبـبـاـ وـيـزـيدـاـ وـمـحـمـداـ قـدـ قـتـلـوـاـ، فـمـاـ تـصـنـعـ هـاـ هـنـاـ وـقـدـ

(١) الطبرـيـ: تاريخـ ، جـ ٤ـ ، صـ ٨٥ـ ، ابنـ الأـثـيـرـ: الكاملـ ، جـ ٤ـ ، صـ ٣٤١ـ .

(٢) الطبرـيـ: تاريخـ ، جـ ٤ـ ، صـ ٨٥ـ ، ابنـ الأـثـيـرـ: الكاملـ ، جـ ٤ـ ، صـ ٣٤١ـ .

(٣) برذونـاـ: البرذونـ هوـ الحـمـارـ أوـ الـبـغلـ النـشـيطـ القـويـ، أـمـاـ الفـرسـ فـلاـ يـقـالـ فـيـهـ إـلـاـ جـوـادـاـ. ابنـ منظورـ: لـسانـ الـعـرـبـ، جـ ١٣ـ ، صـ ٥٢١ـ .

(٤) الأـزـديـ: تاريخـ الموـصـلـ صـ ١١ـ .

انهزم الناس؟ وأخبر الناس بعضهم بعضاً، فتفرقوا، ومضى المفضل، وأخذ الطريق إلى واسط^(١).

ونقل المرعشى عن الجاحظ، أن يزيد بن المهلب كان قتيل الغبار، و ذلك أنه وجد صريعاً، وليس به أثر طعنة ولا ضربة، وهو مسدود المنخارين بالغبار، ووجد في القتلى مدرك بن المهلب، وأربعة من قادة بنى المهلب، حبيب ومحمد وحماد ومدرك وقائدهم العام يزيد^(٢).

ويبدو من خلال الروايات المختلفة أن الجاحظ لوحده انفرد حول قضية مقتل يزيد، عندما ذكر أنه قتيل الغبار، أما بقية المصادر فأكدت على أنه قتل على يد العجل بن عياش "القحل"، فذكر البلاذري: "فلما توسط يزيد المعركة؛ لقيه القحل بن عياش، فاختلفا ضربتين، فقتل كل منهما صاحبه"^(٣).

أما الطبرى فقال: "وسطع الغبار، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً، وعن القحل بن عياش بأخر رمق، فألواماً إلى أصحابه يریهم مكان يزيد، ويقول أنا قتنته، ويومئ إلى نفسه إنه هو قتلني، ومرّ مسلمة على القحل بن عياش صريعاً إلى جنب يزيد بن المهلب^(٤).

ويذكر ابن أعثم مقتل يزيد ابن المهلب بقوله: "وارتفع الرهج، وسطعت الغبرة، واضطرب القوم اضطراباً شديداً، ثم انجلت الغبرة عن الفريقين، وقد قتل منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف، وإذا بيزيid بن المهلب في وسط القتلى من الفريقين، وقد وقعت به نيف وثلاثين ضربة"^(٥).

(١) الأزدي: تاريخ الموصل ، ص ١٢ ، ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٤٢ .

(٢) المرعشى: غرر السير، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٣٠٥ ؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٣ ، ص ٩٩ .

(٣) أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥١، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٣٠٦ .

(٤) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٥) الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

أما المسعودي فقد أشار إلى قتل يزيد بقوله: "فالنقي الجيشان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وولى أصحاب يزيد عنه، فقتل في المعركة، وصبر إخوته أنفسهم؛ فقتلوا جميعاً"^(١).

وقد أشار ياقوت إلى مصرع يزيد بن المهلب فقال: "فأجلت الحرب عن قتل يزيد بن المهلب"^(٢).

وهكذا أجمعـت الروايات المختلفة وفي جل مصادرها، على أن يزيد قتل بالسيف، ولم يقتل بفعل الغبار، وإن كان الغبار نتيجة طبيعية لحدوث أية معركة.

على أية حال، فقد انتهـت المعركة وقتل يزيد ومعظم إخوته، وأسر من أصحاب يزيد في المعركة ألفان وثمانمائة، فبعث بهم مسلمة بن عبد الملك من العقر^(٣) إلى ذي الشامة، عاملـه على الكوفة محمد بن عمرو، ولما قتل يزيد وأتي برأسه ورؤوس أصحابـه إلى مسلمة، أرسـل بها مع عزام الظبي إلى يزيد بن عبد الملك وافداً وبشيراً، وبـعث برأس يزيد خاصة مع محمد بن عمر المخزومي، فـلما وردت الرؤوس على يزيد بن عبد الملك سجد ودعا بحجام؛ فأخذـ من ناصيته ونواصـي من حضرـه، وكان ابن شهاب الزهري فيـمن حضرـه، وهو شاهـد على هذه الحادـثـة^(٤).

ولعلـه أراد بهذهـ الحجـامة التي تخلـصـ المـتحـجمـ من الدـمـ الفـاسـدـ أنـ يـشيرـ إلىـ إنـ تخلـصـهـ منـ يـزيدـ هوـ خـلاـصـ لـلـأـمـةـ منـ رـمـزـ منـ رـمـوزـ الـفـسـادـ فـيـهاـ.

ولـماـ وضعـ رـأسـ يـزيدـ وـرـؤـوسـ إـخـوـتـهـ بـيـنـ يـدـيـ مـسـلـمـةـ قـالـ: "أـتـرـىـ هـؤـلـاءـ الـقـوـمـ قـدـ خـرـجـواـ عـلـيـنـاـ يـظـنـونـ أـنـ الـخـلـافـةـ فـيـهـمـ، لـئـنـ كـانـواـ ظـنـواـ ذـلـكـ؛ فـقـدـ ظـنـواـ إـفـكـاـ وـزـورـاـ"^(٥).

ويرـىـ البـاحـثـ أنـ ماـ ذـكـرـهـ مـسـلـمـةـ عنـ مـصـرـعـ يـزيدـ وـإـخـوـتـهـ؛ هوـ التـشـخـيـصـ الـحـقـيقـيـ لـطـبـيـعـةـ الـصـرـاعـ بـيـنـ الـخـلـافـةـ كـمـؤـسـسـةـ شـرـعـيـةـ رـسـمـيـةـ؛ وـ بـيـنـ يـزيدـ الطـامـعـ

(١) مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٤ .

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ص ١٣٦ .

(٣) العقر: موضع في بابل بالقرب من كربلاء قتل عنده يزيد بن المهلب، ياقوت، ج ٤، ص ١٣٦ .

(٤) البلاذري: انساب: ج ٨ ، ص ٣٥١٢ .

(٥) ابن أثـمـ: الفـتوـحـ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .

في الخلافة؛ المستند في خروجه إلى بعض الأمجاد التي يرى أنها تؤهله للخلافة، مستغلاً أمواله الفاحشة في شراء الأنصار والأتباع، ثم ذهبت أحلامه أدراج الرياح، وتبيّن له أنه يرثي خلف سراب.

وقد صدق فيهم قول رجل من آل المهلب أنفسهم: كان يوالى الخلافة حيث سأله الخليفة يزيد بن عبد الملك عندما انهزم يزيد بن المهلب وأتباعه، قائلاً: يا أخا الأزد، ما تقول فيبني عمك هؤلاء، فقال يا أمير المؤمنين "قوم زرعتهم الطاعة وحصدتهم الفتنة" ^(١).

وبعدما انتهت المعركة تماماً، هرب من بقي من آل المهلب بعيلهم إلى قنديبل، وحرقت منازلهم بالبصرة وهدمت، وأراد مسلمة أن يقضي نهائياً على الفتنة، ويجتث جذورها، فأرسل يتبع فلول ولد المهلب، فوجه إليهم هلال بن أحوز المازني من بني تميم، وعقد له على اثنى عشر ألفاً من أهل الشام والعراق فأتاى قنديبل فنصب هلال رايته، ونادى مناديه: من هرب فهو آمن، ومن أتى هذه الراية فهو آمن، إلا أن يكون من ولد المهلب، فتسارع الناس إليه ثم تقابل هلال مع مدرك بن المهلب، و هُزم مدرك و من معه، و كانت هذه الهزيمة تمثل نهاية المهاجمة عسكرياً. ^(٢)

وقد حرص جيش مسلمة وقادره هلال على أعراض آل المهلب من النساء، وأمر جيشه ألا يتعرض أحد للنساء وما في أيديهن وقال: من رفع ستراً، أو دخل على امرأة فلا ذمة له، وشكّت امرأة من آل المهلب، رجلاً دخل منزلها، فضرب عنقه، وكان نساء آل المهلب يقلن لو أن المهلب ولينا؛ ما فعل بنا إلا دون ما فعل هلال بن أحوز ^(٣).

وهكذا كان مسلمة حريصاً على إنتهاء الفتنة ومن يقف خلفها، وليس هدفه القتل أو التعرض لأحد دون وجه حق، ثم بعث هلال برؤوس القوم ونسائهم وأولادهم إلى مسلمة، وهو مقيد بالحيرة، فلما وضعت الرؤوس بين يدي مسلمة،

(١) ابن أثيم: الفتوح ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ ، المرعشي: غرر السير ، ص ١٧٥ .

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٢١ ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ .

(٣) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٢٢ ؛ الذهبـي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ص ٩ .

جعل ينظر إليها و يقول: هذا رأس المفضل، وهذا رأس عبد الملك، وهذا رأس مروان، ثم حلف مسلمة أن يبيع نسائهم وأولادهم بيع العبيد والإماء، فقام إليه الجراح بن عبد الله الحكمي، فقال: أصلح الله الأمير، فإني قد اشتريتهم منك بمائة ألف درهم تبرئة ليمينك، وقد أعتقهم مسلمة، وعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وألحقهم بقومهم بالبصرة^(١).

و يُذكر أن هلال بن أحوز تمكن من القضاء على الفتنة نهائياً، حيث أنه قتل كل من حمل سلاح الفتنة وقاتل به، حتى كاد أن يفنيهم، وذكر أن آل المهلب مكثوا بعد هلال عشرين سنة، يولد فيهم الذكور فلا يموت منهم أحد^(٢).

وبعدما انطفأت نار الفتنة، وتمكنـت الخليفة من إخمادها نهائياً، أراد الخليفة يزيد ابن عبد الملك التكيل بالخارجـين على الدولة، والذين شقوا عصا الطاعة؛ ليجعل منهم عظة وعبرة، فأمر الخليفة يزيد برأس يزيد بن المهلب، فطيف به في مدائن الشام ينظر الناس إليه، ثم أتـي به بعد ذلك فنصب على باب توماء بدمشق، ونصب رؤوس إخوانـه عن يمينه وعن شمالـه^(٣).

ولعله أراد بذلك التعريف بمقتل قادة الخارجـين عليه، وردع كل من يفكر بالخروج و لما خلع يزيد بن المهلب وقتل، قبض يزيد بن عبد الملك أموال بنـي المهلب وقد أصابـ لهم أربعة آلاف جاموسـة، وكانـ أهل أنطاكـية و قنسـري^(٤) قد استولـوا علىـ الكثـيرـ منها، وحازـوه لأنفسـهم^(٥).

(١) ابن أثـمـ: الفتوـحـ، جـ ٤ـ، صـ ٢٥٧ـ؛ المرـعشـيـ: غـرـرـ السـيرـ، صـ ١٧٧ـ - ١٧٨ـ.

؛ ابن الأثيرـ: الـكـاملـ، جـ ٤ـ صـ ٣٤٤ـ؛ ابنـ كـثيرـ: الـبـداـيـةـ وـ النـهاـيـةـ، جـ ٩ـ، صـ ٢٢٢ـ.

(٢) الطـبـريـ: تـارـيـخـ، جـ ٤ـ، صـ ٨٩ـ؛ المـسـعـودـيـ: مـرـوجـ الـذـهـبـ، جـ ٣ـ، صـ ٢٤٤ـ - ٢٤٥ـ.

(٣) ابنـ أـثـمـ: الفـتوـحـ، جـ ٤ـ، صـ ٢٥٥ـ؛ المرـعشـيـ: غـرـرـ السـيرـ، صـ ١٧٥ـ.

؛ ابنـ كـثيرـ: الـبـداـيـةـ وـ النـهاـيـةـ، جـ ٩ـ، صـ ٢٢٢ـ.

(٤) قـنـسـريـ، مـدـيـنـةـ تـقـعـ عـلـىـ شـمـالـ الـفـرـاتـ مـنـ الـجـانـبـ الـشـرـقـيـ نـاحـيـةـ الـجـزـيرـةـ؛ يـاقـوتـ: مـعـجمـ الـبـلـدانـ، جـ ٢ـ، صـ ٥٢٩ـ.

(٥) البـلـاذـريـ: فـتوـحـ الـبـلـدانـ، جـ ١ـ، صـ ١٧٢ـ.

و بعد نهاية فتنة المهلب، قام بعض الشعراء بتراثهم، حيث قال الفرزدق في آل المهلب:
 كَانُوكُمْ مِنْ شَمُودِ الْحُمْرِ أَوْ إِرَمٍ
 فَأَصْبَحُوكُمْ لَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ^(١)

و قال الشاعر ثابت بن قطنة يرثي يزيد فقال :

وَهَاجَ لَكَ الْفُؤَادُ الْمُتَيَّمَا
 وَقَدْ أَرْقَتْ عَيْنَايَ حَوْلًا مُحَرَّمَا
 دَعْتُهُ الْمَنَايَا فَاسْتَجَابَ وَ سَلَّمَا^(٢)

أَبَى طُولُ هَذَا اللَّيلِ أَنْ يَتَصَرَّمَا
 أَرْقَتْ وَ لَمْ تَأْرَقْ مَعِيَ أُمُّ خَالِدٍ
 عَلَى هَالِكٍ هَذَهُ الْعَشِيرَةُ فَقَدْهُ

و قال ثابت بن قطنة أيضاً :
 كُلُّ الْقَبَائِلِ بَأْيَاعُوكَ عَلَى الَّذِي
 حَتَّى إِذَا حَمَيَ الْوَغْنَى وَ جَعَلَتُهُمْ
 إِنْ يَقْتُلُوكَ فَإِنْ قَتَلَكَ لَمْ يَكُنْ^(٣)

تَدْعُوا إِلَيْهِ طَائِعِينَ وَ سَارُوا
 نُصْبُ الْأَسِنَةِ أَسْلَمُوكَ وَ طَارُوا
 عَارًا عَلَيْكَ وَ بَعْضُ قَتْلٍ عَارُ^(٤)

و قد علق جعفر شهيدي على ترك العراقيين ليزيد بن المهلب، وتخليهم عنه حين المعركة، فقال: "لم تكن التربية الإسلامية والنظام الديني قد أثر جيداً في معظمهم حتى ذلك الوقت، ولذلك كان للعراقيين أهواء وأهداف وطبائع مختلفة؛ خلافاً للوحدة والتضامن اللذين يتصف بهما أهل الشام، وكان واضحاً مدى الصعوبات والمشاكل التي واجهت قادتهم والعاملين على ضبطهم"^(٤) وقال أحد الشعراء في آل المهلب أيضاً:

غَرِيبًا عَنِ الْوُطَانِ فِي زَمَنِ الْمَحْلِ
 وَ بِرُّهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي^(٥)

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ شَاتِيَا
 فَمَا زَالَ بِي إِحْسَانُهُمْ وَ إِفْقَادُهُمْ

كَانُوا لِيَوْمِكَ يَا يَزِيدُ شُهُودًا^(٦)

و قال ثابت أيضاً :

يَا لَيْتَ أُسْرَتَكَ الَّذِينَ تَغْيِبُوا

(١) البلاذري: انساب، ج ٨ ، ص ٣٥٣٢ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٤٤ .

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) تاريخ الإسلام التحليلي في نهاية العهد الأموي، ص ١٧٤ .

(٥) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٦) الأصفهاني: الأغاني، ج ٤ ، ص ٢٦٩ ؛ ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

؛ الآبي: نثر الدر ، ج ٧ ، ص ٢٦٦ .

و قال أيضاً :

أَلَا يَا هِنْدُ طَالَ عَلَيَّ لَيْلًا
وَ عَادَ قَصِيرُهُ لَيْلًا تَمَامًا^(١)

و انبرى كثير عزة لدى الخليفة يزيد يتوسط لأسرى آل المهلب فقال :

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَ حَسْبُهُ
فَمَا تَحْتَسِبُ مِنْ صَالِحٍ لَكَ يُكْتَبُ
وَ أَعْظَمُ حَلْمٍ حَبْسُهُ حَلْمٌ مُغْضَب^(٢)

و قيل لكثير عزة: أما ترى آل المهلب قتلوا بالعقر؟ قال: ما أجل الخطب،
ضَحَّى آل أبي سفيان بالدين يوم الطف^(٣)، وضحى بنو مروان بالكرم يوم العقر^(٤).
وقال الكلبي: نشأت وهم يقولون: ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين، ويوم
العقر بالكرم^(٥).

ويقول البغدادي: "إن الشاعر ثابت بن قطنة أكثر من مدح يزيد؛ لأنه كان
من أصحابه المقربين منه، و كان يزيد يوليه أعمالاً من أعمال التغور، و كان قد
ولاه عملاً من أعمال خرسان"^(٦).

وقد تناول بعض الكتاب والمؤرخين فتنة يزيد بن المهلب وعلقوا عليها،
ويجدر بالباحث أن ينقل طرفاً منها؛ حيث يقول يوسف العش: "إن ثورة يزيد بن
المهلب ليست ثورة جدية، ولم تكن مؤهلاً للنجاح فقط، ولكنها أسفرت عن نتائج
خطيرة، فلئن كان بنو المهلب قبل الثورة على خصام مع الحاج وسياسته، فهم
الآن ومن تبعهم من أزد عمان على حرب مع بني أمية عاماً، واليمنيون خاصة
لابد أن يقفوا إلى جانبهم، فيضمروا السوء والغدر لبني أمية، وهكذا فإن بني أمية
خلقوا ضدهم منذ ثورة المهلبة عدواً كبيراً مستعداً يتربص، وكان خصومهم من

(١) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٨٩.

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه، ياقوت، معجم
البلدان ج ٤، ص ٣٦ .

(٤) المرعشى: غرر السير، ص ١٧٦ .

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٣٠٨ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ، ص ٨ .
؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٦) خزانة الأدب، ج ٩ ، ص ٥٧٩-٥٧٨ .

أهل البيت حربين بأن يستقدو من هذا العدو، فعلينا أن نورخ بداية الدولة العباسية من هذه الثورة؛ التي أمدت أهل البيت بعصبية يمانية كبيرة ضد البيت الأموي^(١).

أما أمير سيد علي فيقول: "كانت ثورة يزيد بن المهلب، التي كادت أن تقوض أركان الخلافة الأموية نتائج بعيدة الأثر برغم قمعها، كما أن استئصال شافة "أزد" اليمانية، التي ينتسب إليها يزيد بن المهلب، في المعارك التي دارت رحاها في الكرمان والعراق في ساعد الدولة العربية، وألهب نار العصبية في الأندلس وإفريقيا والشرق"^(٢).

وقد رأى ضرار صالح أن الخلاف بين يزيد والدولة الأموية كان خلافاً عصبياً محضاً، وسبب هذه الخلاف يرجع إلى أمر مهم، هو أن العرب في أيام الخلفاء الأمويين كانوا ينقسمون إلى طائفتين كبيرتين المضدية والقطانية، وكان عمال الأمويين يحاولون اكتساب الناس بشتى الوسائل؛ والتي من بينها الإنعام عليهم بالمال^(٣).

ويرى الباحث أن حصر الخلاف في الزاوية العصبية فقط، فيه تجن على الحقيقة، وإغفال لطموحات يزيد التي ما عاد يستطيع هو نفسه إغفالها، والتي أوضح عنها، وبدا ذلك جلياً من خلال ما استعرضه الباحث في الصفحات السابقة. وهذا ما يؤكده محمد شعبان حيث يقول: "من الخطأ أن نفترض هذه الثورة على أنها مجرد صراع فبلي بين اليمانية والقيسية، ومن المؤكد أن هذا التفسير لا تؤيده مصادرنا، في بينما انضمَّ أبناء قبائل من جميع البطون إلى يزيد بن المهلب، فإن قبائل أخرى ذات صلة به من الأزد وقفوا في وجهه"^(٤).

أما "بيضون" فيقول في ثورة يزيد بن المهلب : "إن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجمالي، كان قائدتها مضطراً إلى اتخاذ موقفه خوفاً من العقاب المترافق به على يد الخليفة؛ ولذلك لم يكن لها من مقومات التنظيم ما يؤمن لها

(١) الدولة الأموية، ص ٢٨١.

(٢) مختصر تاريخ الدول والتمدن الإسلامي ، ص ١١٤ .

(٣) العرب من معين إلى الأمويين، ص ١٣٤ .

(٤) صدر الإسلام والدولة الأموية ص ١٥٣ .

الوقوف في وجه القوات الأموية، التي لازالت تحتفظ ب مواقعها الثابتة في العراق، فتم تصفيتها بغير صعوبة على يد مسلمة بن عبد الملك^(١).

و كانت حركة يزيد بن المهلب الارتجالية أحد أهم الأحداث الداخلية في العهد الأموي، إذا ما استثنينا ما قام به الخوارج من تحرك محدود بقيادة شوذب.^(٢)

ويتساءل "العش" عن مبررات ثورة يزيد فيقول: هذه الحوادث التي قامت عليها ثورته، فهل تفسر الثورة؟ و هل نستطيع بها أن نتصور الوضع الذي أدى إليها؟ لابد لنا من تحديد أكبر وتوضيح أصح، فالثورة لا تقوم على عصيان شخص غاضب أو خائف^(٣).

ويضيف العش قائلاً: "كان عظيماً على أهل العراق أن يتسلم الخليفة يزيد الثاني بحبه للحجاج وأهله، لكن هذا الشعور لم يكن كافياً لإشعال الثورة عندهم، إنما كان كافياً لسكتهم على ثورة تقوم بينهم وامتناعهم عن إخمادها، أما الذي قام على الثورة فهم شيعة يزيد بن المهلب وعددهم قليل، وكان من البصرة من يدرك أن يزيد بن المهلب لم يكن يقصد خدمة الدين بثورته، بل كان يتبرج بذلك تبجحاً، وعلى رأس هؤلاء الحسن البصري، وأظهر هذه المرة أيضاً أن الثورة علىبني أمية عبث يؤول إلى النكبة، بل هذه المرة بالذات أقل جدية، وأنى إلا تتبعج^(٤).

ويقول الدكتور رياض عيسى: "إن الخليفة يزيد اعتمد على أخيه مسلمة، وابن أخيه العباس بن الوليد؛ في القضاء على الفتنة الداخلية وتوطيد أركان سلطنته، فاستطاع مسلمة القضاء على فتنة شوذب الخارجي، وفتنة يزيد بن المهلب؛ التي تعتبر من أهم الأحداث زمان الخليفة يزيد^(٥).

(١) تكوين الاتجاهات السياسية في الإسلام من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٩.

(٣) الدولة الأموية، ص ٢٧٩.

(٤) المرجع السابق، ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥) النزاع بين أفراد البيت الأموي ودوره في سقوط الخليفة الأموية، ص ١٢٦-١٢٧.

ويعلق الدكتور زغلول عبد الحميد على أحداث ثورة يزيد فيقول: "وبذلك انتهى المهاجنة نهاية تعرية^(١) .

ويعلق الدكتور عبد الشافي عبد اللطيف على ثورة يزيد قائلاً: "وهذا انتهت إحدى الثورات العنيفة، التي اندلعت ضد الدولة الأموية، والتي دفع إليها الحقد والطموح، وربما العصبية القبلية^(٢) .

ويؤكد الدكتور عبد العزيز على أن هذه الفتنة أثرت بشكل كبير على الفتوحات الخالدة التي تمت في العهد الأموي، وهي بلا ريب عوامل البناء، والعمد القوية التي ارتفع عليها صرح الدولة وسط العواصف الهوجاء التي كانت تتناوشها، و الزلازل العنيفة التي كانت تتبع من داخلها، وتتسطع عليها في كل وقت وحين، ولست أدرى لو كان الجو صفاً لنبي أمية، ونعموا بالهدوء والسلام بالداخل، ماذا كان سيتّم على أيديهم من فتوحات؟ أغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض، وأن موجة الفتح الإسلامي كانت ستكتسح كل ما يصادفها من عقبات، فيعلو لواء الإسلام خفاقاً في أغلب الأنحاء من أرض الله الواسعة^(٣) .

وهكذا نجد لمسلمة الدور الرائد في إخماد الفتنة، وتوطيد أركان الخلافة داخلياً، كما كان يسطر أروع الفتوحات خارجياً، فقد كان بحق الدرع الواقي، وصمام الأمان لدولة الإسلام، فما أصدق فراسة والده عبد الملك عندما قال في حقه: "مسلمٌ نائبُكَ الذي عنه تقترون، ومجنكم الذي به تستجنون ، أصدروا عن رأيه^(٤) .

(١) تاريخ الدولة العربية، ص ٨٢.

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، ص ٥٢٠.

(٣) تاريخ الدولة العربية ، ص ١٤٠

(٤) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢ ص ١٢٤.

الفصل الرابع

الجوانب البارزة في حياة مسلمة

- * المبحث الأول: الجانب العسكري
- * المبحث الثاني: الجانب الإداري
- * المبحث الثالث: الجانب الأخلاقي
- * المبحث الرابع: الجانب الأدبي

المبحث الأول

الجانب العسكري في حياة مسلمة

الجانب العسكري في حياة مسلمة:

لقد تميز مسلمة بأنه قائد عسكريٌّ وفتح عظيم، ونالت شخصيته إعجاب العلماء وكان محل إجماع الخلفاء، الذين عاصرهم منذ زمن والده عبد الملك إلى زمن أخيه هشام، وكان عبد الملك له وجهة نظر واضحة في ابنه مسلمة، الذي كان يُعدُّ ليكون قائداً عسكرياً، ويبدو ذلك من خلال قول عبد الملك الذي أشرنا إلى جزء منه سابقاً: "أيها الناس: هذا ابني مسلمة، هو سيفي ورمحي وسهمي، قد رميته به في نحر العدو، وبذلت دمه ومحنته لله عز وجل، ورجوت أن يقضى الله به جيش الروم، فأعينوه وانصروه، وقوموا معه وانصروه إذا كسل، وشجعوه إذا فشل، وأيقظوه إذا غفا، وفهموه إذا هفا"^(١).

وكان عبد الملك يوصي ب المسلم وهو على فراش الموت، حيث قال: "يا بنى: أخوك مسلم نابكم الذي تفترون عنه، ومجنك الذي تستجنون به، اصدروا عن رأيه^(٢).

وبالرغم من أن مسلمة تميز بالعديد من الصفات، إلا أن الجانب العسكري كان الأبرز في شخصيته، وهو الجانب الذي أوقف عليه مسلمـة جـل حـياتـه، فهو ابن البيئة العربية التي ساعدته في صقل مـواهـبه وتمـيمـة قـدرـاته أكـثـر ولو طـرقـناـ الجانب العسكري في حـيـاةـ العـربـ، لـوـجـدـنـاـ أـنـ العـربـ بـرـعـواـ فـيـ مـارـسـةـ كـافـةـ أـسـالـيـبـ القـتـالـ، وـأـنـقـنـواـ فـنـونـهـ فـيـ مـخـتـلـفـ مـراـحـلـ المـعرـكـةـ، إـذـ إـنـهـ كـانـواـ قـدـ أـفـادـواـ مـنـ تـجـارـبـ الـأـمـمـ السـابـقـةـ، فـيـ بـعـضـ الـأـسـالـيـبـ وـالـنـظـمـ الـحـرـبـيـةـ، فـقـدـ بـرـعـواـ فـيـ هـذـهـ الـأـسـالـيـبـ بـرـاعـةـ أـذـهـشتـ خـصـومـهـمـ، ثـمـ أـضـافـواـ إـلـيـهاـ الشـيـءـ الـكـثـيرـ مـنـ إـيدـاعـاتـهـ، وـوـضـعـواـ مـفـاهـيمـ جـديـدةـ لـلـقـتـالـ، كـمـ اـسـتـحـدـثـواـ أـسـالـيـبـ تـعـبـويـةـ جـديـدةـ، دـلـتـ عـلـىـ عـقـرـيـتـهـمـ وـإـمـكـانـيـاتـهـ الـقـتـالـيـةـ الـكـبـيرـةـ، وـقـوـةـ صـبـرـهـمـ^(٣).

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ١٢٤.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٢٤.

(٣) الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص ١٧١.

وكذلك برزت بشكل واضح الروح المعنوية العالية للمقاتلين، في كل المعارك التي خاضتها الجيوش العربية الإسلامية، على امتداد العصر الأموي، والتي هي امتداد للروح المعنوية العالية، التي كان يتحلى بها المقاتلون في صدر الإسلام^(١).

وقد تميز مسلمة بالخطيط السليم؛ لأن العمل الناجح لا بد وأن يسبق بخطيط جيد، حيث التخطيط المسبق يُقدر العقبات، ويضع الاحتمالات اللازمة في ضوء العلم والمعطيات المتوفرة. والخطيط السليم يمثل أبرز الأسباب في تحقيق النصر والتمكين، بل إن النصر يتوقف أحياناً على قوة التخطيط الإداري، وحسن التنظيم العسكري، وأن الفشل في التخطيط يعني خسارة مئات أوآلاف الجنود، أما الخطأ في التخطيط على الورق لا يكلف أكثر من ورقة جديدة، أما في الميدان فهو يكلف الكثير الكثير^(٢).

ولابد للقائد الناجح أن يتصرف بالدهاء، والدهاء هو في نهاية المطاف إهراز النصر على العدو، لأنه يتيح إمكانية أخذ العدو على حين غرة، ويرغمه على الدخول في المعركة وهو غير مستعد لها، وبمعنى آخر يشل إرادته، ويحرمه من إبداء المقاومة المنظمة^(٣).

وقد طبق ذلك مسلمة أثناء إخماده لفتنة يزيد بن المهلب، حيث أعد له مفاجأة دفعته إلى الهزيمة، وفر جيشه في كل ناحية^(٤).

الأساليب والخطط العسكرية التي استخدمها مسلمة في غزواته:
استخدم القائد مسلمة العديد من الأساليب العسكرية، في غزواته المتعددة على الجبهات المختلفة، في المعارك التي خاضها مع العدو، ويمكن إجمال هذه الأساليب في النقاط الآتية:

(١) الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص ١٧٢.

(٢) الطالب: دليل التدريب القيادي ، ص ١٠٦ .

(٣) تركمانى: الدهاء في الحرب، ص ٣٠-٢٩ .

(٤) الطبرى: تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٥ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٤١ .

١- التعبئة الحسنة:

والتعبئة اصطلاح معروف في النظام العربي الإسلامي، وقد جاءت هذه الكلمة في لسان العرب بمعنى فن ترتيب الجنود والخيل في مواضعهم، وتهيئتهم للحرب^(١).

والمرتكز الأول الذي استندت إليه التعبئة العربية الإسلامية هو الاستخدام الأفضل للأسلحة والقطاعات في المعركة، مع حشد جميع الطاقات المادية والمعنوية اللازمة لتحقيق النصر^(٢).

ولقد طبق المسلمون الأساليب التعبوية في مختلف مراحل المعركة كالاستطلاع والهجوم والدفاع والانسحاب والمطاردة^(٣).

ولقد طبق مسلمة بعض هذه الأساليب التعبوية بالفعل، حيث يذكر ابن أثيم: "أن ملك الخزر قد فاجأه بعد كبير من الجيش، من جميع أصناف الكفار، فيما لا يطيقهم مسلمة ولا جيشه، ولا يحصي عددهم إلا الذي خلقهم، فلما علم مسلمة بذلك أمر أصحابه أن يوقدو النار، ففعلوا ذلك فلما كان الليل تركوا خيامهم مضروبة في موضعها؛ وارتحلوا بعد عشاء الآخرة^(٤).

ثم جعل مسلمة يطوي المراحل طيًّا، فجعل كل مراحلتين مرحلة، وقدم الضعفاء بين يديه، وجعل الأقوياء أهل الجلد والنجدة على الساقية، ولم يزل كذلك حتى سار إلى مدينة الباب، ثم إنه خندق على نفسه خندقاً، فحسن نفسه وعسكره بالخندق والحسك، وأقبلت الخزر في جمع لم ير مثله، فلما نظر مسلمة إلى ذلك وثبت وعاً أصحابه تعبئة حسنة من ميمنة وميسرة وقلب وجناح، وتمكن بذلك من تفادي فناء شبه محقق للجيش الإسلامي^(٥)، وكان مسلمة يستخدم المفاجأة والمباغته الخاطفة في غزواته حيث يهاجم العدو في وقت لم يكن يتوقعه، كأن يهاجمه في

(١) لسان العرب، ج ١، ص ١١٨.

(٢) الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص ١٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٢.

(٤) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٣ - ; المرعشبي: غرر السير، ص ٢٠٨.

(٥) المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٨٣-٢٨٤؛ المرعشبي: غرر السير، ص ٢٠٩.

وقت شديد البرد أو شديد الحر، أو شديد ظلمة الليل، أو في وضح النهار، أو في صحوه، أو أثناء نومه، ويقول مسلمة في ذلك: "إذا هاجمناهم في ذلك وانهزموا؛ لم يكن لهم باقية، ولا فئة يلجاً لها منهزمهم"^(١).

والمبااغة تعني الظهور أمام العدو في وقت لا يقدر، وبصورة لا يتوقعها، وبأسلوب يجهله، بحيث تضطرب صفوفه، ويرتكب قادته، ويدب الرعب في جنده، ويفقد توازنه، بحيث يصبح عاجزاً عن اتخاذ قرار صائب وصحيح^(٢).

وكثيراً ما كان مسلمة يهاجم حصنون العدو وقت السحر، كما حدث معه في قتال مدينة الأبواب، حيث بدأ بالهجوم والتكبير وقت السحر، وكان الظفر للمسلمين^(٣).

وإن المبااغة والمفاجأة توجب أن يبقى المسلمون في حالة استعداد دائم، ويقول صاحب المنار في تفسيره: "إن الكفار إذا علموا من المسلمين الاستعداد الدائم، وحالة التأهب المستمرة للجهاد؛ فإنها تقيد في أمور كثيرة، منها أن الكفار لا يقصدون دار الإسلام، ومنها إذا اشتد خوفهم؛ أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ومنها أنهم لا يفكرون في إعانة أي من الكفار"^(٤).

كما استخدم مسلمة الخدعة في مواطن كثيرة، منها مع أهل حصن حيزان،^(٥) عندما استعصى هذا الحصن على مسلمة وجنده، فعرض عليهم الصلح فأبوا، فقاتلهم قتالاً شديداً، فلما علموا أنه لا مناص، سألوه الأمان، فحلف لهم ألا يقتل منهم رجلاً ولا كلباً، فانحدروا من حصنهم، فقتلتهم أجمعين إلا رجلاً واحداً وكلباً واحداً، واستولى على الحصن^(٦).

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٤٤٤.

(٢) الخلفات، اسعد: العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، ص ١٠٠.

(٣) خليفة: تاريخ، ج ١ ، ص ٣٠٧.

(٤) رضا: تفسير المنار، ج ١٠ ، ص ٥٩.

(٥) حيزان، مدينة من مدن أرمينيا، ؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٣٣١.

(٦) خليفة: تاريخ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ؛ ابن أثيم: الفتوح، ج ٤ ، ص ٢٨٢.

وما فعله مسلمة مع أهل الحصن لا يخالف الشرع الإسلامي، حيث نقل الإمام النووي قول ابن شهاب الزهري في شرح صحيح مسلم حديثاً يبين تحريم الكذب، وبيان المباح منه، يقول: "ولم أسمع أنه يرخص في شيء مما يقال كذب إلا في ثلات: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها"^(١).

ويقول الإمام النووي : "الظاهر إباحة حقيقة الكذب في الأمور الثلاثة، لكن التعرض أولى"^(٢).

وما فعله مسلمة يأتي في سياق التضليل والكذب على العدو، وقد مثل فعله عملاً ناجحاً، ساهم في تعجيل النصر، وكسر شوكة العدو، وحفظ الأنفس؛ حيث سلم الحصن دون أي خسائر، ويقول محمد خير هيكيل: "إن الأصل في سلوك المسلم أنه يقوم على الصدق والوضوح، لكن الحرب لا تحتاج إلى مثل هذه القيم الرفيعة؛ إذا كان من شأنها أن تسبب الضرر للمسلمين، وتؤخر النصر عنهم، لذا فإنه يباح في الحرب ما لا يُباح في غيرها، لا سيما إن كانت هذه الأساليب تساهمن في إسراع وإنهاء القتال، وحفظ الأنفس من الجانبين"^(٣).

٢ - استخدام الحرب النفسية:

لا شك أن الحرب النفسية تشكل سلاحاً أساسياً لكل معركة وهدفها تيئس العدو، ودفعه إلى الإحباط، وجعله يتخطى في قراراته وتقديراته، وال الحرب النفسية تشكل اليوم جزءاً أساسياً من المعركة، ونجد الدول تعد لها طوافم متخصصة تسعى للإحاق الهزيمة بالعدو نفسيًا، وتشكيكه في قدراته المختلفة، تمهدًا لهزيمته عسكرياً، واستخدم مسلمة الحرب النفسية عندما تقابل مع جيش الخزر، وأخذ كل طرف ينظر إلى الطرف الآخر ويترقب لحظة اندلاع المعركة، وإذا بمسلمة يدعوه بالطعام، فجعل يأكل وبنو عمه ووجوه الناس "وخافان" الخزر وافق على فرسه مغناطضاً ينظر إليه، لا يدرى ما يقول، ثم أقبل على حاشيته فقال : "لأنك لن تفتأل نفسك

(١) شرح صحيح مسلم، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه، حديث ، ٢٦٠٥، ج٨، ص٣٧٣.

(٢) فتح الباري، ج٦، ص٨٤.

(٣) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ج٢، ص١٢٩٤.

اليوم شر قتلة!! ثم قال: ويلكم يا معاشر الخزر! أنتم عشرة أضعافهم وهو لا يبالي بكم، يأكل ويشرب ولا يحفل لكم. فقال الخزر: أيها الملك لا تغضب، فإنه إذا كان الغد أرضيتك وأتيناك ب أصحابهم أسيراً، فتصنع به ما أحببت^(١).

وكان مسلمة يستخدم الرسائل الموجهة إلى العدو كأسلوب من أساليب الحرب النفسية، حيث نجده يرسل إلى ملك الروم "إليون" رسالة جاء فيها: "إنني قد آتيت يميناً - لا كفارة لها - أني لا أرحل عن هذه الجزيرة أبداً دون أن أدخل مدینتك هذه، فإذا دخلتها صبرت عليك أبداً حتى يفتح الله عليّ يدي، فإن وصلت إلى ذلك فذاك الذي أريد، وإن تكن الأخرى وقتلت مت شهيداً مجاهداً، وكان المصير إلى ثواب الله عز وجل؛ الذي وعد عباده المجاهدين في سبيله، والسلام"^(٢).

كذلك استخدم مسلمة في حروبها الوحدة المختارة أو الخاصة، وذلك لتحقيق أهداف ربما يعجز عن إنجازها الجيش بأكمله، وتكون هذه الوحدة أحياناً كبيرة العدد، وأحياناً صغيرة، أو حتى محدودة بعدد بسيط من الأفراد، وربما في أحيان أخرى بفرد واحد فقط، وكان على رأس الوحدة في الجيش "البطل"، وكانت تستخدم في الهجمات الكبرى، وكانت هذه الوحدة مجهزة بكامل العدة والعتاد، يُنطاط بها أعقد المهام العسكرية، التي لا يتسع لباقي الجيش القيام بها، وكانت هذه الوحدة تصل أحياناً إلى عشرة آلاف من الجنود، لا يُرى منهم إلا الحدق من عظيم تسليحهم ودقة تجهيزهم^(٣). وفيما يبدو أن هذه الوحدة الخاصة؛ كان من ضمنها مجموعات استشهادية تستخدم عند الضرورة القصوى، وكان على رأسها ابن محيريز، وكان رجل جهير الصوت، ينادي على أصحابه الذين يتسمون الشهادة عند المعركة قائلاً: "يا أهل القرآن يا أهل القرآن يا أهل القرآن فيأتون سراعاً ويلقون بأنفسهم في نحر العدو، يقاتلون بكل شدة وبسالة"^(٤).

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٣.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٤٤٤.

وعندما تقابل مسلمة مع الخزر، طلب من رجل يُدعى "ثبيت" أن ينفذ مهمة خاصة، حيث قال له مسلمة: "قد ندبتك لهذا، فإن وجدتك على ما ظننت بك في البأس والإقدام، وبلغت من الأمر ما أريد، بالغت في عطائك، وأجزتاك بعشرة آلاف درهم، وعرضتاك لنوال أمير المؤمنين، ونوهت باسمك، وخرج "ثبيت" - بالفعل - لتنفيذ المهمة على رأس ألف من الفرسان ، حيث تمكنا من مهاجمة خيمة القيادة التي بها ملك الخزر، حتى فر من مكانه وفر جيشه، ونصر الله المسلمين بما قام به هذا الرجل ووحدته الخاصة^(١).

أيضاً كانت الكمائن من ضمن الأساليب العسكرية التي استخدمها مسلمة، حيث نصب كمين بلغ عدد أفراده أربعة آلاف جندي، وكان على رأسهم سعيد بن عمرو بن أسود بن مالك بن عامر بن صعصعة، وجميعهم من أهل الشام، كمنوا لجيش يزيد بن الملهم، وباغتوا جيشه فجأة حتى كانت الهزيمة، ففر جيش ابن الملهم، لا يلوون على أحد^(٢).

وأحياناً كان مسلمة يستدرج جيش العدو إلى المعركة؛ ليوقعه فيما يشبه الكمائن، حيث كان يعتلي بعض التلال، وعندما يهاجمه العدو ينسحب بسرعة، بما يوحى بالهزيمة، وتكون الخطة أن يلتحم الجيشان ليضرب ضربته القاضية، وبهذا يكون العدو وقع فيما يمكن أن نطلق عليه بالكمين المتحرك، وعندها تكون صدمة كبيرة للعدو تدفعه للاستسلام^(٣).

ومن ضمن الأساليب التي استخدمها مسلمة استهداف مصادر المياه التي تمون العدو، وذلك كما حدث في مدينة الباب، حيث كان فيها حصن وقلعة، وبهما ألف من جيش الخزر، وحاصرهم مسلمة مدة طويلة، ولم يجد الحصار، ورمאהم بالحجارة، ثم بحديد اتخذه على هيئة الحجارة، فلم ينتفع بذلك، فعمد إلى العين التي تزود الحصن بالماء، وحفر حتى بلغ مجرى الماء، وأحضر مئة من البقر والغنم ونحرها في مجرى الماء، فجرى الماء الملوث إلى الصهاريج التي تمون الحصن،

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٦.

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٠٨.

(٣) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥١٠.

ولما أمتلت الصهاريج بذلك أمر مسلمة بقطع الماء عنهم، فقطع، وأجرى ماء العين إلى ناحية الوادي، وقد أصبح القوم وقد أمتلت صهاريجهم دماً، فلم يلبثوا إلا ليلة حتى أنتت الصهاريج وملئت بالدود، وعطش أهل الحصن عطشاً شديداً، حتى أشرفوا على الهالك، ثم قام مسلمة برفع الحصار عن باب القلعة، وفتح لهم طريقاً إلى الهرب، فلما جن الليل، فتح الخزر الباب، وخرجوا هائمين على وجوههم في كل ناحية، وتسلم مسلمة وجنوده القلعة والحسن دون قتال^(١).

واستخدم مسلمة الماء أيضاً، ولكن بطريقة أخرى، وذلك أثناء فتنة يزيد بن المهلب، حيث طلب مسلمة من عامل الكوفة أن يقوم ببنق الأنهار في منطقة النخلة حتى لا يستطيع يزيد أن يصل إلى الكوفة هو وجيشه، بحيث تبقى الكوفة معزولة ومقطوعة، وفي الوقت نفسه تبقى خطاً خلفياً آمناً يمكن الرجوع إليه عند حدوث أي طارئ في المعركة^(٢).

- ٣ - الحصار والمراقبة الطويلة:

كان مسلمة يستخدم الحصار كأسلوب يدفع العدو إلى اليأس والاستسلام، وكان يطيل مدة الحصار، ويرابط أمام العدو، وقد يصل الأمر أحياناً أن يقضي الشتاء والصيف وهو مرابط لا يتزحزح من أمام العدو^(٣).

وقد فرض مسلمة حصاراً شديداً على أهل الطوانة مما دفعهم إلى اليأس والاستسلام، وقد وصف العباس بن الوليد -أحد قادة مسلمة- حصار الطوانة بقوله: "أهل الطوانة كالجالس بين لحيي الأسد"^(٤).

وقد أصاب المسلمين في حصار الطوانة شدة عظيمة، حيث وصف القعقاع بن خالد العبسي الموقف بقوله: "أكلنا لحوم الخيل رطباً ويابساً حتى تقرحت أكبادنا"^(٥).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٠٩ ؛ ابن أعتش: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٧.

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٠٧.

(٣) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٣١٤-٣١٥.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٦ ص ٤٤٤.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦.

ويذكر ابن الأثير أن مسلمة استمر في حصار الطوانة تسعة أشهر متواصلة، يقاتل حتى فتح الله عليه بعد عناه شديد^(١).

ورابط مسلمة كذلك أمام حصن السماوة، وصم على فتحه، ونصب المجانق على أسوارها، وأخذ يضرب الحصن، ويرمي رمياً متواصلاً دام أربعين يوماً، لا يفترون من ذلك ليلاً ولا نهاراً حتى أنجز هدفه^(٢).

ومن أعظم ما قام به مسلمة أثناء حصاره القسطنطينية، حيث رابط أمام أسوارها مدة طويلة، وبنى مدينة الظهر له ولجنوده رغم أنف الروم، وكان الروم يطمعون أن يتمكنوا من منع مسلمة من البناء، لكن جيشه تمكن من مواصلة القتال والبناء في آن واحد حتى فرغوا من بناء المدينة التي اتخذها مسلمة قاعدة عسكرية لجيشه، ثم أمر مسلمة أصحابه بالغرس فغرسوا الأشجار والكرم وأنواع الفواكه المختلفة، وعزموا على المقام هناك إقامة من لا يريد الرجوع إلى بلاد الإسلام أبداً^(٣).

ويرى الباحث أن المرابطة والمطاولة أمام العدو دفعته إلى اليأس وعدم الجدوى من الصمود، وكان هذا الأسلوب من أرجح الأساليب العسكرية التي استخدمها مسلمة، لا سيما في مواجهة الحصون والقلاع الحصينة التي يلوذ بها العدو، كالطوانة والسماوة وغيرها.

٤ - إقامة موقع عسكرية محصنة:

أولى مسلمة الحصون والقلاع اهتماماً عسكرياً كبيراً، وهي تمثل نقاط مركزية ، فحرص على إقامتها، وشحنها بالمقاتلين، ولعل من أهم هذه الحصون والقلاع قلعة باب اللان التي بناها أحد ملوك الفرس القدماء، وهذه القلعة تتحكم في الطريق إلى جبل القبق، فلا طريق لهم على هذه القنطرة إلا من تحت هذه القلعة، وهي مقامة على صخرة صماء، لا سبيل إليها إلا بأخذ الإذن من فيها، وفيها

(١) الكامل، ج ٤، ص ٢٣٧ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٧٤ .
؛ ابن الجوزي: المننظم، ج ٦، ص ٢٨٣ .

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٤ .

عين ماء تتبع من وسطها من أعلى الصخرة، وهي إحدى القلاع الموصوفة في العالم، وقد ذكرتها الفرس في أشعارها، وحرص مسلمة على السيطرة عليها، وأسكنها قوماً من العرب، يحرسون هذا الموضع، وكانت الخلافة ترسل إليهم التموين من "تقليس"، وبين هذه القلعة وتقليس^(١) مسيرة أيام^(٢).

ويصف ياقوت هذه القلعة بقوله: "لو أن رجلاً واحداً في هذه القلعة، لمنع جميع ملوك الأرض أن يجتازوا بهذا الموضع؛ لتعلقها بالجو وإشرافها على الطريق والقناطرة والوادي"^(٣).

وكان مسلمة يخلي بعض السكان من أماكنهم من الروم أو الخزر أو الترك، عندما يشعر أنهم يشكلون خطراً على الأمن، حيث في مدينة الباب والأبواب، أجل سكان القلعة من الخزر، وأسكنها أربعاً وعشرين ألفاً من أهل الشام^(٤).

وأشار ابن الجوزي إلى سياسة مسلمة في ترحيل بعض السكان، وإحلال المسلمين مكانهم بقوله: "فتح مسلمة ثلاثة حصون، وأجلى خلقاً كثيراً عن بلادهم"^(٥).

ومن جانب آخر كان مسلمة يهدم بعض المدن للعدو بشكل كامل ليتخلص من الخطر، حيث قام بهدم مدينة الباب من أرمينية، ثم بناها بعد تسع سنين، بعد زوال الخطر واستتباب الأمن^(٦).

وهدم مسلمة كذلك حصن حيزان وسواء بالأرض، ثم أمر بنسائهم وأولادهم وأسكنهم بعيداً عن الحصن، والجدير ذكره أن هذا الحصن أتعب مسلمة كثيراً، ولم يتمكن من فتحه إلا بخدعة^(٧).

(١) تقليس مدينة من بلاد الأرمن فتحت في عهد عثمان بن عفان وهي آخر بلاد المسلمين من جهة الأرمن، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٦

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٤٦.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٦.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٠٩.

(٥) المنظم، ج ٦، ص ٣٠٣.

(٦) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ١٩٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٢٩.

(٧) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٢.

ويُمكن أن تُلخصَ سياسة مسلمة تجاه الحصون والقلاء بالإخاء أو الإسكان أو الهدم.

ويعلق صالح العلي على السياسات التي كانت تقوم بها الخلافة في التغور، وما يتعلّق بالتحصينات العسكرية في المنطقة التي كان يعمّل فيها مسلمة فيقول: "كان للأطراف الشمالية من بلاد الشام والجزيرة وضع خاص، نظراً لأنّها تحد بلاد الروم، فتتعرّض بصورة أسبق وأكثر من غيرها لهجمات الروم وتعدياتهم، كما أنّ فيها المنافذ التي تسلّكها الجيوش العربية إلى بلاد الروم، لذلك كان لابد من الاهتمام بتحصينها وشحنها بقوات، يكون واجبها الدائم حمايتها، والوقوف بوجه الروم إلى الدرجة التي تعطل تقدّمهم، وتنبيح المجال للقوات الإسلامية لمواجهةهم^(١).

كما يرى أن القوّات العسكريّة في المراكز الأمامية، يجب أن تتوفّر فيه الشروط الالزمة لقوّات الطلائع، من قدرة على عرقلة تقدّم العدو، دون أن تتعرّض القوّة الرئيسيّة للخطر، وكان يؤثّر تحصين الأطراف الشمالية؛ لتنظيم الدفاع على الأطراف الجنوبيّة^(٢).

ومن ضمن الأساليب التي استعملها مسلمة في غزواته، حفر الخنادق، وكان في بعض الأحيان يحفر خنادقين، واحداً بعد الآخر، وكان يترك الأنقاض خلفه حتى لا تعيق حركته عند المواجهة، بحيث لا تشكّل عبئاً عسكرياً على الجيش في حالة مواجهة العدو^(٣).

وعرفت الأنفاق في تلك الحقبة كأحد الأساليب العسكريّة، حيث استطاع عمر بن هبيرة الفرار من السجن من خلال نفق، تم حفره من دار مجاورة للسجن، حيث قام بعض الموالي بنقب سرب داخل الأرض يصل من البيت إلى السجن الذي فيه عمر بن هبيرة، ولما جاءت الليلة التي تواعدوا فيها لإخراج عمر من السجن؛ فتحوا باب النفق داخل السجن، ودخل عمر إلى النفق حتى وصل إلى

(١) امتداد العرب في صدر الإسلام، ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٣) البلاذرسي: أنساب، ج ٨ ، ص ٣٥٠٨.

الدار التي خارج سورها، ثم كان هناك نفق آخر من البيت إلى خارج المدينة، وكانت مجموعة تتضرع عمر هناك، وهياكل له الخيل، فركب وسار حتى عبر الفرات إلى الشام، واستجار ب المسلم فأجاره، وأنزله معه في بيته^(١).

وقد قال الفرزدق في خروج عمر من السجن بهذه الطريقة شعراً جاء فيه:

ولمّا رأيْتَ الْأَرْضَ قَدْ سُدَّ ظَهْرُهَا
دَعَوْتَ الَّذِي نَادَاهُ يُونُسُ بَعْدَمَا
فَاصْبَحْتَ تَحْتَ الْأَرْضِ قَدْ سِرْتَ
وَمَا احْتَالَ مُحْتَالٌ كَحِيلَتِهِ التَّيِّيِّ
وَظَلَّمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ قَدْ خُضْتَ هَوْلَهَا

ثَوَى فِي ثَلَاثٍ مُظْلِمَاتٍ فَرَّجَا
وَمَا سَارَ سَارَ مِثْلَهَا حِينَ أَدْلَجَا
بِهَا نَفْسُهُ تَحْتَ الصَّرِيمَةِ^(٢) أَوْ لَجَا
وَلَيْلٌ كَلْوَنٌ الطَّيْلَسَانِي أَدْعَجَا^(٣)

٥ - استخدام الزيت والكتان كوقود:

لما كان مسلم يحاصر القسطنطينية، حيث أصابه وجشه شدة وبلاء، وأصبح الجيش في فاقة كبيرة، ولا يستطيع تأمين طعامه وشرابه، ولا حتى إيجاد الحطب لطهي الطعام، وكان في الجيش المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكان للمغيرة مالاً باعه لمسلم، بخمسة عشر ألف دينار، فنفده مسلم الثمن، فبعث المغيرة بذلك المال مع من اشتري له إبلًا من قبيلة كلب، واشترى له دقيقاً وزيتاً وقباطي، وهي ثياب كتان، تصنع في مصر، ومنسوبة إلى القبط، وحمل ذلك على الإبل، وكانوا لا يقدرون على الحطب، فأمر بالقباطي؛ فأدرجت في الزيت وأوقدتها، ونحر الإبل، وطبخ وأطعم الناس^(٤).

وكان في تلك الغزارة أخوه أبو بكر بن عبد الرحمن، فقيل له: نرى ناراً في المعسكر فقال: لا تجدونها إلا في رحل المغيرة من طعامه، فقولوا له: يبعث إلينا من طعامه، فبعث إليه، فلما قفل الناس من غزاتهم، وبلغ الخبر الخليفة عمر بن

(١) الجمي: طبقات حول الشعراء، ج ٢، ص ٣٤٦ ؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ٢، ص ٣١٥.

؛ التوخي: الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٦٥-١٦٦ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٦٠.

(٢) الصريمية: هي القطعة من الليل يقال لها صريم، ؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٣٨.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢١، ص ٣١٥ ؛ التوخي: الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٦٦.

(٤) الآبي: نثر الدر، ج ٧، ص ١٨٦ ؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٢، ص ١٠٢.

عبدالعزيز، قال لمسمة: أنت كنت أقوى وأولى بإطعام الناس من المغيرة، وذلك لك ألزم، لأنك إنما كنت تطعمهم من بعض مالك، وهو يطعمهم معظم ماله، فأقله البيع، فإنه لا يجوز، فعرض مسلمة على المغيرة رد البيع فأبى وقال: قد أنفدت البيع، وأمر الخليفة عمر برد الضياعة على المغيرة، وأمر بالمال دفع إلى مسلمة من بيت المال، فتصدق المغيرة بالضياعة، وأمر أن يطعم الحاج منها يوم عرفة وثلاثة أيام مني، فكان السويق والسمن والتمر الذي يطعم بمنى من صدقة المغيرة^(١).

ويرى الباحث أن ما قام به المغيرة يعد تفكيراً إبداعياً فريداً من نوعه، حيث تمكن من خلاله التغلب على الفاقة، وسد الحاجة للوقود، وتتمكن من توفير الطعام للجيش، في ظروف بالغة الشدة، أحاطت بمسلمة وجشه.

٦ - التكبير وقلة الكلام حين مواجهة العدو:

كان مسلمة يحث جيشه على الذكر حين مواجهة العدو، وعلى التكبير عند الحملة والهجوم، وكان غالباً يهاجم وقت السحر، ويرافق ذلك التكبير من الجيش، ولما تقابل مع الخزر في مدينة الباب، كبر المسلمون وقاتلوا قتالاً شديداً، وكان الهجوم وقت السحر^(٢).

وكان مروان بن محمد يقاتل الخزر مع مسلمة، وأوصى مروان الجيش قائلاً: "أيها المسلمون: فدّاكم أبي وأمي، إني أسألكم صبر ساعة، وضرباً بالرؤوس على القرابيس،^(٣) وقلة الكلام، فإن كثرته فشل، ولا يضرّن أحد منكم بسيفه إلا الوجه واليد"^(٤).

وقد أشارت سورة الأنفال إلى الذكر عند مواجهة العدو، قال تعالى:

(١) الآبي: نثر الدر ، ج ٧، ص ١٨٦ ؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ، ج ٢، ص ١٠٣ .

(٢) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٣٠٧ .

(٣) القرابيس: مفردها قربوس وهو محمل السرج يستعين به الفارس ؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٦٠٢ .

(٤) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٤ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ مَنْوِئُونَ لَقِيتُمْ فِيَّةَ فَاثْبُتوْ وَذَكُرُ اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(١). وقال القرطبي في تفسيره: "وحكم هذا الذكر أن

يكون خيفاً، لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه، إذا كان الذكر واحداً فاما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنه يفت في أعضاد العدو"^(٢).

وذكر الطبرى أن سعد بن أبي وقاص أوصى جنده في القادسية قائلاً: "الزموا موافقكم ، ولا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ، فإذا صلیتم ، فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنكم أعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ، ولتنسّتم عنكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخلطوا عدوكم ، وقولوا: "لا حول ولا قوة إلا بالله"^(٣) . وقد علق حسن أليوب على أهمية الذكر والتسبيح والتكبير في المعارك التي خاضها المسلمون موضحاً أهمية هذا السلاح في تحقيق النصر.^(٤)

وكذلك من ضمن الأساليب التي استخدمها مسلمة في غزواته، أنه حمل معه نساءه، وحمل ناساً من معه نساءهم، وحدث ذلك في غزوة عمورية، وكانت بنو أمية تفعل ذلك إذا أرادت الجد في القتال للغيرة على الحرم، فلما سار في عقبة بغراس، عند الطريق المعبدة التي تشرف على الوادي، سقط محمل فيه امرأة إلى الحضيض، فأمر مسلمة أن تمشي سائر النساء فمشين، فسميت عقبة النساء^(٥).

تلك أهم الأساليب التي استخدمها مسلمة في غزواته، وينصح الباحث بالاستفادة من هذه الأساليب ما أمكن في صراعنا مع العدو الصهيوني.

(١) سورة الأنفال آية ٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ٣٨٤.

(٣) الطبرى : تاريخ، ج ٢، ص ٤١٠.

(٤) الجهاد والفدائية في الإسلام ، ص ٣٤٦

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ص ١٧١ ؛ ياقوت: معجم البلدان ، ج ٤، ص ١٣٤ .

؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج ١ ، ص ٤١٣ .

المبحث الثاني

الجانب الإداري

إصلاحات مسلمة الإدارية في العراق وخراسان

تميز مسلمة بنبوغه في العديد من الجوانب، فهو لم يكن قائداً عسكرياً فحسب بل كان إدارياً ناجحاً، ظهر نبوغه في وقت مبكر، حيث أن والده عبد الملك ولاه مكة، وهو لا يزال في بداية شبابه^(١).

وقد أنيط ب المسلم العديد من الولايات في الدولة، في سني حياته المختلفة، وكانت بعض هذه الولايات صغيرة مثل: الكوفة والموصل، أو كبيرة مثل: العراق بأكمله، بعد القضاء على يزيد بن المهلب^(٢).

وكانت العراق الولاية الأهم من بين الولايات التي شغلها مسلم في الدولة؛ وذلك لأنه يدار من خلالها الأقاليم الشرقية، وأحدث مسلم تغييرات إدارية في العراق ، حيث غير بعض الولاية القدامى، فمثلاً: البصرة وعمان ولاهما لعبدالرحمن بن سليمان الكلبي، فاستخلف عبدالرحمن على عمان محمد بن جابر الراسبي^(٣).

وولى مسلم القضاء في البصرة لعبدالملك بن بشر بن مروان، فاستقضى عبدالملك النضر بن أنس بن مالك، ثم ولّى مسلم موسى بن أنس إلى أن قدم ابن هبيرة العراق واليًا^(٤).

وأرسل مسلم على المدينة المنورة يزيد بن عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس واليًا، واستقضى عليها مسلم المخزومي^(٥).

أما موسم "الحج" فقد أسنده مسلم لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، ثم جاء بعده عبد الواحد النصري، أما الصائفة فقد ولاها لعبدالرحمن بن سليم الكلبي، وبقي عليها حتى موت يزيد، والشريطة ولّى عليها كعب بن حامد

(١) الفاسي: الزهور المققطفة من تاريخ مكة المشرفة، ص ٢١٣.

(٢) خليفة: تاريخ خليفة، ج ١، ص ٢١٤ - ٢١٥ ؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٨ ؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ١٤، ص ٢٩٠.

؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣، ص ١٠٠.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٥.

العبسي، أما الخراج والجند والرسائل فقد أسندها إلى صالح بن جبير الغداني، ثم عزله وولى أسامة بن زيد مكانه^(١).

ووضع على الخاتم والخزائن وبيت المال "مطير" أو أسامة بن زيد ، أما قائد الحرس غilan أبي معن، وقيل أبو مالك السكري ، وله حاجب يدعى خالد، أما الكوفة فعزل عنها عبدالحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وولى مكانه محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط^(٢).

أما خراسان فكان عليها عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، وعزله مسلمة وأرسل مكانه سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، وأما السند فكان عليها وداع بن حميد الأزدي، تولى من جانب يزيد بن المهلب، عزله مسلمة وأرسل مكانه هلال بن أحوز المازني^(٣).

ولعل أهم الأعمال التي قام بها مسلمة أثناء ولايته العراق إرسال سعيد بن عبد العزيز بن الحارث لحرب الخزر، وكان يلقب بسعيد "خرزينة"، وهو زوج ابنة مسلمة^(٤).

ونذكر ابن خلدون أن مسلمة استعمل على خراسان صهره، سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص^(٥).

ولما تولى سعيد إماراة خراسان؛ استضعفه الناس، وطمعت الترك فيه، وحشدوا له، وكان على الترك "كورصول"، ونزلوا عند قصر الباهلي، وكان فيه من المسلمين مائة عائلة بذراريهم، ولما اشتد بهم الأمر كتبوا إلى عثمان -والذي سمرقند- بالمد، وعندما تأخر في إمدادهم صالحوا الترك، ودفعوا لهم أربعين ألف دينار، وأعطوه سبعة عشر رجلاً رهينة^(٦)، وكان مسلمة يولي الولاية الأفاء

(١) ابن خلدون: تاريخ ، ج ١، ص ٢١٥ .

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) المصدر نفسه: تاريخ ، ج ١، ص ٢١٤ .

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤١٦ ؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣ ص ١٠١ .

(٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ج ٢، ص ١٠٩ .

(٦) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ص ٩٢ ؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣، ص ١٠١ .

الذين يرفضون الضيم والهوان مثل والي سمرقند الذي اعترض على الصلح ورأى فيه إهانة للمسلمين؛ فندب الناس للجهاد، فأجابه المسيب بن بشر الرياحي ومعه أربعة آلاف من سائر القبائل، وعندما خرجوا للجهاد، أراد المسيب أن يختبر عزمه، فقال: من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم، فرجع عنه ألف من العسكر، ثم كرر مقالته بعد أن مشى فرسخ، فرجع عنه ألف آخر، ثم بعد أن مشى مدة، اعتزله ألف جديد، وواصل مسيره بمن معه حتى أصبح على بعد فرسخين من العدو، وبابيعه أصحابه على الموت، وساروا يومهم إلى الليل، ولما أمسى حثهم على الصبر وقال لهم: "ليكن شعاركم: "يا محمد" ولا تتبعوا مولياً، واعقروا فإنه أشد عليهم، وليس لكم قلة، فإن سبعمائة سيف لا يضر به في عسكر إلا أوهنته وإن كثر أهله^(١).

ولما علم الترك بخروج "المسيب" وجيشه؛ قاموا بقتل من بأيديهم من الرهائن الذين كانوا لديهم من قبل^(٢).

وصمم المسيب ومن معه رغم قلة عددهم على خوض المعركة مع الترك، وإنقاذ من في القصر من الرهائن، وهاجم الترك وقت السحر، وكان شعارهم: "يا محمد" وحملوا حملة رجل واحد، وقتلوا من العدو عدداً كبيراً، وقاتل الترك قتالاً شديداً، وترجل المسيب عن فرسه، وقاتل معه الفرسان قتالاً عظيماً، وصبروا حتى فتح الله عليهم، وفر المشركون الترك من أمامهم هاربين، لا يلوون على شيء^(٣).

وتمكن المسيب من إخراج النساء والذراري المحصورين في القصر، وغنم ما في معسكر الأتراك من الأموال واللفائس، ورجع سالماً غانماً، ثم جاء الأتراك في اليوم التالي إلى القصر، فلم يجدوا به داعياً ولا محبياً، فقالوا هؤلاء القوم الذين لقونا بالأمس لم يكونوا إنساً، إنما كانوا جناً^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٤٨ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٢٢.

؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣ ، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٩٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٢٢.

(٤) الطبرى: تاريخ، ج ٤، ص ٩٢ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٤٨-٣٤٩.

؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩ ص ٢٢٣ ؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣، ص ١٠٢.

وتمكنـت هذه المجموعـة الاستـشهادـية التي قاتـلت مع المسـيب، أـن تـتحقـ هـزـيمـة بـالـأـتـراكـ، رـغـمـ قـلـةـ عـدـدهـمـ، وـتـخـرـجـ مـجمـوعـةـ كـبـيرـةـ منـ الأـسـرىـ المـحـصـورـينـ فـيـ قـصـرـ الـبـاهـلـيـ، وـهـوـ ماـ يـظـهـرـ أـهـمـيـةـ الـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ الـمـدـرـبـةـ فـيـ الـجـيـشـ إـلـاسـلامـيـ، وـالـتـيـ يـفـوقـ أـثـرـهـاـ عـمـلـ جـيـشـ بـأـكـملـهـ، لـدـرـجـةـ أـنـ الـأـتـراكـ اـعـتـقـدـواـ أـنـ مـنـ قـاتـلـهـمـ بـالـأـمـسـ كـانـواـ مـنـ الجـنـ وـلـيـسـواـ مـنـ الـبـشـرـ.

وـمـاـ نـقـلـهـ الطـبـرـيـ يـُـظـهـرـ ذـلـكـ، حـيـثـ قـالـ رـجـلـ شـهـدـ لـيـلـةـ قـصـرـ الـبـاهـلـيـ :ـ "ـ كـنـاـ فـيـ الـقـصـرـ، فـلـمـ التـقـواـ ظـنـنـاـ أـنـ الـقـيـامـةـ قـدـ قـامـتـ، لـمـ سـمـعـنـاـ هـمـاـمـ الـقـوـمـ، وـوـقـعـ الـحـدـيدـ، وـصـهـيلـ الـخـيـلـ"ـ^(١).

وـجـاءـتـ هـذـهـ الـعـمـلـيـةـ التـيـ قـامـ بـهـاـ سـعـيـدـ فـيـ سـيـاقـ تـحـقـيقـ الـأـمـنـ، وـتـرـتـيـبـ أـوضـاعـ الـمـنـطـقـةـ إـلـادـارـيـةـ، وـتـلـبـ مـسـلـمـةـ مـنـ سـعـيـدـ وـالـيـ خـرـاسـانـ أـنـ يـتـخلـصـ مـنـ عـمـالـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـقـشـريـ، الـذـيـنـ تـقـاعـسـوـاـ عـنـ جـهـادـ الصـغـدـ أـيـامـ عـمـرـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ، فـقـامـ سـعـيـدـ بـحـبـسـهـمـ، وـوـجـدـ عـنـهـمـ أـمـوـالـ أـعـظـيمـةـ، كـانـوـاـ قـدـ أـخـذـوـهـاـ مـنـ أـمـوـالـ الـخـرـاجـ، وـقـامـ سـعـيـدـ بـعـزلـ ثـمـانـيـةـ مـنـ الـوـلاـةـ، كـانـوـاـ يـعـمـلـونـ لـيـزـيدـ بـنـ الـمـهـلـبـ، وـأـرـسـلـهـمـ إـلـىـ سـجـنـ مـرـوـ، وـتـمـكـنـ سـعـيـدـ مـنـ إـرـجـاعـ الـأـمـوـالـ التـيـ كـانـوـاـ قـدـ اـقـطـعـوـهـاـ مـنـ فـيـءـ الـمـسـلـمـيـنـ^(٢).

وـهـكـذاـ تـمـكـنـ سـعـيـدـ مـنـ تـرـتـيـبـ وـتـنـظـيمـ أـمـورـ خـرـاسـانـ، وـكـانـ يـولـيـ عـمـالـهـ مـدـةـ ثـمـ يـسـأـلـ النـاسـ عـنـهـمـ إـنـ أـثـنـيـ النـاسـ عـلـيـهـمـ أـبـقـاهـمـ، وـأـنـ اـعـتـرـضـ النـاسـ عـلـيـهـمـ عـزـلـهـمـ، حـيـثـ عـزـلـ شـعـبـةـ بـنـ ظـهـيرـ عـنـ الصـغـدـ، وـوـلـىـ أـمـرـهـاـ عـثـمـانـ بـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ مـطـرـفـ بـنـ الشـخـيرـ، وـوـلـىـ الـخـرـاجـ فـيـهـاـ سـلـيـمانـ بـنـ أـبـيـ السـرـيـ، وـاسـتـعـمـلـ عـلـىـ "ـهـرـأـ"ـ مـعـقـلـ بـنـ عـرـوـةـ الـقـشـيرـيـ^(٣).

وـبـعـدـ الـقـيـامـ بـهـذـهـ إـلـصـلـاحـاتـ الدـاخـلـيـةـ، وـتـنـظـيمـ أـمـرـ الـوـلاـةـ فـيـ خـرـاسـانـ، قـامـ سـعـيـدـ بـتـجهـيزـ حـمـلـةـ كـبـيرـةـ ضـدـ الصـغـدـ؛ـ لـأـنـهـمـ نـقـضـوـاـ الـعـهـدـ وـأـعـانـوـاـ الـتـرـكـ عـلـىـ

(١) الطـبـرـيـ: تـارـيخـ، جـ٤ـ، صـ٩٤ـ؛ـ اـبـنـ الـأـثـيـرـ: الـكـاملـ، جـ٤ـ، صـ٣٥٠ـ.

(٢) الطـبـرـيـ: تـارـيخـ، جـ٤ـ، صـ٩١ـ؛ـ اـبـنـ كـثـيرـ: الـبـدـاـيـةـ وـالـنـهـاـيـةـ، جـ٩ـ، صـ٢٢٢ـ.

(٣) المـصـدـرـ نـفـسـهـ، جـ٤ـ، صـ٩١ـ٩٢ـ.

المسلمين، فكلّم الناس سعيداً، وقالوا: تركت الغزو، فقد أغارت الترك، وكفر أهل الصعد^(١).

وخرج سعيد بالجيش، ولقي الصعد الذين خالفوا وخرجوا عن الطاعة، فقاتلهم سعيد ومن تحالف معهم من الأتراك وهزمهم، وكان المسلمون يطلقون على منطقة الصعد بستان أمير المؤمنين^(٢).

وكان سعيد قد واجهه جيش للأتراك في المنطقة نفسها، وكان الأتراك يكمنون في أحد الأودية، وقد استطاع أحد قادة المسلمين من كشف الكمين، وإنقاذ جيش المسلمين من الهزيمة المؤكدة، حيث استشهد في المعركة شعبة بن ظهير، أحد قادة الجيش الإسلامي، ومعه عدد كبير من جيشه، وهزم جمع من بني تميم أيضاً، ثم تولى قيادة جيش المسلمين رجل من بني ظالم، تمكن من تحقيق نصر على الصعد والأتراك^(٣)، وقد أدرك مسلمة أن توفير الأمن في ربوع ولايته مطلب كبير، سعى لتحقيقه وقد اختار للقيام بهذه المهمة ولاةً أكفاء يحسنون التصرف ويقدرون على مواجهة الفتنة والقلاقل، مثل سعيد بن عبدالعزيز، وسعيد بن عمرو الحرشي وغيرهم الكثير.

وجاءت هذه المعارك التي خاضها سعيد ضد الصعد، في إطار العمل على استتاب الوضع الداخلي في إقليم خراسان، حيث أن هذا الإقليم قد سبق فتحه من قبل، ولم تكن هذه المعارك في إطار الفتوحات الرسمية التي تعتمد عليها الدولة في سياستها للفتوح الخارجية، ثم بعد هذه الأحداث قام مسلمة بعزل سعيد عن خراسان؛ بعدها تقدم وفد من أهلها يشكون سعيداً، وأسند مسلمة إقليم خراسان إلى سعيد بن عمرو الحرشي، وأرسل الحرشي إلى الصعد يدعوهم إلى الفئة والمراجعة، ولما علم استمرار مخالفتهم؛ زحف إليهم في جيش عظيم، تمكن من

(١) الطبرى: تاريخ ، ج٤، ص٩٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص ٣٥٠ .
؛ ابن خلدون: تاريخ، ج٣، ص ١٠٢ .

(٢) الطبرى: تاريخ ، ج٤، ص٩٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص ٣٥٠ .

(٣) الطبرى: تاريخ، ج٤، ص ٩٥ .

إرجاعهم إلى الطاعة، وافتتح الحرشي عامة حصنون الصعد المتمردة، ونال منهم نيلاً عظيماً^(١).

وتمت هذه الأحداث أثناء ولادة مسلمة على العراق، حيث كانت خراسان تابعة لولاية العراق، وكل ذلك بعد الانتهاء من فتنة يزيد بن المهلب، المهم أن مسلمة تمكّن من فرض النظام والأمن، وأرجع هذه الولاية إلى الاستقرار والهدوء من جديد، ثم قام الخليفة يزيد بعزل مسلمة عن ولاية العراق، وتولية عمر بن هبيرة بدلاً منه ، وسبب ذلك أن مسلمة عندما تولى العراق وخراسان لم يدفع من أموال الخراج شيئاً، وقام بصرف هذه الأموال على أهل البلاد، وقام عمر بن هبيرة بعزل جميع عمال مسلمة من مختلف الولايات^(٢).

ولما عُزل مسلمة عن العراق، قال الفرزدق في ذلك شعراً:

رَاحِتْ بِمَسْلَمَةَ الرِّكَابَ مُؤَدِّعًا فَارْعَى فَرَارَةَ لَا هُنَاكَ الْمُرْتَعُ
عُزِلَ ابْنَ بِشْرٍ وَابْنَ عَمْرُو قَبْلَهُ وَأَخْوَهُ هَرَاءٌ لِمِثْلِهَا يَتَوَقَّعُ
ويعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان، وبابن عمرو محمد ذو الشامة بن عمرو بن الوليد، وبأخي هرآة سعيد بن عبد العزيز، الذي كان عاملاً لمسلمة على خراسان^(٣).

إصلاحات مسلمة الإدارية في أرمينيا وأذربيجان:

فيما يبدو أن إصلاحات مسلمة -في هاتين الولايات- كانت تتركز في مجال الأمن، ولعل موضوع الأمن كان الدافع الوحيد لتولية مسلمة، وكان الخلفاء يهدفون من توليتها عودة الأمن والهدوء والاستقرار، حيث إن الوليد قام بعزل عمه مروان عن أرمينيا وأذربيجان، وطلب من ينوب عنه في هذه المنطقة بالغة

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ، ص ٤١٦ ؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣ ص ١٠٣ .

(٢) الخليفة: تاريخ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ؛ البلاذري: أنساب، ج ٨ ص ٣٥٢٦ .

؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ١٠ ، ص ٣١٣ ؛ ابن الجوزي: المنتظم ، ج ٧ ، ص ٨٠-٨١ . ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن خلدون: تاريخ، ج ٣ ص ١٠٣ .

(٣) الطبرى: تاريخ، ج ٤ ، ص ٩٦ ؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ١٠ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ . ؛ المرعشى: غرر السير، ص ١٧٨-١٧٩ .

الصعوبة، فلم يقدم عليه أحد إلا مسلمة، الذي قام فيها بكل جدارة، وأثبت كفاءته في الحروب والإمارة^(١).

وبالتالي، فإن الحروب التي خاضها مسلمة -أثناء إمارته- تأتي في طور استتابب الأمن، والحرص على سلامه الجبهة الداخلية، وهي تختلف عن الفتوح التي خاضها على الجبهات الأخرى، والتي كانت تهدف إلى تبليغ الدعوة من جانب، ومن جانب آخر توسيع رقعة الخلافة، حيث أحسن القيام بتأمين الجبهة الشرقية لدولة بنى أمية، وتصرف في الأموال لاستتابب الأمن^(٢).

ويعلق شاكر مصطفى على ذلك بقوله : "تولى مسلمة الموصل مرتين، وتولى إمارة الكوفة مرتين كذلك، وكلاً من أرمينيا وأذربيجان مرتين أيضاً، وتولى إماراة العراق بأكمله بعد القضاء على يزيد بن المهلب ، بالإضافة إلى ولاية خراسان^(٣). وعندما تولى مسلمة على أرمينيا وأذربيجان، استعمل الحارث بن عمرو الطائي ، فافتتح من بلاد الترك مدنًا وقرىًّ كثيرة، وأنثر فيها أنثراً حسناً^(٤).

وكانت ولاية مسلمة على هاتين المنطقتين في عهد الخليفة هشام، وكان الهدف كبح جماح الخزر ، وكان الجراح الحكمي على هذه الجبهة، قبل وفاة الخليفة يزيد، وكان الجراح قد نفذ بعض الغارات ضد الخزر ، خاصة في الأطراف^(٥). وعندما تولى مسلمة أرمينيا وأذربيجان بدلاً من الجراح الحكمي ، أرسل سعيد بن عمرو الحرشي فلقي الخزر ، وخلص من أيديهم عشرة آلاف أسير للMuslimين ، وقتل ابن خاقان الخزر ، وفتح كذلك مداين وحصونات عدّة^(٦).

وعلى إثر ذلك؛ قام خاقان الخزر بحشد الجنود، لمحاربة مسلمة والجراح الحكمي ، ومن معهم من المسلمين ، وسار خاقان في جيش قارب مائة ألف أو

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٤، ص ٣٣٤.

(٢) الموسوعة العربية العالمية ورجالها، ج ١، ص ١٠٩-١١٥.

(٣) موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ج ١، ص ١٠٩-١١٥.

(٤) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٢١٧ ؛ الأزدي : تاريخ الموصل، ص ٢٥.
؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٧٨.

(٥) المرعشي: غرر السير، ص ٢٠١.

(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٤، ص ٣١٧ ؛ المرعشي: غرر السير، ص ٢٠٧.

يزيدون، وأخذ قائد الخزر يقتل ويسبى ويحرق، فكتب الجراح إلى الخليفة هشام يخبره بتکالب العدو على المسلمين، ويستمدہ بالجنود^(١).

وقد تباطأ المدد من جانب الخليفة، لكن الجراح كان يقاتل الخزر بكل ما يملك من قوة، ولما رأى أن الناس لا يجرؤون على القتال، قام فنادى فقال: "أيها المؤمنون: هلموا إلى الجنة"^(٢)، وحمل بهم على الخزر، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وقام الخزر بالفرار من أمام الجراح وكانت خدعة، ثم كروا على المسلمين، ووضعوا السيوف فيهم حتى أفنوهم ولم ينجُ من المسلمين إلا القليل، ولما علم الخليفة هشام استعبر باكيًا، وقال: "يا أسفى على الجراح والمسلمين"^(٣).

ويرى الباحث أن الشجاعة المتهورة وغير المدرosaة، التي كان يقاتل بها الجراح، كانت سبباً في الهزيمة الكبرى التي لحقت بجيشه المسلمين.

وقد علق عبد المنعم ماجد على ذلك بقوله: "كان الجراح يغزو بجرأة وتهور في بلاد الخزر"^(٤)، ولما كانت هذه صورة الأوضاع في الولaitين، كان على الخليفة أن تتقذ الموقف، فقام الخليفة هشام بتکلیف سعيد بن عمرو الحرشي، ونdbe لحرب الخزر، وضم إليه الجيش، وأعطاه رمحاً من رماح أهل بدر، وأمده بما يلزمـه من الأموال والسلاح^(٥).

وبقي مسلمة على رأس الإمارة، وخرج سعيد بالجيش، صوب الخزر، وكانوا يحاصرـون مدينة ورثان^(٦)، وكانت على حافة الإسلام، وانتدب سعيد رجلاً كان حديث عهد بالإسلام، فقال له سعيد: "هل لك أن تهب نفسك الله ثم للمسلمين، وتمضي إلى أهل ورثان وتعلمـهم أنـي قادم عليهم؛ ليصبرـوا على المحاصرة يومـين، ولا يسلـموا بلدـهم"^(٧) قال الرجل: أفعل أيـها الأمـير، وسار

(١) المرعشـي: غـرـرـ السـيـرـ، صـ ٢٠٢.

(٢) المصـدرـ السـابـقـ، صـ ٢٠٢.

(٣) المصـدرـ نـفـسـهـ ، صـ ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) التـارـيـخـ السـيـاسـيـ للـدـوـلـةـ الـعـرـبـيـةـ، عـصـرـ الـخـلـفـاءـ الـأـمـوـيـنـ، صـ ٢٤٢.

(٥) الـيـعقوـبـيـ: تـارـيـخـ، جـ ٤ـ، صـ ٣١٧ـ ؛ المرـعشـيـ: غـرـرـ السـيـرـ، صـ ٢٠٥ـ.

(٦) وـرـثـانـ: هي بلـدـ من بلـادـ آذـرـيـجانـ، يـاقـوتـ: مـعـجمـ الـبـلـدـانـ، جـ ٥ـ، صـ ٣٧١ـ.

(٧) المرـعشـيـ: غـرـرـ السـيـرـ، صـ ٢٠٤ـ.

الرجل إلى مهمته، لكنه وقع في كمين للخزر؛ على مدخل مدينة ورثان، فأخذوه وسألوه عن خبره فأخبرهم أنه رسول الحرشي، إلى أهل ورثان، يعلمهم أنه قادم عليهم، فقالوا له: أن أحببت أن تتجو برأسك فتقدم إليهم وأخبرهم أن العرب غير قادمين عليهم ليسلموا البلدة، قال : أفعل، فرُدُوا على فرسي هذا، فإني لا أعرف إلا به، فردوه فركبه وسار إلى باب المدينة، ونادى بأعلى صوته أبشروا فقد جاءكم سعيد الحرشي في عسكر المسلمين، فشدوا أيديكم على مدینتکم ولا تسلموها، فإنه مصيحكم غداً، فرفعوا أصواتهم بالتكبير، وعلمت الخزر بما قال الرجل فقتلوه^(١).

وهنا تبرز قيمة التضحية والفاء، فقد تمكّن هذا الرجل رغم حداثة عهده بالإسلام أن يقوم بمهمة جهادية، معروفة نتائجها سلفاً، ولكنه قبل هذه المهمة صابراً محتسباً لأجره على الله، وأنقذ الله به مدينة ورثان من فناء محتم لو كانت قد استسلمت للخزر، فكم هي قيمة هذه المهام الاستشهادية العظيمة النتائج، القليلة التكلفة، حيث أن جندياً واحداً يغير نتيجة المعركة، ولا شك أن التاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه النماذج، والتي تحتاج إلى دراسة خاصة، تستقي فائدتها الأجيال.

وهكذا تمكّن سعيد من الخزر، ووضع السيف فيهم ، مما طلت الشمس وفيهم عين تطرف، وانتقم للجراح وجيشه، وكتب إلى هشام بالفتح، ووجه إليه خمس الغنائم، وهامت الخزر على وجوهها راجعةً نحو بلادهم^(٢).

وكتب الخليفة هشام إلى الحرشي بالقدوم عليه، ليكافئه على جميل فعله بالخزر، ويحسن مجازاته، وكان مسلمة قد كتب إلى الحرشي بالقدوم أيضاً، وكان مسلمة يرى أن الحرشي قد بالغ وخالف المتفق عليه، وتوجّل كثيراً في أرض الخزر، ولما رجع لامة مسلمة وقال له: إنك غررت بالمسلمين، وأقدمت على ما لم تؤمر به^(٣).

(١) المرعشلي: غرر السير ، ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

وكان مسلمة يخشى على المسلمين أن يقع بهم ما وقع بالجراح وجشه، وكان همه رد الخزر عن المسلمين والحفظ عليهم، فخاطب مسلمة الحرشي بمثل ما خاطبه عمر بن عبد العزيز؛ عندما عاد من غزو الروم، ونسبه إلى طلب الرياء والسمعة، دون ما عند الله، وكان يلومه بذلك، والحرشي يُلِّين كلامه ويعتذر إليه، فلما طال الحوار بينهما، وخشن الجواب، غضب مسلمة، وأمر بسجن الحرشي في سجن برذعه، وساعت ظنون المسلمين فيه، ولما بلغ هشام ما فعل مسلمة، أنكره وأكبره، وكتب إليه يلومه ويقبح فعاله ويقرّ عه، وخاطبه بقول الشاعر.

إِنْ كَانَ يُجْزَى بِالْخَيْرِ فَاعْلُمْ
شَرًّاً وَيُجْزَى الْقَبِيحُ بِالْحَسَنِ
فَوَيْلٌ تَالِي الْقُرْآنِ فِي ظُلْمِ اللَّيْلِ
وَطُوبَى لِعَابِدِ الْوَثْنِ^(١)

فما كان من مسلمة إلا أن يتلزم أمر الخليفة هشام، ويخرج الحرشي من سجنه، ويرسله إلى الشام معززاً مكرماً، ولما دخل على الخليفة أكرمه وأحسن منزله^(٢).

ويعلق عبد المنعم ماجد على أحداث الخزر، ويرى أن هذه المعارك لم تكن فتوحاً جديدة، إنما كانت اعتقدات من جانب الخزر على مناطق سبق فتحها، واستدعي إليها مسلمة لتبنيت الأمان، وإرجاع النظام إليها، مثل: أذربيجان^(٣).
وعندما انتهت مهمة الحرشي خرج مسلمة بنفسه يقود الجيش، وتوجه إلى بلاد الخزر، حتى سار إلى جرزان^(٤) فافتتحها، ثم سار إلى شروان^(٥) فسلم له أهلها، ثم وجه خيله إلى أراضي اللكرز^(٦) فصالحه أهلها، وبعث إلى طبرستان

(١) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٣٤٤؛ اليعقوبي: تاريخ ، ج ٢، ص ٣١٧.
؛ المرعشى: غرر السير، ص ٢٠٧.

(٢) المرعشى: غرر السير، ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٣) التاريخ السياسي للدولة العربية، ص ٢٤٢.

(٤) جرزان: مدينة من أرمينيا كان الخزر يستولون عليها. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٦١.

(٥) شروان: مدينة من أعمال جرزان من أرمينيا الأولى، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٢.

(٦) اللكرز: بلد من أرمينيا يتصف أهله بالباس والشدة، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٤.

فصالحه أهلها، وسار مسلمة في البلاد لا يلقاه أحد حتى بلغ أرض ورثان، واستعاد عامة البلدان التي استولى عليها الخزر^(١).

ثم سار مسلمة بال المسلمين، حتى نزل قلعة حيزان، من أرض الشروان، فدعا أهلها إلى الطاعة، فأبوا عليه فحاربهم أياماً فلم يقدر عليهم؛ فأمسك عن قتالهم، ولم ينزل محاصرأ لهم حتى فنى طعامهم وجاءوا جوعاً شديداً، فبعثوا إليه و سألهو الأمان على أن لا يقتل منهم أحداً، فحلف لهم مسلمة أنه لن يقتل منهم رجلاً واحداً ولا كلباً واحداً، فرضوا بذلك، ولم يحسنوا أن يستوثقوا لأنفسهم، وتمكن مسلمة من الاستيلاء على الحصن، وذكرت القصة آنفأ^(٢).

ويرى الباحث أن ما قام به مسلمة مع أهل الحصن يدخل في باب الحرب خدعة، وهي خدعة مكنته من أصحاب الحصن وفتحه، ولو أن مسلمة عقد معهم صلحًا حسب الأصول الشرعية ما كان له أن يحيث عنه، حتى أن ابن أثيم علق على هذه الحادثة بقوله: "لم يحسنوا أن يستوثقوا لأنفسهم"^(٣).

ويظهر من كلام ابن أثيم أن صلحهم مع مسلمة لم يكن حسب الأصول الشرعية المعهودة، وقد تمكن مسلمة بفضل الله أن يذهب الوهن الذي دخل على المسلمين من جراء دخول الخزر إلى بلاد الإسلام، وقتلهم الجراح الحكمي وغيره من المسلمين^(٤).

وقد عبر الذهبي عن ذلك بقوله: "وغلبت الخزر -لعنهم الله- على أذربيجان، وبلغت خيولهم الموصل، وكان بأساً شديداً على المسلمين، حتى أخذ الخزر أربيل من المسلمين بحد السيف"^(٥).

(١) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٣١٨.

(٢) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٣٤٤ ؛ ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٢.

(٣) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٤٠٦.

(٥) العبر، ج ١، ص ١٣٦.

لَكُنَ اللَّهُ نَصْرٌ مُسْلِمَةً عَلَيْهِمْ، وَأَرْجَعَ كِرَامَةَ الْمُسْلِمِينَ وَهِبَتْهُمْ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ بَلَدًا إِلَّا سَالَمَهُ أَهْلُهَا، وَخَرَجَ إِلَيْهِ مَلْكُهَا بِخِيلِهِ وَرِجْلِهِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَلْوِكُ الْجَبَلِ بِأَكْمَلِهِمْ، وَأَدْوَى إِلَيْهِ الْخَرَاجَ^(١).

وَالملحوظ أن مسلمة كان يُعْفَى من الإمارة عندما يستتب الأمان، ويُعاد إليها إذا أُخلَ به، فعندما التقى المسلمين والترك بظاهر سمرقند، واستشهد أميرهم سورة بن أبير الدارمي - عامل سمرقند، وعامة أصحابه - أُعيد مسلمة إلى ولاية أذربيجان وأرمينيا، حيث قاتل الترك، ومكنته الله منهم، وأعاد الأمان والنظام إلى الولاية^(٢).

وبعد هذه الإصلاحات في جانب الأمن، عُزل مسلمة عن ولاية أرمينيا وأذربيجان في ولايته الثانية، سنة (١١٤-٧٣٢م)، بالطبع بعدما تخلص من الخزر، وكسر شوكتهم، وأنهى خطرهم، وتولى الإمارة بعده مروان بن محمد^(٣).

وعندما تولى مروان، استأنن الخليفة، وقام بحرب يمكن أن نطلق عليها حرب استتابية، هدفها شل حركة الخزر نهائياً، وإزالة هذا الخطر بشكل كامل من قاموس الخلافة، وكذلك رد اعتبار الخلافة وهيبتها التي اهتزت إثر استشهاد الجراح وجيشه على يد الخزر^(٤)، حيث قال مروان للخليفة: "أَرَدْتُ أَنْ تَأْذِنَ لِي فِي غَزْوَةٍ أَذْهَبَ بِهَا عَنَا الْعَارِ، وَأَنْتَقِمَ مِنَ الْعَدُوِّ"^(٥).

واستجاب الخليفة لطلب مروان، وسير له من بلاد الإسلام من الجنود المتطوعة مائة وعشرين ألفاً، ودخل مروان بلاد الخزر، وأوغل فيها، وغنم وسبى، حتى انتهى إلى آخرها، وكسر شوكتهم، واقتلع شأفتهم^(٦).

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٢.

(٢) الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٣٩.

(٣) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٤٠٦؛ الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٤١.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٤٠٦.

(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٠٦.

(٦) خليفة: تاريخ، ج ١، ص ٣٤٥؛ اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٣١٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٤٠٦-٤٠٧؛ الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٤١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٧٣.

وكانت إصلاحات مسلمة الإدارية مرتبطة بالأمن غالباً، وخاصة في المناطق التي يظهر فيها عدم الاستقرار، فكانت الخلافة توليه حتى يستقر الأمن ويسود النظام، ثم تبادر إلى عزله وتعيين خلفاً له، وبالتالي جاءت معاركه التي خاضها أثناء توليه في هذا السياق.

كما ظهرت جملة من الإصلاحات التي قام بها مسلمة، في المناطق التي كان يتولاه، لكن هذه الإصلاحات لم تكن واسعة بحيث تحمل طابعاً شاملاً، كالتالي قام به بعض الولاة، ويرجع ذلك -حسبما يرى الباحث- إلى عاملين:

- ١- مدة الولاية التي كان يقضيها مسلمة قصيرة، ولا تمكنه من الإصلاح المنشود.

- ٢- كان الهدف من تولية الخلافة له تحقيق الأمن والاستقرار، وليس شيئاً آخر، لكن مسلمة كان يحدث تغيرات إدارية في بعض الجوانب لتسهيل عمله، فمثلاً: عندما كان في ولاية أذربيجان، دعا برجل من أصحابه يُعرف بابن سعيد الثعلبي، وقام بتوليه على منطقة الباب والأبواب، وأمره أن يجعل بعض بيوت المدينة "أهراء"^(١) للخطة والشعير والسلاح، وكانت هذه المخازن الخاصة بالغالل كبيرة جداً^(٢).

ثم أمر مسلمة بن سعيد أن يقيم شرق المدينة، ويتخذ منه مقراً للإمارة، وجعل كذلك للمدينة أبواباً خاصة، وكانت تغلق بالحديد، ثم جعل مسلمة لأصحاب مدينة الباب راتباً شهرياً يجري على سكانها، مقداره مائة وعشرة دنانير، لكل فرد في السنة، غير القمح والزيت وغيره.^(٣)

ثم أعطى مسلمة الولاية على مدينة الأبواب لابن عمّه محمد بن مروان، واستخلفه على جماعة من المسلمين بمدينة الباب، وانصرف مسلمة حتى رجع إلى الشام، وأخبر هشاماً بما فتح الله على يديه، وأنه قد استخلف مروان على

(١) هُرْيٌ: وهو بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان والجمع أهراء. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٦١.

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٧.

(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

جماعة المسلمين، ولما علمت الخزر بمعادرة مسلمة؛ رجعوا إلى بلادهم التي أخذت منهم، وسكنوها من جديد، مستغلين غياب مسلمة من الساحة وعودته إلى الشام^(١).

والجدير ملاحظته أن غياب مسلمة كان يترك فراغاً ينعكس بصورة مباشرة على الناحية الأمنية، فقد كانت له هيبة تمنع خصومه حتى من التفكير في مناوئة الخلافة.

ويعلق الجنابي على إصلاحات مسلمة في مدينة الأبواب، فيقول: "بالنظر لأهمية مدينة الأبواب وموقعها المهم في جبهة أرمينيا، و حاجتها إلى المقاتلين القادرين على الدفاع عنها، وإيقاف هجمات البيزنطيين؛ قرر الأمير مسلمة وضع حامية فيها من أربعة وعشرين ألفاً"^(٢).

وفي جبهة أرمينيا وأذربيجان، كانت عملية إعداد المقاتلين تهدف إلى إيجاد مقاتلين أشداء، بالنظر لوعورة المنطقة وبعدها عن مقر الخلافة، مما يشكل صعوبة في إيصال الإمدادات إليها عند الضرورة، وقد اتخذت الإجراءات لاصطحاب المقاتلين لنسائهم وأولادهم في الحروب^(٣).

ومن ناحية أخرى فقد أنشأ مسلمة بعض الحصون العسكرية، تدخل ضمن العمران العسكري، ومنها حصن الرهبانية في أرض حرّان، وهو موضع قد بنى عليه مسلمة حصنًا ارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً، وأجرى ماء تلك العيون تحته، فإذا خرج من الحصن يُسمى بليخاً، ويتشعب من تلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى^(٤).

وأنشأ مسلمة حصنًا عُرف فيما بعد بحصن مسلمة، في الجزيرة بين رأس عين والرقة، وكان هذا الحصن ضخماً، حيث كان طوله مائتي ذراع، وعرضه مثل ذلك، وعمقه نحو عشرين ذراعاً، معقود بالحجارة، وأصلح مسلمة

(١) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٨٨.

(٢) تنظيمات الجيش الإسلامي في العصر الأموي، ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٦٧.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩٣.

الحسن، وأجرى الماء فيه، والماء يجري من البليخ في نهر منفرد، كل سنة مرة، حتى يملأه، فيكفي أهله بقية عامهم، ويُسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة^(١).

والملاحظ أن كل حصن كان يُشيد مسلمة، كان يُجري الماء إليه، ويعرس فيه البساتين المختلفة، فكان يعمل على البناء العسكري والاقتصادي في آن واحد.

ومن إصلاحات مسلمة العمرانية كذلك بناء مسجد في مدينة "أندس"، والمدينة تقع غربي خليج القسطنطينية بين جبلين وتبعد عنها ميلاً واحداً، وقد بني مسلمة هذا المسجد في إحدى غزواته^(٢).

وقد قام مسلمة -من جانب آخر- ببعض الإصلاحات الزراعية، وذلك في المناطق التي كان يشرف عليها، وكان يحب الزراعة، ويحث عليها، وهي بلا شك تمثل ركيزة الاقتصاد الأساسية للخلافة في تلك الحقبة، وقد بُني عليها نظام الخراج في الإسلام، ولو نظرنا إلى معظم بلدان الخلافة؛ لوجدنا أنها بلاد زراعية، ولقد كان مسلمة يدعم الزراعة وعمل في إحدى غزواته عندما كان يُعسكر في منطقة "بالس"، على شق نهر أصبح فيما بعد يُعرف بنهر مسلمة، حتى أصبحت منطقة بالس وما حولها قرًى زراعية منتجة بفضل هذا العمل، وقد تكاثرت ذرية مسلمة في هذه المنطقة، حتى أصبحت تعرف بجي المسلامة^(٣).

وكان مسلمة يهتم بشق قنوات المياه للزراعة، وكان يوزع الأرض على الفلاحين، حيث قام بإقطاع قوماً من بني ربيعة قطاع كثيرة، دعماً وتشجيعاً

(١) ياقوت: البلدان، ج ٢، ص ٢٦٥ ؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ٢، ص ٦٦٢ ؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ٣٨٢ ؛ الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٥٤، ٥٥.

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٦١.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١، ص ٦٤.

على الغرس للزراعة، وقد بقيت هذه الأراضي ملكاً لهم، إلى أن جاءت خلافة بنى العباس، فأصبحت هذه القطائع ملكاً للخليفة المأمون^(١).

وقد عمل مسلمة في "بالس" على ترميم سور المدينة وإحكامه، وقد طلب أهل بالس من مسلمة، أن يحفر لهم قناة من الفرات تسقي أرضهم، على أن يجعلوا له الثالث من الإنتاج من غلاتهم، بعد عشر السلطان، فحفر لهم النهر المتافق عليه، ووفوا له بالشرط، واستفادت من هذه القناة مجموعة من القرى القريبة من بالس مثل: توبلس، وقاصرين، وعابدين، وصفين، وجميعها من ضواحي بالس^(٢).

ونقل البلاذري أن ابتداء العرض لحفر النهر كان من مسلمة، وأنه هو الذي دعاهم لمثل هذه المعاملة،^(٣) وسواءً تمت بطلب من أهل المنطقة أو بعرض منه، فهذا لا ينقص من قيمة المشروع شيئاً.

وبالقرب من هذا النهر أنشأ مسلمة العديد من البساتين الزراعية، التي كان يشرف عليها رجل يدعى أسيد السلمي، وكانت هذه البساتين فيها عين تتبع من وسطها، يُسقي منها الغرس ويشرب منها الناس^(٤).

وأقام مسلمة كذلك مزارع أنشأ فيها القنوات، وكانت تسمى بالمصانع، وعندما جاء وفد أهل مكة، وكان فيهم خالد بن صفوان إلى الشام، خرج هذا الوفد، وشاهد هذه المناطق الزراعية، وكان يرافقهم مسلمة، وقال لهم: يا أهل مكة هل فيكم مثل هذه المصانع^(٥).

وأيام خلافة الوليد حدث بشوق في النهر، مما دفع الحاج بالكتابة إلى الخليفة لإصلاحها، حيث قدر لذلك من المال ثلاثة آلاف ألف، فاستكثرها الوليد، فقال له مسلمة: أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرض المنخفضة التي

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ج ١، ص ١٢١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٥٥-١٥٦.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٨.

يبقى فيها الماء، وقام مسلمة، وأصلح هذه البثوق من ماله الخاص، فحصلت له أراضٍ واسعة، وحفر الآبار، واستقدم عدداً من المزارعين، وعمّر تلك الأرضي، وأسكنها بعض الفلاحين، وأصبحوا يعيشون منها إلى مدة طويلة من الزمان حتى نزعها بنو العباس فيما بعد^(١).

وهكذا يبدو التوجه الاقتصادي الإصلاحي لمسلمة في مجال الزراعة، مما ينم عن عقلية فذة في مجال الإعمار والاقتصاد والبناء، بالإضافة لعسكرية منقطعة النظير.

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٩٢.

المبحث الثالث

الجانب الأخلاقي في حياة مسلمة

الجانب الأخلاقي في حياة مسلمة

ومثلاً كان مسلمة قائداً عسكرياً وإدارياً فذاً فقد كان في الوقت نفسه رجلاً عظيم الأخلاق متميزاً، ذكره المرعشي بقوله : "كان مسلمة من أنجب ابناء عبد الملك وأقربهم، خيراً ديناً مرضي السير في السيادة والسياسة^(١). وكذلك نعته الجاحظ بقوله : "كان مسلمة شجاعاً خطيباً بارع اللسان جواداً ولم يكن في ولد عبد الملك مثله، ومثل هشام بعده"^(٢).

ولقد وصفه ابن كثير بقوله: "كانت لمسلمة مواقف مشهورة، ومساعي مشكورة، وغزوات متالية منثورة، وقد افتتح حصوناً وقلاءً، وأحيا بعزمها قصوراً وبقاعاً، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه، في كثرة مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوة عزيمته، وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه"^(٣). إذاً كان مسلمة كما كان خالد بن الوليد، ذكاء نادر يجعله حاضر البديهة دائمًا، يُصدر قرارات سريعة مرنّة ومبتكرة غالباً، متشبّتاً بجمع المعلومات عن العدو؛ مما يجعل تلك القرارات السريعة صحيحة، سريع الحركة، شجاعاً مقداماً، له عقيدة راسخة، وشخصية قوية، وإرادة حديدية، وقابلية بدنية فائقة، ومعنويات عالية، يسيطر على أعصابه سيطرة عجيبة، يثق به رجاله ويحبونه، ويبادلهم ثقة بثقة، وجأاً بحب، يفقه مبادئ الحرب، حاضر مشرق، وماضيه ناصع مجيد^(٤).

ومن أخلاق مسلمة أنه كان كريماً طيب الغراس شهماً، كان يحترم حتى خصومه، ويتعامل معهم بأخلاق عالية، وكان لا يقبل الشماتة حتى في العدو، ولم يقبل الإساءة ليزيد بن المهلب رغم خلافه معه، وقال مسلمة في شأن يزيد: "إن يزيد بن المهلب حاول عظيماً ومات كريماً"^(٥).

(١) غرر السير، ص ١٥٣.

(٢) البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٨٩.

(٣) البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٤) خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ج ١، ص ٢٣١.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٩٩ ؛ البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٤٩.

وامتاز مسلمة بمروءة عالية، وكان لا يقبل التزلف ولا المداهنة، وكان لا يقبل الوشایة مطافأً، ولا يثق في الواشي، حيث حاول رجل أن يشي ب الرجل آخر عنده فلم يقبل منه مسلمة ذلك^(١).

وعلم مسلمة أن رجلاً أساء إليه وشتمه، وعلم الرجل أن كلامه وصل إلى مسلمة، فخاف الرجل من القدوم عليه، ولكن مسلمة بادر بالسؤال عنه حتى أتاه الرجل، وأخذ يعتذر حتى بالغ في الاعتذار، فقال له مسلمة: "اللهم عفواً، كف عن هذا رحمك الله"، ولم ير الرجل منه تغيراً^(٢).

وأحسن مسلمة إلى القوم الذين شتموه من أهل الأردن، وكتب إلى الوالي عليهم يأمره بالإحسان إليهم، وأرسل لهم أموالاً توزع عليهم، وكساء يقسم بينهم^(٣). وهكذا كانت أخلاقه مع المسيئين، فكيف ستكون أخلاقه مع المحسنين ومع الآخيار الطيبين؟؟

وكذلك استجار ب المسلم ابن الضحاك والي المدينة، بعد خلاف له مع الخليفة يزيد، حيث حاول مسلمة تسوية هذا الخلاف^(٤).

ولحق الشاعر الكميت بن زيد ب المسلم أيضاً في الشام - مستجيراً من خالد القسري، والي العراق، فقبل مسلم جواره، ومنعه من خالد^(٥)، وبيدو للباحث من خلال الروايات السابقة أن مسلمة تميز من بين إخوته - حتى الخلفاء منهم - بهذه الصفات الطيبة، وكان الملاذ الآمن، والحضن الدافئ لكل من نزلت به فاقعة، أو حلت به مصيبة، وهكذا كان صاحب عزيمة ماضية، وهمة عالية، ومروءة عظيمة، ووفاء دائم وقد أشار الباحث إلى بعض هذه الروايات سابقاً.

ولم يكن ل المسلم خلافاً شخصياً مع أحد من الناس، وكانت مصلحة الخلافة عنده مقدمة على كل الاعتبارات، ومن أجلها يحارب ويخاصم، أو يهادن ويُسالم،

(١) البلاذري: أنساب، ج ٩، ص ٣٦٥٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٥٥٠.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٨٨.

(٥) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٢١٩-٢٢٠

حتى إنه بعدها تخلص من يزيد بن المهلب، أرسل إلى أخته هند بنت المهلب يخطبها لنفسه، فقالت لرسوله: "والله لو أحيا من قتل من أهل بيتي وموالي؛ ما طابت نفسي بتزوجه، بل كيف يأْمُنني على نفسه، وأنا أذكر ما كان منه، وتأثري عزده؟ لقد كان صاحبك يوسف بغير هذا في رأيه"^(١).

ويرى الباحث أن ما قام به مسلمة من خطبة هند بنت المهلب، كان محاولة منه لعدم إظهار الخلاف مع يزيد خلافاً شخصياً، إنما كان الدافع له مصلحة الخلافة ووحدة الأمة التي هي فوق كل شيء ولا مجال لشخصنة الأمور.

زهد مسلمة وتقواه:

ومن جانب آخر، فقد تميز مسلمة بزهده وتقواه، ورقة قلبه، حيث ذكرت أبيات من الشعر أمامه، تتحدث عن الموت، فرق لها مسلمة، وبكي بكاءً شديداً، حتى اخضلت لحيته من الدموع^(٢).

وعندما مات صاحب مسلمة "شراحيل"؛ جزع عليه جزاً شديداً، فجاء بعض الناس لعزانته، منهم، عبدالله الشيباني، حيث تذكر مسلمة صاحبه، وبكي بكاءً شديداً^(٣).

ومن شدة تقواه، كان في الحرب -إذا مر بزرع لا يقحم فيه فرسه، حتى لا يتلف شيئاً إلا في خدمة العمل الذي يسعى إلى تحقيقه^(٤).

وكان مسلمة حاضر القلب، سريع العبرة، وقد وعظه عمر بن عبدالعزيز، فبكى وقال: "يرحمك الله، لقد ألنت منا قلوبناً قاسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرًا"^(٥).

(١) الآبي: نثر الدر، ج ٤ ، ص ٩٣-٩٢ ؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٩ ص ١٩٩.

(٢) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٨ ، ص ١٢٥.

(٣) البلاذري: أنساب، ج ٨ ، ص ١٢٥.

(٤) البسوبي: المعرفة والتاريخ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ص ٤٠ . ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٤٦٩.

(٥) المبرد: الكامل في اللغة والأدب ، ج ١ ص ١٣٩ ؛ الأصفهاني : الأغاني ، ج ٩ ص ٣٠٦ . ؛ الأصبغاني: حلية الأولياء، ج ٥، ص ٣٤٠ ؛ ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز، ص ٢١٤ .

وقال مالك بن أنس: مات بشر بن سعيد ولم يدع كفناً، ومات عبد الله بن عبد الملك بن مروان وقد ترك ثمانين مداً ذهباً، فبلغ عمر بن عبد العزيز موتهما، فقال : والله لئن كان مدخلهما واحداً، لئن أعيش بعيش عبدالله أحباب إلي، فقال له مسلمة: يا أمير المؤمنين، هذا الذبح عند أهل بيتك، فقال: إنا والله لا ندع أن نذكر أهل الفضل بفضلهم^(١).

وكان مسلمـة يقول: "رحم الله عمـي، والله لقد هـلك، وما نـالـه قـط شـرفـ العـطـاءـ، إـنهـ وـالـلـهـ عـضـ علىـ مـقـدـمـ قـمـيـصـهـ، ثـمـ شـقـيـ فيـ الدـنـيـاـ، حـتـىـ خـرـجـ مـنـهـ".^(٢)
 ثم قال: ﴿ تِلْكَ لِلّهُرُّ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عِلْمًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَلَعْقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣).

ولعل أهم ما يميز خلق مسلمـة: زـهـدـهـ فـيـ الـخـلـافـةـ، وـتـطـلـعـهـ إـلـىـ الـآخـرـةـ، وـلـمـ أـرـسـلـ سـلـيـمانـ إـلـىـ مـسـلـمـةـ يـخـبـرـهـ خـبـرـ يـزـيدـ بـنـ الـمـهـلـبـ، وـيـطـلـبـ مـنـهـ الـقـدـومـ لـذـكـ.ـ أـخـبـرـ مـسـلـمـةـ جـنـوـدـهـ بـالـعـزـمـ عـلـىـ الرـحـيلـ، فـبـكـىـ النـاسـ ثـمـ قـالـواـ، هـلـمـ أـيـهاـ الـأـمـيـرـ حـتـىـ نـبـاـيـعـكـ، فـأـنـتـ أـحـقـ بـهـذـاـ الـأـمـرـ، فـقـالـ مـسـلـمـةـ: عـافـكـمـ اللـهـ، فـإـنـيـ رـجـلـ قـدـ بـلـغـ النـاسـ عـنـيـ مـاـ فـعـلـتـ بـأـرـضـ الـعـدـوـ طـوـالـ هـذـهـ، وـلـأـحـبـ أـشـقـ الـعـصـاـ، وـأـخـرـجـ عـلـىـ رـجـلـ قـدـ بـاـيـعـهـ النـاسـ طـائـعـنـ غـيـرـ مـكـرـهـيـنـ، وـأـنـاـ قـدـ بـاـيـعـتـ أـخـيـ سـلـيـمانـ فـبـاـيـعـهـ، رـحـمـكـ اللـهـ، فـبـاـيـعـ النـاسـ سـلـيـمانـ^(٤).

ويؤكـدـ الـبـاحـثـ، عـلـىـ أـنـ مـسـلـمـةـ لـوـ كـانـ يـطـمـعـ فـيـ الـخـلـافـةـ لـأـخـذـهـ عـنـوـةـ، حـيـثـ إـنـ جـلـ جـيـشـ الـخـلـافـةـ كـانـ مـعـهـ، لـكـنـهـ كـانـ يـطـمـعـ فـيـمـاـ عـنـ اللـهـ، وـيـزـهـدـ فـيـمـاـ يـتـقـاتـلـ عـلـيـهـ النـاسـ، كـيـفـ لـاـ، وـقـدـ أـفـنـ شـطـرـ عـمـرـهـ مـجـاهـدـاـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ، ثـابـتـاـ صـابـرـاـ مـحـتـسـبـاـ أـجـرـهـ عـلـىـ اللـهـ.

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ٥، ص ٢٨١.

(٢) البسوـيـ: المـعـرـفـةـ وـالتـارـيـخـ، ج ١، ص ٥٧٩.

(٣) القصص آية ٨٣

(٤) ابن أـعـمـ: الفـتوـحـ، ج ٤، ص ٢٢٦.

وكان دائماً يأمر بطاعة الخلفاء، ورد التنازع في الأمر إلى الله وإلى رسوله، ويدعو إلى التزام الكتاب والسنة^(١).

وكان يؤثر جنوده على نفسه، حيث قدم له ملك الروم هدية ثمينة، فعمد إلى الهدية فوزعها في جيشه، ولم يفضل نفسه عليهم بقليل ولا بكثير^(٢).

وكان يحب أن يقضي لأصحاب الحاجة حاجتهم، ويعجبه ذكر محسن الناس ومروءاتهم، فإذا سمع بذلك لا يبقي أحداً إلا قضى حاجته^(٣).

وكان مسلمة زاهداً في الأموال، كثير الإنفاق في وجوه الخير، وقد وصلت إليه أموال كثيرة من الطيب والكسوة، وغيره، فلم تثبت عنده إلا يسيراً حتى أنفقها، ولم يؤثر نفسه منها بشيء^(٤).

وكان مسلمة متاثراً بزهد عمر بن عبد العزيز ونقواته؛ لذلك جمعتهم علاقة وثيقة، فتعلق قلب مسلمة بعمر، حتى بعد وفاته، حيث رأه فيما يرى النائم، وهو في روضة خضراء نصرة فيحاء، وأنهار، وعليه ثياب بيضاء^(٥)، فأقبل على مسلمة وقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلَيَعْمَلِ﴾ لَعَمِلُونَ^(٦).

وقال مسلمة: "رأيت عمر بعد موته في المنام فقلت: يا أمير المؤمنين ليت شعرى إلى أي الحالات صرت بعد الموت؟ قال: يا مسلمة، هذا أوان فراغي، والله ما استرحت إلا الآن، قلت: فأين أنت يا أمير المؤمنين؟ قال أنا مع أئمة الهدى، في جنات عدن"^(٧).

هكذا كان مسلمة زاهداً، نقياً، عابداً، محباً للصالحين، بادلاً للخير، كريماً عطوفاً، كان محل إجماع الخلفاء، ورضي العلماء، ومدح الشعراء، عظيم الأثر في

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ص ٤٢.

(٢) ابن أثيم: الفتوح، ج ٤، ص ٢٢٦.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ص ٤١.

(٤) ابن عبد ربہ: العقد الفريد، ج ١، ص ٣٢٦.

(٥) الأصفهاني: الأغاني، ج ٦ ص ٣٠٣.

(٦) سورة الصافات ، آية ٦١

(٧) ابن الأثير: المختار من مناقب الأخيار، ج ٤ ، ص ١١٤.

البادية والحضر، قال فيه خالد بن صفوان : "كريم الغراس، عالم بالناس، جواداً في المحل، بساماً عند البذل، حليماً عند الطيش، في ذروة قريش، ولباب عبد شمس، ويومه خيرٌ من أمس" ^(١).

ووصف أعرابي أخلاق مسلمة فقال: "يا ابن الخليفة، زرتاك وأنت غرة مصر، وحسبيها حين تذكر، قد تعطفت عليك الأملاك، فليس يخاف ضيفك الهلاك، وأنت في فرع نضار، ورثته عن ذوي الأخطار، ولك يد تمطر الندى، وأخرى تقتل العدى، وقد رزقت من الناس الحمد، فدل عليك فضلك" ^(٢).

وكان مسلمة دائم العطاء، ويكره الشح والبخل، وكان يقول: "إنه لا عفة مع الشح، ولا مروءة مع الكذب، وعجبت لمن قدر كيف لا يغفر، ولمن وسّع عليه كيف لا يوجد" ^(٣).

ولما توفي عمر بن عبد العزيز؛ بكته زوجته فاطمة حتى عَشَي بصرها، فرق لها أخواها مسلمة وهشام، وقالا: ما هذا الأمر الذي قد دُمِّت عليه؟ أجزعك على بعلك، وأحق من جزع على مثله.. أم على شيء فاتك من الدنيا، فيها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا" ^(٤).

إن حياة هؤلاء الأبطال تبهر العقول والأبصار، فهل ستتصمت الأصوات المنكرة المريبة التي عملت جاهدة لتهديم تأريخنا وتراثنا لنسوره تأريخاً وتراثاً من وراء الحدود، أم على قلوب أفالها؟؟ أما الذين هداهم الله، فسيقولون بفخر واعتزاز: "أولئك آباءي فجئني بمثلهم"

وأما الذين في قلوبهم مرض، من الذين ارتفعت أصواتهم المنكرة المريبة، يدعون إلى رجال غير رجالنا، وقادة غير قادتنا، وأفكار غير أفكارنا، ومعتقدات غير معتقداتنا، فيجب أن تُحرس ألسنة هؤلاء، وتسكت أصواتهم إلى الأبد ^(٥).

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ٨، ص ٨٦.

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٥٤-٣٥٥٢.

(٣) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٤٧-٣٥٤٨.

(٤) ابن قدامه المقدسي: الرقة والبكاء، ج ١، ص ٢٩٧؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٧٢.

(٥) المصدر السابق: الرقة والبكاء، ج ١، ص ٢١.

ويقول شيت خطاب: "إن دراسة تاريخ قادة الفتح يجدي في مصاولة الاستعمار الفكري، الذي أanax بكله على عقول شبابنا ردهاً طويلاً من الزمن"^(١). وبذلك تميزت أخلاق مسلمة، بكرم واسع، وصبر جميل، ووفاء أصيل، وهمة عالية، ومروعة جامعة، وعز لا يلين، ويتوح ذلك زهد واضح، وإيمان راسخ ثابت متين.

(١) قادة فتح العراق والجزيرة، ج١، ص ٣٤.

المبحث الرابع

الجانب الأدبي في حياة مسلمة

الجانب الأدبي في حياة مسلمة:

لقد تميز مسلمة من بين إخوته بفصاحته، وكان شجاعاً وخطيباً، بارع اللسان جواداً، ولم يكن في ولد عبد الملك مثله، ومثل هشام بعده^(١). وكان الناس في زمانه يقولون: "كان الوليد ومحمد أبناء عبد الملك لحانين، ولم يكن في ولده أفضح من مسلمة"^(٢).

وكان مسلمة يرعى الأدب وينفق على طلابه، وقال سعيد بن عبد العزيز التتوخي: "أوصى مسلمة بن عبد الملك بالثالث من ثلث ماله لطلاب الأدب، وقال: إنها صناعة مجففة أهلها"^(٣).

وقال البعض: إن مسلمة أوصى بالثالث من ماله لطلاب الأدب^(٤). وكان مسلمة يكره اللحن ويحب الفصاحة، يقول: "لا أحب أن أسأل هذا الشيخ، مما يمنعني منه إلا لحنه"^(٥).

وكان يقول: "إن الرجل يكلمني في الحاجة يستوجبها فليحن؛ فكأنه يقضمني حب الرمان الحامض حتى يسكت، فأرده عنها، ويكلمني الرجل في الحاجة ما يستوجبها، فيعرب؛ فأجيئه إليها"^(٦).

وقدم يوماً العريان بن الهيثم على عبد الملك بن مروان، فقيل له: تحفظ من مسلمة فإنه يقول: "لئن يلقمني رجل حبراً أحب إلى من أن يسمعني لحناً"^(٧). وكان مسلمة يحب الشاعر "نصيب" لفصاحته، فقال له يوماً: أمدحت فلاناً؟ قال: نعم، قال: فما فعل معك؟ قال حرمي، قال: فهلا هجوت؟ قال: لا أفعل، قال: ولم؟ قال: لأنني أحق بالهجو منه إذ رأيته أهلاً لمدحي، فأعجب به مسلمة، وقال

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٤٨١.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥.

(٣) التوحيد: البصائر والذخائر، ج ١، ص ١٢٢-١٢٣؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج ٢، ص ٣٨.
؛ البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٣٦٧.

(٤) الآبي: نثر الدر، ج ٣، ص ٧١؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٤٦٩.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٢٣.

(٦) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤١٣.

(٧) البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٤٨؛ ابن حمدون: التذكرة الحمونية، ج ٧، ص ٢٦٩-٢٧٠.

له: سلني، قال: كف بالعطية أبسط من لساني بالمسألة، فأمر له بـألف دينار^(١) وتكلم بحضور مسلمة مجموعة من الخطباء فأسهبوا في القول، ثم تكلم رجل من الناس وكان فصيحاً، لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، فقال مسلمة: ما شبهت كلام هذا، عقب كلام هؤلاء إلا بسحابة لبدت عجاجة^(٢).

وسمع مسلمة رجلاً يتكلم فيحسن ويبين معانيه التي يقصد لها، تبياناً شافياً، فقال مسلمة: "هذا والله السحر الحال"^(٣).

وأعجب مسلمة كثيراً من فصاحة خالد بن صفوان، عندما وصف خالد الشعراة جرير والفرزدق والأخطل بكلام حسن جميل، فقال: "ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين، ولا رأينا في الآخرين، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً، وألينهم عطفاً، وأعفهم مقلاً، وأكرمهم فعالاً"^(٤).

وكان مسلمة نفسه من البلاغاء الفصحاء، قال عنه الأصفهاني : "كان مسلمة أحد من أجاب شرعاً، بكلام منثور، فغلبه"^(٥).

وأثرت عن مسلمة الكثير من العبارات والمقولات التي خلّدها التاريخ والتي تعبّر عن ثقافته وسعة أدبه وعلمه، منها قوله: "العيش في ثلات، سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل"^(٦).

وقوله أيضاً : "مروءتان ظاهرتان، الرياسة، والفصاحة"^(٧).

ومن حب مسلمة للأدب، كان يعقد له مجالس خاصة، يسأل فيها جلساًه وسمّاره عن أفضل ما قالته العرب شرعاً أو نثراً، ويستمع إلى ما قيل في ذلك، وكان مسلمة يتابع الشعر والنثر ويحفظه^(٨).

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج ١، ص ٣٣٠؛ أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٩، ص ٨٤.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٥٢؛ البلاذري: أنساب، ج ٨، ص ٣٥٤٩.

(٣) المصري: إتفاق المبني وإفتراق المعاني، ج ١، ص ١٤٣.

(٤) الأصفهاني: الأغاني، ج ٨، ص ٨٦.

(٥) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٢٦٩.

(٦) القرطبي: بهجة المجالس، ج ٢، ص ١٢٥؛ الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٣، ص ١٨٦.

(٧) الآبي: نثر الدر، ج ٣، ص ٧٣.

(٨) الأصفهاني: الأغاني، ج ٢٠، ص ٤٠٦.

وعاصر مسلمة عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، وهو من أبين الناس وأفصحهم، وكان مسلمة يقول: "إني لأنحي كور العمامة عن أذني؛ لأسمع كلام عبد الأعلى"^(١).

مسلمة والشعر:

ولعل الشعر هو الجانب الأهم من جوانب الأدب التي أولاهها مسلمة اهتماماً خاصاً، حيث كان يحب سماعه، ويتقصى قديمه، ويتتابع جديده، وكان يتغنى بالشعر، وكان مرجعاً، فقد يرجع إليه في خلاف حول بيت من القصيدة أو أمر من أمور الشعر المختلفة؛ ليفصل فيه، أو يبدئ رأيه^(٢).

وكان يهتم بالشعراء ويجالسهم، ويلتقى وفودهم، وقد استقبل وفد الشعراء القادم إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، وهم "كثير" و"الأحوص" و"نصيب" وقال كثير: أول من لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فتى العرب، وكل واحد منا ينظر في عطفيه لا يشك أنه شريك الخليفة في خلافته، فأحسن ضيافتنا، وأكرم مثوانا، ثم قال: أما علمتم أن إمامكم لا يعطي الشعراء شيئاً، وقد أقام الوفد أربعة أشهر في ضيافة مسلمة قبل أن يؤذن لهم على الخليفة^(٣).

ومدح "كثير" الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان يرغب في العطاء، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه، فكلم مسلمة يزيد في شأنه، فقال: يا أمير المؤمنين مدحك، قال بكم مدحنا، قال: بسبع قصائد، قال: فله سبعمائة دينار، والله لا أزيده عليها^(٤).

وكان الشاعر أبو نحيلة منقطعاً إلى مسلمة، ولما حكم بنو العباس، خافهم وابتعد حتى علم أن السفاح عفا عن جميع الشعراء الذين كانوا يشيدون ببني أمية، ثم قدم إلى الخليفة العباسي ووقف بين يديه، ثم استأنف في الإنجاد، وهو لم يعرفه

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٤٤.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ١٨، ص ١٢٥.

(٣) ابن عبد ربہ: العقد الفريد، ج ١، ص ٣٣٣-٣٣٤؛ الأصفهاني: الأغاني، ج ٩، ص ٢٩٦.
؛ ابن الجوزي: المننظم، ج ٧، ص ٣٨.

(٤) الجمحى: طبقات فحول الشعراء، ج ٢، ص ٥٤٤.

بعد، فقال له: ومن أنت؟ قال: أبو نحيلة الحمانى، فقال له السفاح: لا حياك الله،
ولا قرب دارك يا صاحب السوء، ألسن القائل في مسلمة بن عبد الملك:
أَمَسْلَمَ إِنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا جَبَلَ الدُّنْيَا وَيَا مَلَكَ الْأَرْضِ^(١).

ثم قال السفاح: أما والله لو لا إني قد أمنتُ نظراً عاك؛ لما ارتد إليك طرفك حتى
أخضلاك بدمك، فقال أبو نحيلة: شيئاً من الرجز، مما جعل أبا العباس بيتسم،
وذهب غيظه، ثم قال له: أنت الآن شاعرنا، وقد استأنفنا لك العطاء^(٢).

ومن جانب آخر كان مسلمة ملماً بالشعر، يعرف صنوفه وألوانه، وركيكه،
وجزله حيث اجتمع عنده يوماً سماره، فطلب منهم مسلمة أن يذكروا أو عظ بيت
قالته العرب، فذكروا له شيئاً من الشعر، حتى ذكروا أمامه أبياتاً من الشعر تحكي
عن الموت، فأثرت في نفسه كثيراً، وبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: ردوها
علي، فردوا ها عليه حتى حفظها^(٣).

ومن الشعر الذي كان مسلمة يردد قوله:

لَا تَعْرِضَنَ لِإِمَامٍ
فَبَحْرُ نَحْسِنَكَ طَامِي
أَصَبَّتُهُمْ دُونَ رَمِيٍّ
وَاللَّهِ إِنَّكَ رَامِي^(٤)

ويحث مسلمة -من خلاله- على الوحدة والتزام الجماعة، ودوام الطاعة للخلافة،
ولما كانت فتنة ابن المهلب؛ خرج الخليفة يزيد عليه درع؛ فأنشد مسلمة قول
الخطيئة:

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَازِرَهُمْ
ذُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ
قال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا، فقام إليه
مسلمة، فقبله بين عينيه^(٥).

(١) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج٤، ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص ١٣٠.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٨٥، ص ١٢٥.

(٤) الشنتریني: الذخيرة في محسن أهل الجزيرة، ج ١، ص ٢٢٣.

(٥) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج٤، ص ١٣٠؛ الأ بشهي: المستطرف ، ص ٢٨٩.

وقد تшاجر الوليد بن عبد الملك مع أخيه مسلمة في شعر امرئ القيس والنابغة الذبياني في وصف طول الليل أيهما أجود؟، فرضياً بالشعبي محكمًا بينها، فأحضر، فأنشده الوليد قول الذبياني:

وَلِيلٌ أَقَاسِيَّةٌ بَطِئٌ الْكَوَاكِبِ
لِوَالدَّاهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ
بَهْنَ فُلُولٌ مِنْ قَرَاعِ الْكَتَائِبِ

كَلِينِي لَهُمْ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبِ
عَلَيَّ لِعَمْرِو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةَ
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوقَهُمْ

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس:

عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْتَنِي
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّ
بَصْبَحٍ، وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثُلِ
بِكُلِّ مُغَارِ الْفَنْلِ شُدَّتْ بِيَنْبُلِ
بِأَمْرِ اسِّكَانٍ إِلَى صُمْ جِنْدِلِ

وَلِيلٌ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقَاتَتْ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصَلْبِهِ
إِلَّا أَيْهَا اللَّيلُ الطَّوِيلُ إِلَّا انجَلِيْ
فِيَالَّكَ مِنْ لَيْلٍ كَانَ نُجُومَهُ
كَانَ التُّرَيَا عُلَقَتْ فِي مَصَامِمَهَا

وحينها ضرب الوليد برجله طرباً! فقال الشعبي: بانت القضية؟^(١).

وبالرغم من أن مسلمة كان يحب الشعر ويحفظه، ويلقى في مجالسه ويتغنى به، إلا أن ما قاله من شعر يُعد قليل جداً، ربما لأنه كان مشغول بأمور أخرى أكثر إلحاحاً من موضوع الشعر، وهو موضوع الغزو والفتح التي أوقفها جل حياته، ولكن نقلت بعض الأشعار نسبت إلى مسلمة، منها قوله، عندما بلغه خبر موت والده عبد الملك:

وَقَدْ أَتَى عَلَى يَوْمِهِ إِلَى حَبِيبِ
إِلَيْ، لَقَدْ عادَتْ لَهُنَ ذَنْبُ
أَمْرِهِ كَرُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَ كَرُوبٌ^(٢)

لَقَدْ أَفْسَدَ الْمَوْتُ الْحَيَاةَ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَامُ أَحْسَنَ مَرَةَ
أَتَى دُونَ حُلُوِ الْعَيْشِ حَتَّى
وَقَالَ مُسْلِمَةُ أَيْضًا:

لَا شَيْءَ أَحْسَنُ فِي الدُّنْيَا وَسَاكِنُهَا
مِنْ وَامِقٍ قَدْ خَلَّا فِرَادًا بِمُؤْمُوقٍ
كَذَاكَ لَيْسَ بِهَا أَشْجَى لَدَى نَظَرٍ

(١) البغدادي: خزانة الأدب، ج ٢، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) ابن الجوزي: المتنظم، ج ٢، ص ٢٧٤.

لِنَفْسِي الْفَدَاءُ لِظُبْيٍ بَاتَ يُسْعِدُنِي لَيْلًا عَلَى قَبْضٍ أَرْوَاحِ الْأَبَارِيقِ^(١)

وقال مسلمة:

وَلَوْ بَعْضُ الْكَفَافِ ذُهِلَتْ عَنْهُ لَأَغْنَاكَ الْكَفَافُ عَنِ الْفُضُولِ^(٢)

وقال مسلمة عندما توفي صاحبه شراحيل:

يَسْخَى بِنَفْسِهِ عَنْ شَرَاحِيلَ أَنَّنِي إِذَا شِئْتُ لَاقِيتُ امْرًا مَاتَ صَاحِيلُ^(٣)

ونقل الأصمسي أن خلافاً نشأ بين مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد، وبلغ مسلمة أن العباس ينتقصه، فكتب إليه مسلمة هذه الأبيات التي عبر فيها عن حبه وسعة

صدره فقال :

فَلَوْلَا أَنْ أَصْلَاكَ حِينَ تَنْمُوْ وَفَرْعُوكَ مُنْتَهِي فَرْعِيْ وَأَصْلِيْ
وَإِنَّي إِنْ رَمِيْتُكَ هِيْضَ عَظِيمٌ وَنَالَتْتِي إِذَا نَالَتْكَ نَبِلِيْ
إِذَا أَنْكَرْتِي إِنْكَارَ خَوْفٍ تَضْمُ حَشَاكَ عَنْ شَتْمِي وَعَذْلِي^(٤)

ولعل من المفيد أن يشير الباحث إلى أنه لم يعثر على شعر غير هذا ينسب لمسلمة، فيما اطلع عليه من مصادر.

وكثيراً ما كان مسلمة يستخدم الشعر كشواهد، يتحدث به في مواطن مختلفة، وهو يحفظ منه الكثير، فقد حضر عبد الملك سباقاً للخيل كان يشارك فيه

مسلمة؛ فسبق؛ فقال عبد الملك شعراً لبعض بنى عبس:

نَهِيْتُكُمْ أَنْ تَحْمِلُواْ هُجَنَّاءَكُمْ عَلَى خَيْلِكُمْ يَوْمَ الرَّهَانِ فَتُدْرِكُواْ
فَتَضُعُفُ سَاقَاهُ وَتَقْتُرُ كَفُهُ وَتَخْدَرُ فَخِذَاهُ فَلَا يَتَحرَكُ
وَمَا يَسْتَوِيْ الْأَمْرَانِ هَذَا ابْنُ حُرَّةِ وَهَذَا هَجَيْنُ ظُهْرَهُ مُشْتَرَكُ
قَعْدَنَ بِهِ خَالَاتُهُ فَاخْتَزَلَنَهُ أَلَا إِنَّ عَرْقَ السُّوءِ لَا بُدَّ مُذْرَكُ

ولما سمع مسلمة ذلك من والده رد عليه رداً مؤدياً فقال:

(١) التوحيدى: البصائر والذخائر، ج ٣، ص ٩٥-٩٦.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٥٨؛ المزنى: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٢٧، ص ٥٦٤؛ الحنفى: إكمال تهذيب الكمال، ج ١١ ص ١٨٩.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨، ص ٤٣.

(٤) المصدر السابق، ج ٥٨، ص ٤٣.

وَلَكِنْ نَكْنَاهَا بِأَسْيَافَا قَهْرًا
 وَقَدْ سَارَ فِي ظُلْمِائِهِ قَمَرًا
 وَلَا خَبَزَتْ خُبْرًا وَلَا طَبَخَتْ قَدْرًا
 إِذَا لَقَى الْأَبْطَالُ يَطْعَنُهُمْ شَزْرًا
 بَيْضَاءٌ وَيُصِدِّرُهُمْ حَمْرًا
 وَمَا أَنْكَحُونَا طَائِعِينَ فَتَاتُهُمْ
 كَرِيمٌ إِذَا اعْتَلَ الزَّمَانُ وَجَدَتْهُ
 فَمَا زَادَهَا فِينَا السُّبَاءُ مَذَلَّةٌ
 وَكَمْ تَرَى فِينَا مِنْ أَبْنَى سَبِيلَتِهِ
 وَيَأْخُذُ رَيَانٌ بِكَفَّهِ فَيُورِدُهَا

فلما سمع عبد الملك ما قاله مسلمة، قبل رأسه وعينيه وقال: أحسنت يابني، ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق^(١).

وكان مسلمة يطالع كتب الملاحم، ويحفظ بعض أشعارها، التي تستقر في المستقبل، ومنها أبيات تخبر عن زوال ملكبني أمية كقول الشاعر :

وَكَانَ الْأَقَاصِيُّ وَالْأَدَانِيُّ كِلَاهُمَا عَلَى دُولَ لِلشَّرْقِ جَاءَتْ مِنَ الْغَرْبِ
 يُدِيرُ رَحَاهَا مِنْ خَرَاسَانَ عُصْبَةً وَآلُ زُرْيَقٍ فِي رَمَيِّ الْقَوْمِ كَالْقُطْبِ
 بَنَىْ أَسْعَدَ قَدْ هَبَّتِ الرِّيحُ بِالْتِي تُرِيدُونَهَا مِمَّا يُسْطَرُ فِي الْكُتُبِ^(٢)

ومضى الدهر، وظهر أمر ولد العباس، فحدث الحارث بن عبان البصري في أيام المنصور بهذا القول، فقال: لقد سمعت أبا مسلم يحكى هذا الخبر، وزادني في الشعر بيدين وهما :

فَصُونُوا جَمَالًا تُرْحَزُ حِبْلَجَذْبِ عَلَا وَلَدُ الْعَبَاسِ بَعْدَ أُمِيَّةَ
 إِلَى أَنْ يُنَادِي صَارِخُ اللَّهِ فِيهِمْ إِلَى أَنْ يُنَادِي صَارِخُ اللَّهِ فِيهِمْ^(٣)

وكان مسلمة يطالع غرائب الأخبار، وعندما نزل خراسان أميراً قيل له: إن هنا رجلاً دخل على هاروت وماروت؟ فأرسل إليه وأجرى معه حواراً طويلاً استفسر فيه عن أمور كثيرة.^(٤)

(١) الأصبهاني: الزهرة، ج ٢، ص ٦٣٥-٦٣٦.

(٢) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٩، ص ٣١٩.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ٣١٩.

(٤) ابن أبي الدنيا: الإشراف في منازل الأشراف ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .

من أقوال الشعراء في مسلمة:

لقد نال مسلمة إعجاب الشعراء، فامتدحوه قائداً، ووالياً، وأثنوا عليه في حياته، ورثوه بعد مماته، وذكروا فضله، وأظهروا قدره، ويجد بالباحث أن يقتطف بعضاً من هذه الأشعار، حيث يقول الشاعر أبو نخيلة الحمانى:

أَنْتَ الْمُصَفِّي مِنْ أَذَى الْعُيُوبِ لَوْلَا تِقَافٍ لَّمْ يَسِّبِ الْتَّدْبِيبِ لَأَمْسَتْ الْأُمَّةُ شَاءَ الدِّينِ ^(١)	مَسْلَمٌ يَا مَسْلَمَةَ الْحُرُوبِ مَضَاضَةً مِنْ كَرَمٍ وَطَيْبٍ تَقْرِي بِهِ عَنْ حُجْبِ الْقُلُوبِ وَقَالَ أَبُو نَخِيلَةَ أَيْضًا:
--	---

وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرَ الْأَرْضِ^(٢)

أَمَسْلَمٌ يَا مَنْ سَادَ كُلَّ خَلِيقَةِ

وقال الكميـت بن زيد:

وَتَأَنَّ إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ
 لَمَيْتٌ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٍ^(٣)

قِفْ بِالدِّيَارِ وَقُوفَ زَائِرٍ
 يَا مَسْلَمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ

وقال الفرزدق حين عُزل مسلمة عن ولاية العراق:

فَارْعَى فَزَارَةَ لَا هُنَاكَ الْمَرْتَعُ
 حَتَّى أُمِيَّةُ عَنْ فَزَارَةَ تَنْزَعُ^(٤)

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ الرَّكَابُ مُؤَدِّعًا
 فَسَدَ الزَّمَانُ وَبَدَلَتْ أَعْلَامُهُ

وقال رجل شامي يرثي مسلمة:

وَبَعْدَ إِسْحَاقَ^(٥) الَّذِي كَانَ لَمَّةً^(٦)
 إِنْ لَنَا بِفَعْلٍ يَحْيَى نَقْمَةً^(٧)

أَبْعَدَ مَرْوَانَ وَبَعْدَ مَسْلَمَةَ
 صَارَ عَلَى التَّغْرِيرِ فُرِيْخُ الرَّحْمَةِ

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ج ٢٠ ، ص ٤٠٦ .

(٢) البلاذري: أنساب ، ج ٨ ، ص ٣٥٥٠ ؛ الأصفهاني: الأغاني ، ج ٢٠ ، ص ٤٠٥

؛ الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ، ج ٧ ص ٣٠١ .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ، ج ١٧ ، ص ٢٠ .

(٤) الجمحى: طبقات فحول الشعراء ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ ؛ الأصفهاني: الأغاني ، ج ٢١ ، ص ٣١٣ .

(٥) إسحاق: هو إسحاق بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس ، كان من أولى الأقدار العالية

ومات في بغداد ، للمرزيد ينظر البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٣٥١ .

(٦) لمة ، بمعنى المثل والند والشبيه ؛ ابن منظور: لسان العرب ج ١٢ ، ص ٥٤٨ .

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٣٥٢-٣٥١ .

وقال الوليد بن يزيد يرثي عمه:

فَقَوْلُ الْقَوْمِ وَحْيٌ لَا يُحَارِ
شَرَوْبٌ طَوَّحَتْ بِهِمْ عَقَارُ
تُرَاضِي بَيْنَهُمْ عَنَّ الدِّيَارِ^(١)

عَرِيزٌ كَانَ بَيْنَهُمْ نَبِيًّا
كَانَ بَعْدَ مَسْلَمَةَ الْمُرجَى
فَلَيْتَنِي لَمْ تَمُتْ وَفَدِ الْكَ
وقال الوليد بن يزيد أيضاً:

أَقُولُ وَمَا الْبُعْدُ إِلَّا الرَّدَى أَمْسَلَمْ لَا تُبْعِدُنَّ مَسْلَمَةَ
فَقَدْ كُنْتَ نُورًا لَنَا فِي الْبِلَادِ مُضِيئًا فَقَدْ أَصْبَحْتَ مَظْلَمَةً^(٢)

وقال الكمييت بن زيد في مسلمة:

بِالْمُؤْبِدِه^(٣) السَّوَائِرَ
تِلْمُقَحَّم^(٤) مَنَا وَشَاعِرَ
لِسْ وَالْمَحَافِلَ وَالشَّاعِرِ^(٥)
وَنُزُورُ مَسْلَمَةَ الْمُهَذَّبِ
بِالْمُذَهَّبَاتِ الْمُعْجَبَاهِ
فَهُمْ كَذِلِكَ فِي الْمَجا

وخلاله القول أن مسلمة كان محباً للشعر، ويحرص على استقبال الشعراء ومجالستهم، وقد أشار على أخيه يزيد بمحالسة الأدباء والشعراء ليأنس بهم، ويتسلى بأحاديثهم وأشعارهم، وأحضر نفراً منهم، وكان يجالسهم ويحادثهم، منهم الفرزدق وكثير عزة وغيرهم^(٦).

تشجيع العلم والعلماء

ومن الجوانب التي أولاها مسلمة اهتماماً خاصاً موضوع العلم، فقد أجلَّ العلماء واحترمهم، وحرص على الاستماع إليهم، ومن هؤلاء عبد الأعلى بن عبدالله ابن عامر بن كريز، وهو أبو عبدالرحمن البصري، وكان مشهوراً بالجود، وهو من أبين الناس في زمانه وأفصحهم، وكان مسلمة يحب أن يسمع له^(٧). ومن

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٨ ، ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥٨ ، ص ٤٥ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٤٦٩ .

(٣) المؤبدة: من أبد وهي الدهر وبقي ذكرها على الأبد، ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص ٦٨ .

(٤) المفحى: الذي لا يستطيع أن يرد الجواب عند لزومه، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص ٤٤٩ .

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٧١ .

(٦) المرعشى: غرر السير، ص ١٨١ .

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين ، ج ١، ص ٣٤٤ .

أكثر العلماء الذين أحبهم مسلمة، الحسن البصري، وكان يسأل عنه، ويقتصرى أخباره، ولما نزل العراق لحرب يزيد بن المهلب، لقيه خالد بين صفوان في الحيرة، فقال : يا خالد، أخبرني عن حَسَنَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ، قلت : أصلح الله الأمير، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجلسه في مجلسه، هو أشبه الناس سريرة وعلانية، وأشبه الناس قوله بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام بأمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له،رأيته مستغنىً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال مسلمة: حسبك يا خالد، كيف يضل قوم هذا فيهم^(١).

وقدم مسلمة هدية للحسن البصري، من أخر الملابس في زمانه، وكان الحسن يذهب إلى المسجد وهو يلبس هدية مسلمة^(٢).

ومما يدل على احترام مسلمة للعلماء؛ أنه كان يستشيرهم في أموره، كما حدث قبل غزو القسطنطينية، استدعاى بعض العلماء وسألهم عن الحديث النبوى الذى يخبر عن فتحها؛ ومن بين هؤلاء العلماء عبدالله بن بشر الغنوى، وغيره، ولما حدثوه وعرف منهم الخبر؛ قام وغزا القسطنطينية^(٣).

وكان مسلمة يصطحب معه العلماء والفقهاء في الغزو ، منهم سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وهو بمثابة المفتى الخاص للجيش أثناء الغزو^(٤).

وقد أشى ثلاثة من الفقهاء على مسلمة في حد طبقه على سارق، سرق ناقة من الحرم المكي، وقد تكررت سرقة، حيث ضرب عنقه، ولما علم الفقهاء الثلاثة، سالم والقاسم وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم ، قالوا: أصاب السنة^(٥).

(١) البسوى: المعرفة والتاريخ، ج ٢، ص ٥١-٥٢ ؛ الأصبهانى: حلية الأولياء، ج ٢ ص ١٤٧-١٤٨
؛ ابن الأثير: المختار من مناقب الأخبار، ج ٢ ص ١٩٩-٢٠٠ ؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ، ج ٥ ، ص ٢٣١.

(٢) ابن سعد: الطبقات ، ج ٧، ص ١٧٣ ؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ١، ص ٢٣١

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٤٦٩ ؛ العسقلانى: الإصابة، ج ١، ص ٣٠٨.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب، ج ٩، ص ٤١١٣.

(٥) الفاكهي: أخبار مكه، ج ٣، ص ٣٦٤.

والجدير قوله أن على رأس هؤلاء العلماء الذين ارتبط بهم مسلمة، الخليفة عمر بن عبد العزيز، وله العديد من القصص التي تبين طبيعة العلاقة بينه وبين مسلمة، وكان يدخل إلى غرفة عمر بن عبد العزيز الخاصة بالعبادة، وكان كثيراً ما يتناول معه الطعام والشراب، ويستمع مسلمة إلى مواضعه التي كانت تأخذ في نفسه كل مأخذ^(١).

ومن بين العلماء الذين أحبهم مسلمة: رجاء بن حيوة وأمثاله، حيث يقول: الأمير في كندة، رجاء بن حيوة، وعبادة بن نسي، وعدى بن عدي، إن الله لينزل بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء.^(٢)

وكذلك من العلماء الذين امتحنهم مسلمة، خالد بن صفوان الخطيب المشهور، الذي قال فيه: "ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين والآخرين"^(٣). هكذا كان مسلمة، أحد قادة الفتح، رُبِّي ليكون قائداً، فعاش قائداً، ومات قائداً غاب جسده عن الوجود، ولكنه بقى حياً في النفوس، وأشاره بقيت خالدة في التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان^(٤).

ويقول الدكتور خطاب: "يجب إظهار سمات قادة الفتح في بحوث خاصة جيداً، لأن أكثرهم غير معروفيين عند المتلقين؛ على الرغم من ضخامة فتوحاتهم، وأهمية أعمالهم"^(٥).

ويضيف خطاب قوله: إن المصادر شحت كثيراً على معظم القادة، فلم تذكرهم إلا نادراً، وإن هذا المجهود - مجهد تأريخ حياة قادة الفتح - تنوء به العصبة أولو الثقافة والعزم، فكيف أقوى على تحمله وحدى؟!^(٦)

(١) الأصفهاني: حلية الأولياء، ج ٥، ص ٢٧٧؛ عمر الملاع: الجامع لسيرة عمر، ج ١، ص ٣٨٧-٣٨٨

(٢) الذهبي: العبر، ج ١، ص ١٣٨؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ١٤٥.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٨، ص ٨٦؛ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ج ٤، ص ٣٧.

(٤) خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ج ١، ص ١٠.

(٥) المرجع السابق، ج ١، ص ١٠.

(٦) المرجع نفسه، ج ١، ص ١٠-١١.

ومسلمة أحد أهم وأبرز قادة الفتح في بنى أمية ، عمل في أهم ميادين الصراع بالنسبة للخلافة الأموية، ميدان الشمال، حيث كانت عاصمة الأمويين قريبة من الحدود البيزنطية، وكان اهتمام الخلافة بهذا الميدان اهتماماً بالغاً، منذ زمن معاوية^(١).

هكذا يسدل الستار على هذا القائد العظيم، الذي أشرق فجره في كل ميدان، في الغزو قائداً، وفي العلم رائداً، وفي الولاية مبدعاً، وللفترة خامداً، وفي السياسة دهقاناً، وللخلفاء أميناً ناصحاً، وللخلافة وفياً متقانياً، ولجنده مؤثراً، وهكذا عاش صابراً مجاهداً محتبساً، ونسأله أن يجزيه خير الجزاء، ويدخله جنانه، ويحل عليه رضوانه آمين.

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ١١٣

الخاتمة:

إن البحث في التاريخ الإسلامي ممتع وشيق وفيه الكثير من الخفايا العظيمة، وال عبر النافعة الجليلة، وهو ديوان العرب، وحذا لو جد الباحثون في كشف النقاب عن هذه الدرر الغالية والكنوز المخبوءة ومن خلال هذه الدراسة توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج وهي :

- ❖ امتازت الدولة الأموية بسعة فتوحاتها شرقاً وغرباً، ويقف خلف هذه الفتوحات رجالات لا زال الكثير يجهل حتى أسماءهم، وما شخصية مسلمة إلا واحدة منهم
- ❖ امتاز مسلمة بشخصية قيادية فذة تؤهله لئن يكون ضمن القادة العظام في التاريخ الإنساني، أمثال الإسكندر الأكبر المقدوني، و خالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي ولكن إهمال المؤرخين لهذه الشخصية أخفى معالمها الحقيقية، حتى أصبح لا يكاد يذكر مع القادة، بالرغم من أنه يفوق الكثير منهم.
- ❖ لقد أهمل المؤرخون سواء كانوا قدامى أو محدثين قادة الفتح من كتاباتهم ولم يأخذ هؤلاء القادة نصيبهم الأوفى من الذكر ، فمثلاً نجد طبقات المحدثين وطبقات الفقهاء وطبقات الأطباء... الخ ولا نجد طبقات للفاتحين رغم عظم دور الذي بذلوه في خدمة أمتهم، فما أحوجنا اليوم للتعرف على مناقبهم واستخلاص الدروس وال عبر من حياتهم ، لاسيما أن أمتنا اليوم بحاجة إلى قيادة رشيدة أكثر من أي شيء آخر.
- ❖ طبيعة الصراع الذي كان قائماً بين المسلمين والروم، ما زال قائماً حتى اليوم وإن كان بأشكال وسميات جديدة، لكنه في الحقيقة هو الصراع نفسه بين القرآن والصلib، وما أحوج الأمة اليوم إلى مسلمة جديد يتخصص في مواجهة الروم "الأمريكان والأوروبيين" لرفع راية التوحيد وكسر الصليب.

- ❖ إن كثيراً من العقبات والمشاكل التي تواجه الأمة تحتاج إلى رجال متخصصين في مجالاتهم المختلفة ونستلهم ذلك من السياسة الحكيمية التي جعلت مسلمة يتخصص في قيادة جبهة الشمال، حتى أصبح يمتلك دراية كافية وخبرة واسعة في دروبها المختلفة، استمرت ربع قرن من الزمان، فكان لزاماً على الأمة أن يكون فيها رجال متخصصون ينافحوا في الجبهة الملائمة لمواجهة أعداء الأمة ، ليكون النصر قريباً بإذن الله.
- ❖ امتاز مسلمة بخصلة مهمة وهي الوفاء للدولة، فلقد كان قائداً عاماً لجبهة الشمال على مدى خمسة خلفاء تقريباً، من عهد والده عبد الملك حتى عهد هشام، وامتاز خلال هذه الحقبة الطويلة بالانضباط والسمع والطاعة، حتى فيما يخالف رأيه ورغباته الشخصية، فكان رجل دولة بحق، وما أحوج أمة الإسلام اليوم إلى مثل هؤلاء القادة الذين تذوب رغباتهم في مصالح أمتهم.
- ❖ مثلت شخصية مسلمة درعاً واقياً للأمة يصد عنها غزانتها، على أخطر الجبهات وميادين المواجهة حيث الروم، كما كان في الوقت نفسه صمام الأمان ، يتصدى للفتن الداخلية، كالخوارج والجرائم والتمرد، أمثال يزيد بن المهلب كما كانت الدولة تسند إليه الولاية في المناطق التي تفتقر إلى الأمن والاستقرار حتى يعود إليها.
- ❖ كان مسلمة أديباً فصيحاً فقيهاً عالماً، الأمر الذي صقل شخصيته بصورة متميزة، مما أحوج قادة اليوم أن يقتدوا به و يجعلوه منارة يهتدون بها ليتمكنوا من جمع شعث الأمة، في هذا الظلام الحالك.
- ❖ ضرورة وجود محاضن تربوية خاصة تتولى النابهين من أبناء الأمة عامة وأبناء الحركات الإسلامية خاصة، لتهليلهم لقيادة كذلك التي خرجت مسلمة وأمثاله، ليتصدر هؤلاء قيادة الأمة ، وتوظف طاقاتهم بما يخدم الخير، بدلاً من أن تهدر هذه الطاقات وتذهب هباءً.
- ❖ حرصت الخلافة الأموية على استمرار جبهة الشمال مع الروم مشتعلة حتى تشغل العدو باستمرار مما دفعه للتخلص من التفكير في استعادة

الأقاليم التي فقدها منذ بداية الفتوحات، والتركيز فقط على حماية العاصمة "بيزنطة" الأمر الذي مهد لتلك الأقاليم أن ينتشر فيها الإسلام ويرسخ أقدامه بكل هدوء.

التوصيات:

يمكن حصر توصيات الباحث في النقاط الآتية:-

- ١ - أن يولي الباحثون في التاريخ الإسلامي قادة الفتح مزيداً من الاهتمام، دراسة وبحثاً وتقنياً وتحليلاً واستخلاصاً للعuzات، ليسهل تناولها والاستفادة منها في ميادين التربية المختلفة .
- ٢ - يوصي الباحث أن تقدم سيرة القادة الفاتحين وتصبح ضمن المناهج الدراسية وتقدم للطلاب عبر مراحل مختلفة، لتحقيق مفهوم التربية الجهادية وغرس روح التضحية فيهم .
- ٣ - يوصي الباحث -أيضاً- على رعاية النابغين من أبناء الأمة وتأهيلهم تأهيلاً تربوياً خاصاً كما أهل مسلمة من خلال تربية جادة حتى يتتسنى لنا تخريج قادة صالحين نواجه بهم أعداء الأمة الكثـر.
- ٤ - يوصي الباحث باستقراء الفتن في التاريخ الإسلامي، والكشف عن أسبابها وملابساتها، ونتائجها الوخيمة على الأمة ، كي تتقى شرها وويلاتها المـهلكة وذلك اقتداءً بمنهج الصحابي حذيفة رضي الله عنه الذي كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر مخافة أن يقع فيه.
- ٥ - يوصي الباحث قادة العمل الإسلامي عامة بدراسة تاريخ مسلمة وأمثاله من القادة، حتى تتكون لديهم صورة واضحة ، يستطيعون من خلالها التأثير في حياة الأمة والارتقاء بالعمل الإسلامي بأكبر قدر ممكن.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصدر العربي

- أبو سعد منصور بن الحسين الآبي [٢١٤٥هـ = ١٠٣٠م]
- ٣٧- نثر الدّر، تحقيق منيرة محمد المدنى، مراجعة حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- شهاب الدين محمد بن أحمد الأ بشي希ى [ت: ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦]
- ١- المستطرف في كل فن مستطرف ، تحقيق ، مصطفى محمد الذهبي ، دار الحديث القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م
- أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري [ت: ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩م]
- ٦- النهاية في غريب الأثر ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناхи ، المكتبة العلمية ، بيروت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩.
- مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الشيباني [٦٠٦ هـ = ١٢٠٩م]
- ٥- المختار من مناقب الأخبار تحقيق وتعليق ، مأمون الصاغرجي وعدنان عبدربه ومحمد أديب الجادر ، مركز زايد للتراث والتاريخ ط ١ ، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٠م
- محمد بن عبد الواحد بن عبد الكريم الشيباني [ت: ٦٣٠ هـ = ١٤٠٦م]
- ٤- الكامل في التاريخ ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي دار الكتب العلمية بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م
- أحمد بن حنبل الشيباني [ت: ٢٤١ هـ = ٨٥٥م]
- ٣٨- مسند أحمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر القاهرة ط (بدون).
- أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن ادريس ، [ت: ٥٦٠ هـ = ١١٦٤م]
- ٣٩- كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.

الأزدي،

أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يونس الأزدي [ت: ٣٤٠ هـ = ١٠١٢ م] ،
١٤- تاريخ العلماء بالأندلس، مطبعة المدنى عزت العطار الحسين، ط ٢ ،
١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

الأزدي،

أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي [ت: ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م] ،
٤٠- تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة،
١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م.

الأصبهانى،

أبى نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهانى [٣٨٤ هـ = ١٠٣٨ م] ،
٤٢- حيلة الأولياء وطبقات الأصفياء، المكتبة السلفية ، ط (بدون)
أبو بكر الأصبهانى محمد بن داود الأصبهانى ،
٣٣- الزهرة، تحقيق وتقدير إبراهيم السامرائي، حمودي القيس، مكتبة
المنار، الأردن الزرقاء، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م.

الأصبهانى،

إبراهيم بن إسحاق بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي: [توفي في النصف الأول
من القرن الرابع الهجري]

الإصطخري،

٤٣- المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسيني، مراجعة محمد شفيق
غربال، الجمهورية العربية المتحدة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الإداره العامة
للثقافة، ١٣١٨ هـ = ١٩٦١ م.

الأصفهانى،

٤٤- الأغاني، شرحه وكتب هوامشه، سمير جابر، دار الكتب العلمية- بيروت
لبنان، ط ٢ ، ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م.

ابن أعثم الكوفي،

أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي [ت: ٣١٤ هـ = ٩٢٦ م]

٣- الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م
السيد محمود شكري الألوسي البغدادي

اللوسي،

٧٩- بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، تصحيح وضبط محمد بهجة الأثري،
دار الكتب العلمية بيروت، ط (بدون).

البسوي،

أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوی [ت: ٢٧٧هـ = ٨٩٠م]
٦٤ - المعرفة والتاريخ، تحقيق، أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ط٢،
١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

ابن بطوطة،

محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي أبو عبدالله [ت: ٧٦٧هـ = ١٣٦٥م]
١٣ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق علي المنتظر
الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٥هـ = ١٩٩٤م.

البغدادي،

أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي [ت: ٤٦٣م = ٤٧٠هـ]
٤٧ - تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط (بدون).

البغدادي،

عبدالقادر بن عمر البغدادي [ت: ١٠٩٣م = ١٦٨٢م]
٤٨ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة
الخانجي القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

البكري أبو عبيد،

عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي [ت: ٤٨٧هـ = ١٠٩٢م]
٤٩ - معجم ما استجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم
الكتب، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.

البلذري،

الإمام أحمد بن حمّى بن جابر البلذري، أبو العباس، البلذري
[ت: ٢٧٩هـ = ٨٩٢م]

٥٠ - فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت
لبنان ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.

٥١ - أنساب الأشراف، تحقيق وتقديم ، سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر،
بيروت لبنان، ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م

ابن تغري بردي،

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي [ت: ٤٦٩هـ = ١٤٦٩م]
٤١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف
والترجمة والطباعة والنشر، مصر ط (بدون).

التنوخي،

القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي [ت: ٣٨٤هـ = ٩٩٤م]
٥٢ - الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر بيروت
١٣٩٨م = ١٩٧٨م.

التوحidi،

علي بن محمد بن العباس التوحidi [١٤٠٢ هـ = ١٠٢٣ م] ٥٣- البصائر والذخائر ، تحقيق وداد القاضي ، دار صادر بيروت لبنان ، ط ١ سنة بدون

أبو حيان

التوحidi،

٣٤- الإمتاع والمؤانسة ، صحه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين، وأحمد الزين، المكتبة العصرية - بيروت - صيدا ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م.

الجاحظ،

٤٥- البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

الجرجاني،

٥٥- تاريخ جرجان ، تحقيق عبد المعيد خان ، عالم الكتب - بيروت ، ط ٣، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.

الجرجاني،

أبو بكر عبدالقاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني [١٠٧٨ هـ = ٤٧١ م] ٥٦- دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد التجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ط ١ ، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م.

الجمحي،

محمد بن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء [١٢٣١ هـ = ٨٤٥ م]

٥٧- تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المدنى ، جدة ط (بدون).

ابن الجوزي،

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي [١٢٠٠ هـ = ٥٩٧ م] ٧- المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا ، مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م

٨- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، دار المنار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م

٩- صفوۃ الصفوۃ ، تحقيق محمود فاخوري ، محمد دواس قلعي ، دار المعرفة

- ٢٦ - بيروت، ط ٢٩٩ هـ = ١٩٧٩ م [٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م] محمد بن حبان بن أَبِي حاتِم البَسْتَي [ت: ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م]
- ٢٧ - كتاب الثقات، مؤسسة الكتب الثقافية ، طبع بمساعدة وزارة المعارف والشؤون الثقافية ، الحكومة الهندية، ط ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.
- ابن حزم** ابي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلس [ت: ٤٦٥ هـ = ١٠٦٣ م]
- ٢٨ - رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٤٠١ = ١٩٨٠ م.
- ٢٩ - جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعرف ، ط ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢ م.
- ابن حماد** نعيم بن حماد المروني أبو عبدالله [٢٨٨ هـ = ٩٠٠ م]
- ٣٠ - الفتن - تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد القاهرة ط (بدون).
- ابن حمدون** محمد بن الحسن بن محمد بن علي [ت: ٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م]
- ٣١ - التذكرة الحمونية، تحقيق إحسان عباس، بكر عباس، دار صادر، بيروت لبنان ، ط ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م.
- الحميري** محمد بن عبد المنعم الحميري [٤٩٥ هـ = ١٤٩٥ م]
- ٣٢ - الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ط ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م.
- الحنبي** عبدالحي بن أحمد العكري الدمشقي [ت: ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨ م]
- ٣٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط (بدون)
- الحنفي** علاء الدين مغلطاي ابن قليح بن عبدالله البكري الحنفي [ت: ٧٦٢ هـ = ١٣٦٠ م]
- ٣٤ - إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال تحقيق عادل بن محمد، أسامة بن إبراهيم ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م
- ابن خرذاذبة** أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله [ت: ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م]
- ٣٥ - المعروف بابن خرذاذبة، تقديم محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

- ابن خلدون،** عبد الرحمن بن خلدون [ت: ١٤٠٦-١٤٠٨م]
- ٢١- تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط وتعليق ومراجعة خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر ، بيروت، ١٤٢١هـ=٢٠٠١م.
- ٢٢- المقدمة، دار القلم بيروت، ط٥ ، ١٤٠٥هـ=١٩٨٤م.
- ابن خلكان،** أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان [١٢٨٢هـ=١٢٨٢م]
- ٢٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ط (بدون)
- خليفة بن خياط،** أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصيري [٢٤٠هـ=١٩٥٤م]
- ٦٢- تاريخ خليفة بن خياط، مراجعة وضبط الدكتور، مصطفى نجيب فواز، الدكتورة حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط١، ١٤١٥م=١٩٩٥م.
- الدارمي،** عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي [٢٥٥هـ=١٩٦٨م]
- ٦٣- سنن الدارمي، تحقيق فواز زولي، خالد العلمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٤٠٧هـ=١٩٨٦م.
- الداني،** أبو عمرو عثمان المقرئ الداني [٣٦٠هـ=١٩٧٠م]
- ٦٤- السنن الواردة في الفتن، تحقيق ضياء الدين بن محمد المباركفوري، دار العاصمة الرياض ط١، ١٤١٦٥هـ=١٩٩٥م.
- ابن دقماق،** إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي [ت: ٨٠٩هـ = ١٤٠٦م]
- ٦٤- المعروف بابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلطانين، تحقيق سعد عبدالفتاح عاشور، مراجعة أحمد السيد دارج، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، ١٤٠٣هـ=١٩٨٢م.
- ابن أبي الدنيا،** الإمام الحافظ أبو بكر عبيد ابن أبي الدنيا [ت: ٢٨١هـ=١٩٩٤م]
- ٢- الإشراف في منازل الأشراف، تقديم وتعليق نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١ ١٤١١هـ=١٩٩٠م.

- الدينوري أبو** أحمد بن داود الدينوري [ت: ٢٨٢ هـ = ١٨٩٥ م] حنيفة،
- ٦٥ - الأخبار الطول، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال إداره إحياء التراث ط (بدون).
- أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري [ت: ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م] الدينوري،
- ٦٦ - المعارف، تحقيق وتقديم، ثروت عكاشة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٦، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.
- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي [ت: ٤٧٨ هـ = ١٣٤٧ م] الذهبي،
- ٦٧ - العبر في خبر من غير ، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت - الكويت، ط ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨ م.
- ٦٨ - سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقوس، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٩، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.
- ٦٩ - دول الإسلام، عنى بطبعه ونشره عبدالله بن إبراهيم الأنصارى، إداره أحیاء التراث الإسلامي، ط (بدون)
- ٧٠ - الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق وتعليق ، رياض عبد الحميد مراد، عبد الجبار زكار، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م.
- ٧١ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري دار الفكر العربي، ط ١، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٣ م.
- عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي [٩٣٨ م = ٣٢٧ هـ]
- ٧٢ - الجرح والتعديل مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ط ١ (بدون).
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي [ت: ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م] الرازي،
- ٧٣ - مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ، ناشرون بيروت، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م.

- أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الرقي الحنبلـي [١٣٠٣هـ=١٣٠٣م] ، الرقـى،
- ٧٤- أحسن المحسـن، تحقيق وتعليق، عبد المعـطي أمـين قـلعيـ، دار الوعـي طـلب طـ، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.
- خير الدين الزركـلي ، [١٣٢٠هـ=١٣٢٠م] تقرـيباً ، الزركـلي،
- ٧٦- الأعلام ، دار العـلم للمـلايين ، طـ، ١٠، بيـروـت ١٩٩٢.
- مـحمد بن عمر الزـمخـشـري [١١٤٣هـ=٥٣٨ت:] ، الزـمخـشـري،
- ٧٧- الفـائق في غـرـيبـ الـحـدـيـثـ ، تـحـقـيقـ عـلـيـ مـحـمـدـ الـبـجـاوـيـ ، مـحـمـدـ أـبـوـ الـفـضـلـ إـبـراـهـيمـ دـارـ الـمـعـرـفـةـ، لـبـانـ طـ٢ـ ، سـنـةـ (بدـونـ).
- مـحمدـ بنـ سـعـدـ بـنـ منـيـعـ أـبـوـ عـبـادـالـبـصـرـيـ الزـهـرـيـ [١٢٣٠هـ=٤٤م] ، ابنـ سـعـدـ،
- ٢٥- الطـبقـاتـ الـكـبـرـىـ ، دـارـ صـادـرـ بيـروـتـ لـبـانـ طـ١ـ (بدـونـ)
- الإـلـامـ أـبـوـ مـسـعـدـ عـبـدـالـكـرـيمـ بـنـ مـحـمـدـ ، ابنـ منـصـورـ التـمـيـيـ [١١٦٦هـ=٦٥٦٢م] ، السـمعـانـيـ،
- ٧٨- الأـنـسـابـ ، تـقـديـمـ وـتـعـلـيقـ عـبـدـالـلـهـ عـمـرـ الـبـارـوـدـيـ ، دـارـ الـجـنـانـ ، بيـروـتـ لـبـانـ ، طـ، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م
- عبدـالـرـحـمـنـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـ السـيـوطـيـ [١٥٠٥هـ=١١١١م] ، السـيـوطـيـ،
- ٨٠- تـارـيخـ الـخـلـفـاءـ ، تـحـقـيقـ مـحـمـدـ مـحـيـ الدـيـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ ، مـطـبـعـةـ السـعـادـةـ مـصـرـ ، طـ، ١٣٧١هـ=١٩٥٢م.
- عزـالـدـينـ مـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ بـنـ إـبـراـهـيمـ بـنـ شـدـادـ ، بنـ شـدـادـ،
- ٨٦- الـأـعـلـاقـ الـخـطـيرـةـ فـيـ ذـكـرـ أـمـرـاءـ الشـامـ وـالـجـزـيرـةـ ، تـحـقـيقـ يـحـيـيـ زـكـرـيـاـ عـبـارـهـ ، منـشـورـاتـ وزـارـةـ التـقـاـفـةـ دـمـشـقـ ، طـ، ١٤١٢هـ=١٩٩١م.
- أـبـوـ الـحـسـنـ عـلـيـ بـنـ بـسـامـ الشـنـتـرـيـنيـ [١١٤٧هـ=٤٢م] ، الشـنـتـرـيـنيـ،
- ٨١- الـذـخـيرـةـ فـيـ مـحـاسـنـ أـهـلـ الـجـزـيرـةـ ، تـحـقـيقـ إـحـسانـ عـبـاسـ ، دـارـ التـقـاـفـةـ بيـروـتـ ، طـ، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م.
- أـحـمـدـ بـنـ عـمـرـ بـنـ أـبـيـ عـاصـمـ الشـيـبـانـيـ أـبـوـ بـكـرـ [٩٠٠هـ=٢٨٧م] ، الشـيـبـانـيـ،
- ٨٢- الـأـوـائـلـ ، تـحـقـيقـ مـحـمـدـ بـنـ نـاـصـرـ الـعـجمـيـ ، دـارـ الـخـلـفـاءـ لـلـكـتـابـ الإـسـلامـيـ ، الـكـوـيـتـ طـ (بدـونـ).

- سلیمان بن احمد الطبرانی [١٠١٤ هـ = ٤٠٥ م] ، **الطبرانی**،
- ٨٣ المعجم الكبير ، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السافي ، مكتبة العلوم والحكم
الموصل ط، ٢٤، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٣ م.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبری [٥٣١٠ هـ = ٩٢٢ م] ، **الطبری**،
- ٨٤ تاريخ الأمم والملوک، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م.
- عبدالملك بن حسين عبد الملك الشافعی العاصمي [١١١١ هـ = ١٦٩٩ م] ، **ال العاصمي**،
- ٨٥ سبط النجوم العوالی، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض،
دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م.
- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسی [٥٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م] ، **ابن عبدربه**،
- ٢٦ العقد الفريد، تحقيق عبدالمجيد الترھینی، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،
ط ٣، ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م.
- غر يغودیوس الملطي المعروف بابن العبری، [٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م] ، **ابن العبری**،
- ١٠ تاريخ مختصر الدول، ط ١ ، سنة (بدون).
- الصاحب کمال الدين عمر بن أبی جراده [٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م] ، **ابن العدیم**،
- ١١ بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدم له سهیل زکار، دار الفكر بيروت
لبنان ط ، (بدون)
- أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعی [٥٧١ هـ = ١١٧٥ م] ، **ابن عساکر**،
- ٢٧ المعروف بابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق..، دراسة وتحقيق محب الدين
أبی سعید عمر بن غرامه العمروی، دار الفكر، ط ١، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ ك.
- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعی [٤٤٨ هـ = ١٤٤٨ م] ، **العسقلاني**،
- ٨٧ الإصابة في تمییز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوی، دار الجبل بيروت،
ط ١، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.
- ٨٨ تقریب التهذیب، قدم له وقابلہ بأصل مؤلفه، محمد عوامه، دار الرشید
سوریا، حلب ط ٤، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.

- ٨٩- فتح الباري، بشرح الإمام البخاري، دار الريان للتراث ط ٣ ،
١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.
- الفاسي،
تقى الدين محمد بن أحمد الحسني المكي [١٤٢٨هـ = ١٤٣٢م]
- ٩٠- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سير، مؤسسة الرسالة، بيروت
لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- الفاسي،
الإمام الحافظ محمد بن أحمد بن علي القرشي الهاشمي الحسيني
[١٤٢٧هـ = ١٤٣٢م]
- ٩١- الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق وتعليق أديب محمد
القراوي، دار صادر بيروت، ط ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- الفاكهي،
محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، أبو عبدالله [٢٧٥هـ = ٨٨٨م]
- ٩٢- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك دهيش، دار حضر،
بيروت لبنان ، ط ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م
- القالي،
أبو علي اسماعيل القاسم القالي البغدادي [٣٥٦هـ = ٩٦٦م]
- ٩٣- ذيل الأمالى والنواذر، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط (بدون).
- ابن قتيبة،
الإمام أبو محمد عبدالله بن مسلم [٢٧٠هـ = ٨٨٣م]
- ٢٨- الإمامة والسياسة "منسوب" مطبعة الأمة مصر ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م.
- القرطبي،
أبو حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس،
- ٣٥- تحقيق وتقدير محمود علي مكي دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان،
١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
- القرطبي،
أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي [٦٦٨هـ = ١٢٦٩م]
- ٩٤- الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- أبو عمر الإمام أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي
القرطبي، [٥٤٦٣هـ = ١٠٧١م]
- ٣٦- بهجة المجالس وأنس المجالس وشذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي
الخلوي، مراجعة عبدالقادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ط (بدون).

- أحمد بن يوسف القرماني [ت: ١٠١٩هـ = ١٦١٠م] ، القرماني،
- ٩٥ - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، دراسة وتحقيق أحمد خطيط فهمي سعد ، عالم الكتب ، بيروت ط ١ ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.
- ذكر يا بن محمد بن محمود القزويني [ت: ٦٨٢هـ = ١٢٨٣م] ، القزويني،
- ٧٥ - آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ، ط (بدون).
- الإمام أبو عبد الله محمد بن علي القلعي [ت: ٦٣٠هـ = ١٢٣٢م] ، القلعي،
- ٩٨ - تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ، تحقيق إبراهيم يوسف مصطفى عجو مكتبة المنار ، الأردن الزرقاء ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- أحمد بن علي القاشندي [ت: ٨٢١هـ = ١٤١٨م] ، القاشندي،
- ٩٦ - صبح الأعشى في صناعة الإنثا ، تحقيق يوسف علي طويل ، دار الفكر دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.
- ٩٧ - مآثر الأنقة في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.
- محمد بن شاكر الكتبى [ت: ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م] ، الكتبى،
- ٩٩ - فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٣٩٤م = ١٩٧٤م.
- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء [ت: ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م] ، ابن كثير،
- ٣٠ - البداية والنهاية ، مكتبة المعرف ، بيروت لبنان ط ١ (بدون).
- محمد بن يزيد المبرد [ت: ٢٨٥هـ = ٨٩٨م] ، المبرد،
- ١٠٠ - الكامل في اللغة والأدب ، حقق بإشراف مكتبة المعرف بيروت ، ط (بدون).
- أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان [ت: ٣٠٩هـ = ٩٢١م] ، المرزبان،
- ١٠١ - المروءة وما جاء في ذلك عن النبي وعن الصحابة والتابعين ، تحقيق خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- الحسين بن محمد المرعشى [ت: ٤٢١هـ = ١٠٣٠م] ، المرعشى،
- ١٠٢ - غرر السير ، تحقيق وتقديم ، سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت لبنان ط ١،

- ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م. الحافظ جمال الدين أبو الحاج يوسف المزي [ت: ١٣٤١ هـ = ٧٤٢ م]
- ١٠٣ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي [ت: ٩٥٧ م = ٣٤٦ هـ] المسعودي،
- ١٠٤ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه وقدم له مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦ هـ = ١٩٩٦ م
- طبعة أخرى، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م.
- أبو الريبع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقى الدين المصري: [١٤٦١ هـ = ١٢١٧ م]
- ١٠٥ - إيقاع المبني وافتراق المعاني تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر، دار عمار، عمان ط١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م.
- شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي [ت: ١٢٦٦ هـ = ٦٦٥ م]
- ١٠٨ - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ط١، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م.
- محمد بن أحمد المقدسي [ت: ٩٩٩ م = ٣٩٠ هـ]
- ١٠٦ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٤٠١ هـ = ١٩٨٠ م.
- المطهر بن طاهر المقدسي [ت: ١١١٣ م = ٥٠٧ هـ]
- ١٠٧ - كتاب البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، ط (بدون)
- ابن قدامة موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي [م ١١٢٣ = ٦٢٠ هـ]
- ٢٩ - الرقة والبكاء، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق ط١، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤ م.
- أحمد بن محمد المقرى التلمساني [ت: ١٠٤١ هـ = ١٦٣١]
- ١٠٩ - نفح الطيب من غص الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م.

- اللَّمَاءُ،
الأمام أبو حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء [١١٧٤هـ=١٩٥٧م]
- ١١٠- الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق وتعليق، محمد صدقي البورنو، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.
- ابن منظور،
محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ابن منظور [١٣١١هـ=١٧١١م]
- ٣١- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، تحقيق إبراهيم صالح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، ط ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.
- ٣٢- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت، ط ١ سنة (بدون).
- النعمي،
عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي [١٥٧٠هـ=١٩٧٨م]
- ١١١- الدرس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ=١٩٨٩م.
- النwoوي،
الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي [١٢٦٨هـ=١٦٧٦م]
- ٤٥- صحيح مسلم، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.
- النwoوي،
الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي [١٢٦٨هـ=١٦٧٦م]
- ١١٢- شرح صحيح مسلم، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م
- الناسوري،
أحمد بن محمد الميداني الناسوري [١١٢٤هـ=١٥١٨م]
- ١١٣- مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ،
بيروت ، ط (بدون).
- الناسوري،
الحاكم محمد بن عبدالله [١٠١٤هـ=٤٠٥م]
- ٥٨- المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية بيروت،
١٤١١هـ=١٩٩٠م.
- الهيثمي،
علي بن أبي بكر الهيثمي [١٤٠٤هـ=٨٠٧م]
- ١١٤- مجمع الزوائد ، دار الكتاب العربي بيروت، دار الريان للتراث ، القاهرة ،
١٤٠٧هـ=١٩٨٦م.
- ابن الوردي،
زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي [١٣٨٢هـ=١٧٤٩م]
- ١٢- تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، ط ٢١٣٨٩هـ=١٩٦٩م.

اليافعي،

أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي [ت: ٧٦٨ هـ = ٣٦٦ م] ١١٥ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٤٦٣ هـ = ١٩٩٢ م.

ياقوت الحموي،

ياقوت بن عبدالله الحموي أبو عبدالله [٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م]

١١٦ - معجم البلدان، دار الفكر ، بيروت، ط (بدون).

اليعقوبي،

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباس [٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م]

١١٧ - تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت، ط (بدون).

ثالثاً: قائمة المراجع

- بِيضُون، إِبْرَاهِيمٌ.
- ٢- تكوين الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار أقرأ ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م. إِبْرَاهِيمٌ . العدوِي،
- ١- التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م. أَحْمَد.
- ٣- موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م. أَحْمَد. صفوَت،
- ٤- جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية- بيروت، ط (بدون) بسام. العسلي،
- ٥- مشاهير الخلفاء والأمراء عبد الملك، دار النفائس، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م. جمال بهاء الدين أسعد. الخلفات،
- ٦- العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، دار المنارة، الأردن، ط ٢، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م. حسن. أيوب،
- ٧- الجهاد والفدائية في الإسلام، المطبعة العصرية- الكويت ، ط ١، ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م. حسن. تركماني،
- ٨- الدهاء في الحرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط (بدون). حسين الوليد بن يزيد. عطوان،
- ٩- عرض ونقد، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م حمدي. حسين ،
- ١١- تاريخ الدولة العربية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م

- حسن، رضا السيد.
- ١٣- المعارك والأسر بين العرب والروم، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع
ببيروت، ط١، ٤٠٥ هـ=١٩٨٥ م.
- الجنابي، خالد.
- ١٢- تنظيمات الجيش الإسلامي في العصر الأموي، دار المعرفة ، بيروت
١٩٩٥ م.
- عبدالحميد، سعد زغلول.
- ١٥- تاريخ الدولة العربية، الناشر، جامعة بيروت العربية، ١٣٩٧ هـ=١٩٧٦ م.
- أبو عزب، سليمان.
- ١٦- موافق من التاريخ العربي، دار الثقافة الدوحة، ط١، ١٤١١ هـ=١٩٩١ م.
السيد عبدالعزيز سالم أحمد.
- العادي، كاشف ، سيدة.
- ١٧- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، [المؤلفان]
بيروت، ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م.
- مصطفى، شحادة. وجميل بيضون
- ١٨- أعلام العرب الوليد بن عبد الملك، المؤسسة المصرية العامة،
١٣٨٢ هـ=١٩٦٢ م.
- الناطور، شحادة .
- ١٩- موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، ط١،
١٤١٤ هـ=١٩٩٣ م.
- الناطور، شحادة .
- ٢٠- الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري، دار الثقافة ودار الأمل ،
١٤١١ هـ=١٩٩٠ م.
- الناطور، شحادة .
- ٢١- تجديد الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، دار الكندي للنشر
والتوزيع ط١، ١٤١٦ هـ=١٩٩٦ م.

- صالح. العلي،
٢٣- امتداد العرب في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، ط٢، ٢٠٣ هـ=١٩٨٣ م.
- ضرار صالح العرب. ضرار،
- ٢٥- من معين إلى الأمويين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان ط٤، ١٣٩٩ هـ=١٩٧٨ م.
- طارق. منصور،
- ٢٦- بيزنطية والعالم الخارجي، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤ هـ=٢٠٠٣ م.
- عبدالحميد. العبادي،
- ٢٧- صور وبحوث من التاريخ الإسلامي، مكتبة الانجلو المصرية- القاهرة ١٤١٦ هـ=١٩٩٥ م.
- عبدالرحمن. البasha،
- ٢٨- صور من حياة التابعين، دار الأدب الإسلامي، قبرص، ١٤٢٣ هـ=٢٠٠٢ م
- عبدالرحمن. البربرى،
- ٢٩- في ظلال التاريخ، دار البشير، للثقافة والعلوم، ١٤٢٤ هـ=٢٠٠٣ م.
- عبداللطيف، عبد الشافى.
- ٣٠- محمد العالم الإسلامي في العصر الأموي، [المؤلف] ١٤٠٤ هـ=١٩٨٤ م
- عبدالعزيز. عبدالدائم ،
- ٣١- تاريخ الدولة العربية، دار نهضة الشرق، ١٤١٧ هـ=١٩٩٦ م
- عبدالمنعم عبد العزيز شرف. الخفاجي،
- ٣٢- معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية ط١، ١٤١٢ هـ=١٩٩٢ م.
- عبدالمنعم. ماجد،
- ٣٣- التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، مكتبة الانجلو المصرية ط٦، ١٤٠٣ هـ=١٩٨٢ م.

- فروخ، عمر.
- ٣٥- تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين ، ط٤، ١٤٠٠هـ=١٩٧٩م.
- عيسي، رياض النزاع بين أفراد البيت الأموي ودوره في سقوط الخلافة الأموية، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٦٥هـ=١٩٨٥م.
- أحمد، محمد.
- ٣٦- الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، ط٢، ١٤١٨هـ=١٩٩٧م.
- الأسود، محمد.
- ٣٧- شوامخ وأعلام الإسلام، مكتبة معروف الإسكندرية، ط (بدون).
- بطانية، محمد.
- ٤٠- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.
- الخضري، الشيخ محمد.
- ٢٢- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية، الجزء الأول، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.
- رضا، محمد رشيد.
- ٤٢- تفسير القرآن الكريم المعروف بتفسير المنار، دار إحياء التراث العربي، ط١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.
- سعد، محمد.
- ٤٣- موسوعة التاريخ الهجري، دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان، ط١، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٣م.
- شعبان، محمد.
- ٤٤- صدر الإسلام والدولة الأموية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٤٠٨هـ=١٩٧٨م.

- الشيخ، محمد.
- ٣٨ - تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية
- ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- محمد ضياء الدين.
- الرئيس،
- ٤٥ - عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، مطابع سجل العرب، ط٢،
- ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.
- محمد.
- طقوش،
- ٤٦ - تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط٣، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- محمد.
- كتعان،
- ٤٧ - تاريخ الدولة الأموية خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر بيروت - لبنان، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
- محمد.
- المحامي،
- ٣٩ - تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط٢،
- ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.
- محمد.
- هيكل،
- ٤١ - خير الجهاد والقتل في السياسة الشرعية، دار البيارق ، دار الحديث، بيروت ط٢٧، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.
- محمود.
- شاكر،
- ٤٨ - موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسماء للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط١٤٢٣، ١٤٠٢هـ = ٢٠٠٢م.
- محمود.
- شاكر،
- ٤٩ - موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسماء للنشر والتوزيع، الأردن عمان ط١، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- محمود شيت.
- خطاب،
- ٥٠ - قادة فتح العراق والجزيرة، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت لبنان، ط٤ ، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

- معروف، نايف.
- ٥٢- الخوارج في العصر الأموي نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم، دار الطليعة، بيروت، ط ١ ، ١٣٧٩ هـ=١٩٧٧ م.
- الطالب، هشام.
- ٥٣- دليل التدريب القيادي، دار نشر ط (بدون)، ١٤١٦ هـ=١٩٩٥ م.
- عبد الله، وديع.
- ٥٤- العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، ١٤١١ هـ=١٩٩٠ م.
- فرج، وسام.
- ٥٥- بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي والإداري، عبيد للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ=٢٠٠٤ م.
- الدقوقى، وفيق.
- ٥٦- الجنديه في عهد الدولة الأموية، مؤسسة الرسالة، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ=١٩٨٥ م.
- العش، يوسف.
- ٥٧- الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، دار الفكر دمشق ، ط ٥ ، ١٤١٩ هـ=١٩٩٨ م.
- نظام ولادة العهد ووراثة الخلافة في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط ١ ، ١٤١١ هـ=١٩٩١ م.
- ٣٤- التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ، ط ٨ ، ١٤١٩ هـ=١٩٩٨ م.
- الموسوعة العربية العالمية.
- ٥١- مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢ ، ١٤١٩ هـ=١٩٩٩ م.

رابعاً: المراجع المترجمة:

شهيدي، جفر.

- ١- تاريخ الإسلام التحليلي حتى نهاية العهد الأموي، ترجمة عائد الزين ، مراجعة رياض الآخرس، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ، ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م. على، سيد أمير.
- ٢- مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ترجمة رياض رافت، دار الأفاق العربية، ط ١ ، ١٤٢١هـ=٢٠٠١م. بروكلمان، كارل.
- ٣- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة ، نبيه أمين فارس، منير البعبكي، دار العلم للملائين، ط ١٢ ، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م. صديقي، محمد.
- ٤- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، ترجمة سمير إبراهيم، رابطة الجامعات الإسلامية، ط ١ ، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

Abstract

Study target:

The study aims at several sides as:

- 1- presentation Maslama personality and his different sides.
- 2- Memorial Maslama in establishment of the Islamic country by his great conquests from side and in the other side what does he do to extinction the internal sedition .
- 3- Study the benefit from the lessons of Maslama life
- 4- Supply the historicity Arabian library by adding the specialist study around Great personality that the historians overlooked it.

Study curriculum

The researcher abided by in this study the analytic historical approach , according to the scientific method in the historic studies.

The study contents

The research is divided this study in four main chapters:

The first chapter:

The researcher tell us in this chapter about Maslama personality and his kinship in four topic:

- Firs topic: his kinship, birth and his arises.
- Second topic: his culture and his qualities
- Third topic: his properties and his situation from the caliphate enterprise
- The fourth topic: his age, and some scientists opinion in him and his death

The second chapter:

The researcher talk about Maslama conquests and his jihad in three topic

- First topic: Maslama Jihad in his father life Abd Elmalek and in his brother life ALwaleed
- Second topic: His conquests in caliphate Suliman age and Omar ben abd El Azeez
- The third topic: His jihad in yazeed and Hesham life

The Third chapter

In this chapter the researcher telling about the revolution that was Maslama participated in extinction it and that was been in three topic

- The first topic : his turn in extinction Garagema .
- The second topic: his turn in extinction Shawthap revolution.

- The third topic: his turn in extinction Yazeed ben Al mohalap revolution .

The Fourth chapter

In this chapter the researcher take the more prominent side in Maslama live through four topic

- The first topic: The military side in Maslama life.
- The second topic: The administrative side in Maslama life.
- The third topic: The ethical side in Maslama life.
- The fourth topic: The literary side in Maslama life.

The most important results:

- 1- Maslama was characterized by an extraordinary leading personality that qualifies him within the great leaders in the human history.
- 2- The conflict nature that was existing between the Muslim and the Romans is still existing until today but by forms and new names.
- 3- Maslama personality included many sides that has been despite being an extraordinary leader that has been an eloquent man of letters acknowledgeable.
- 4- The campaign that Maslama do was the great danger led on the Byzantine state's capital that was about to fail in the hands of Muslims Arabs formed.

The Recommendations:

- 1- The researcher advises on the care, the study of the history of the Islamic conquest leaders and the benefit from that.
- 2- The researcher advise that the approach of the biography of the conquest leader to the youth and become within the academic curricula.
- 3- The researcher advises on the examination of seditions in the Islamic history for the protection from her evil .

فهرس الموضوعات

٤	الإهداء
٥	شكر وتقدير
٦	المقدمة
١٠	الفصل الأول :- شخصية مسلمة بن عبد الملاك
١١	المبحث الأول : - نسبه وموالده ونشأته
١٢	نسبه وموالده
١٤	ذرية مسلمة
١٥	نشأته
٢١	المبحث الثاني : ثقافته وصفاته
٢٢	* ثقافته
٢٩	* صفاتاته
٢٩	١ - الكرم
٣٢	٢ - الشجاعة
٣٥	٣ - حبه للصالحين
٤١	٤ - المروءة
٤٧	المبحث الثالث : أملاكه و موقفه من مؤسسة الخلافة
٤٨	* أملاكه
٥٢	* موقفه من مؤسسة الخلافة
٥٩	المبحث الرابع : عصره ورأي بعض العلماء فيه ووفاته
٦٠	* عصره
٦٣	* رأي بعض العلماء في مسلمة
٦٨	* وفاة مسلمة
٧١	الفصل الثاني : فتوحات مسلمة بن عبد الملاك وجهاده

٧٢	المبحث الأول: جهاد مسلمة في عهد والده عبد الملك وفتوحاته وجهاده في عهد الخليفة الوليد
٧٣	* جهاد مسلمة في عهد والده عبد الملك
٧٩	فتوح مسلمة وجهاده في عهد الخليفة الوليد
٨٩	المبحث الثاني: جهاده وفتوجه في عهد الخليفة سليمان وجهاده في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز
٩٠	جهاد وفتوح مسلمة في عهد الخليفة سليمان
١٠٤	جهاده وفتوح مسلمة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز
١٠٨	مسلمة قبل الانسحاب من القسطنطينية
١١٦	المبحث الثالث:
١١٧	* فتوح مسلمة وجهاده في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك
١١٩	* فتوح مسلمة وجهاده في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك
١٢٨	الفصل الثالث: الفتنة التي شارك مسلمة بن عبد الملك في إخمادها
١٢٩	المبحث الأول: دور مسلمة في إخماد فتنة الجراحمة
١٣٨	المبحث الثاني: دور مسلمة في إخماد فتنة شوذب الخارجي
١٤٥	الجسم العسكري
١٤٩	المبحث الثالث: دور مسلمة في إخماد فتنة يزيد بن المهلب
١٥٢	بداية الخلاف مع يزيد بن المهلب
١٥٧	تطور الخلاف بين يزيد بن المهلب والخليفة يزيد بن عبد الملك
١٦٤	الخلافة تكلّف مسلمة بإنهاء تمرد يزيد بن المهلب
١٨١	الفصل الرابع: الجوانب البارزة في حياة مسلمة
١٨٢	المبحث الأول: الجانب العسكري في حياة مسلمة
١٨٤	الأساليب والخطط العسكرية التي استخدمها مسلمة في غزواته
١٨٥	١- التعبئة الحسنة
١٨٧	٢- استخدام الحرب النفسية
١٩٠	٣- الحصار والمرابطة الطويلة

١٩١	٤ - إقامة موقع عسكرية محصنة
١٩٤	٥ - استخدام الزيت والكتان كوقود
١٩٥	٦ - التكبير وقلة الكلام حين مواجهة العدو
١٩٧	المبحث الثاني : الجانب الإداري
١٩٨	إصلاحات مسلمة الإدارية في العراق وخراسان
٢٠٣	إصلاحات مسلمة الإدارية في أرمينيا وأذربيجان
٢١٥	المبحث الثالث :
٢١٦	الجانب الأخلاقي في حياة مسلمة
٢١٨	زهد مسلمة وتقواه
٢٢٣	المبحث الرابع :
٢٢٤	الجانب الأدبي في حياة مسلمة
٢٢٦	مسلمة والشعر
٢٣١	من أقوال الشعراء في مسلمة
٢٣٢	تشجيع العلم والعلماء
٢٣٦	الخاتمة
٢٣٩	التصنيفات
٢٤٠	المصادر والمراجع
٢٦١	ملخص باللغة الانجليزية
٢٦٣	الفهرست